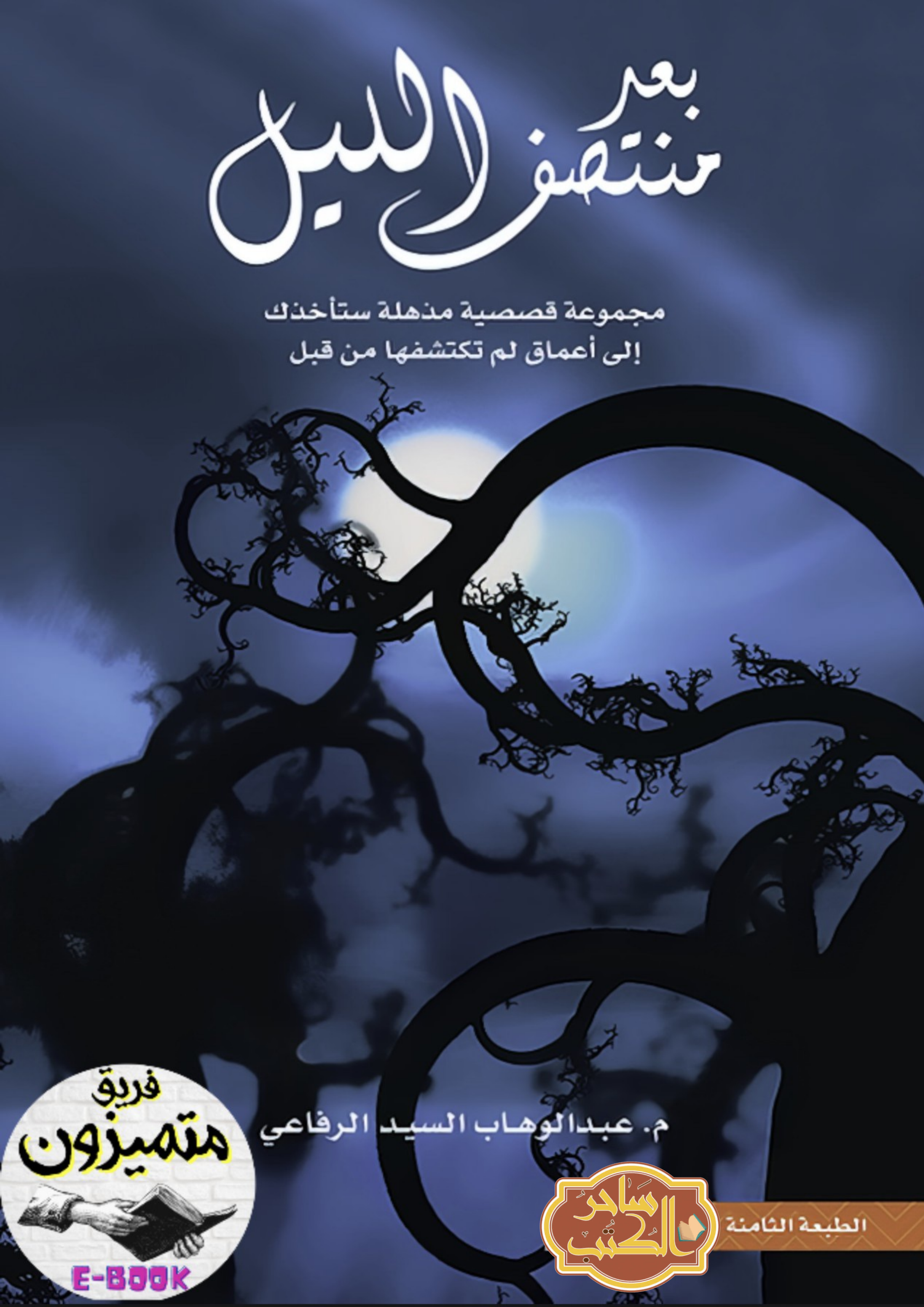

بعد منتصف الليل
مجموعة قصصية مذهلة ستأخذك
إلى أعماق لم تكتشفها من قبل
م. عبدالوهاب السيد الرفاعي
الطبعة الثامنة
فريق متميزون
E-BOOK
ساحر الكتب


فريق
متميزون
E-BOOK

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما امكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج اكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين ايديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

بعد منتصف الليل..

عبد الوهاب السيد الرفاعي

غرفة الكنز

طالما حلمت بالثراء ورأيت حياة الأغنياء وانبهرت فيها.. كنت أشعر أن الأغنياء يختلفون كثيرا عنا.. لماذا؟!.. لأنهم يمتلكون المال بالطبع!!.. وهو سبب وجيه كما ترون!!.. كنت أتمنى أن أكون مثلهم.. أعيش في عالمهم الخاص.. أقضي الصيف بأكمله في أرقى مناطق أوروبا.. أمتلك أرصدة ضخمة في البنوك وسيارة فارهة تخطف قلوب الفتيات.

لكن لم تكن لديّ أي مؤهلات لهذا.. فقد حصلت على أكثر من قرض من البنوك للدخول إلى عالم المشاريع والتجارة لتحقيق أحلامي.. لكن.. دائما ما كان الفشل من نصيبي.. حتى شعرت للحظة أن هناك أناسا قد كتب على جبينهم الفقر وسوء الطالع.. وأنا منهم!!.. فكان أفضل ما حصلت عليه هو شهادة الثانوية العامة وبصعوبة بالغة.

لذا فقد تحولت إلى إنسان متذمر ناقم طوال الوقت.. فأقضي ساعات طويلة في المقاهي أشاهد التلفاز وأدخن الشيشة.. ولا أملك سوى أحلام اليقظة.. لكن تلك الأحلام كانت تتبخر مع دخان الشيشة عندما أتذكر واقعي المرير.. الواقع الذي يقول إن راتبي بالكاد يكفيني رغم أنني أعزب.. خاصة مع الاستقطاعات البنكية اللعينة!!!.. فجزء من الراتب يذهب لقسط السيارة.. وجزء آخر إلى البنوك بسبب القروض التي تراكمت على كاهلي بعد فشلي في كل مشاريعي التجارية.. وهكذا!!. لقد توفي والدي دون أن يترك لي شيئا.. ولحقت به والدتي منذ سنتين تقريبا.. لأبقى وحيدا دون إخوة.. وأبتعد عن أقاربي شيئا فشيئا بعد أن شعرت أن لا فائدة تذكر من التواصل الاجتماعي الذي أراه مضيعة للوقت.. خاصة وأن هؤلاء الأقارب لا يفعلون شيئا عندما يرونك سوى التذمر من أنك لا تزورهم أو تسأل عنهم.. وكأنهم يسألون عني طوال الوقت ويترقبون التواصل معي!!!.

لقد كان بعض أصدقائي يحاولون لفت انتباهي إلى الكنز الثمين - على حد قولهم - الذي أمتلكه ولا يمتلكه الكثيرون غيري.. كانوا يتحدثون عن حياة العزوبية التي أعيشها دون أي مسؤوليات.. وبوظيفة حكومية لا تلزمني بساعات عمل محددة.. حيث أتغيب كثيرا كعادة الكثيرين في الوظائف الحكومية.. ثم أحصل على راتبي في نهاية الشهر.. وكلامهم صحيح إلى حد ما.. لكن.. تلك الحرية لا قيمة لها إذا كنت لا تمتلك المال!!.

كان هذا حالي طوال السنوات التي تلت تخرجي من الثانوية العامة.. والتي لم أجد فيها سوى الفشل.. والفشل.. غير عالم أنني مقبل على مغامرة مذهلة لا تصدق.. مغامرة لم أظن يوما أنني سأخوضها وأغرق في تفاصيلها.

كان هذا منذ حوالي شهر أو أكثر قليلا.. عندما صادفت أحد أقاربي في مجمع (الفنار) التجاري.. ووجدت نفسي في واحدة من تلك اللحظات المكررة المملة التي تكون فيها مضطرا للتظاهر بالحماس والفرح لهذه الصدفة الجميلة!!!.. عناق وقبل وضحك بصوت مرتفع.. قبل أن يقسم قريبي أنه سيدعوني على العشاء هذا الأسبوع في شقته الجديدة التي انتقل إليها بعد زواجه منذ بضعة شهور.. بل وطلب رقم هاتفي النقال على وعد بالاتصال قريبا.

أعطيته رقم هاتفي وأنا أتصنع الحماس لزيارته عالما أنه لن يتصل بي ولن يسأل عني.. فهذا ما يحدث دائما.. ثم افترقنا على وعد بلقاء لن يتم على الأرجح.. ظنا مني أنه سيمحو رقم هاتفي

حال ابتعادنا عن بعض.

لكني كنت مخطئا دون شك.. فبعد يومين من لقائي به - وقد نسيت الأمر برمته - اتصل قريبي بالفعل ليدعوني على العشاء في شقته!!.. وأخبرني أنه لن يقبل الرفض أبدا وأن الوقت قد حان لأتقرب أكثر من أفراد العائلة.. و.. حاولت التملص والاعتذار.. لكنه طلب مني تحديد موعد آخر إذا اعتذرت عن الموعد الذي اقترحه.. إذ بدا واضحا أنه لن يقبل مني كلاما مثل ((ربما في الأيام القادمة)).. وأمام هذا الإصرار.. لم أجد بدا من قبول دعوته.. على أن أقوم بزيارته بعد يومين وفي تمام الساعة الثامنة مساء.

في اليوم المحدد.. كنت أرتدي ثيابا رياضية بسيطة.. لكني بدوت رغم ذلك مهندما مرتبا.. فقررت الخروج بهذه الصورة إلى شقة قريبي.. حيث كنت أمام باب شقته في الساعة الثامنة مساء.. تماما كما اتفقنا.

ضربت الجرس مرة واحدة.. ولم أنتظر سوى ثوان قليلة قبل أن يفتح قريبي الباب بابتسامة واسعة.. وراح يرحب بي بحرارة.. ثم:

- أقدم لك.. زوجتي (.....).

قابلتها بابتسامة وتبادلت معها عبارات المجاملة.. ثم باركت لهما زواجهما واعتذرت عن المباركة المتأخرة.. قبل أن تستأذن زوجته وتذهب إلى المطبخ لتجهيز طعام العشاء.

جلسنا في غرفة المعيشة.. وتحدثنا في أمور كثيرة.. لكن كان حديثنا الرئيسِ عن حال العائلة وتمزق شملها.. إلى أن مر الوقت سريعا لتأتي زوجته وتدعونا لتناول العشاء.. فنهضنا إلى طاولة الطعام ونحن ما زلنا نتحدث عن العائلة.. وعن الزمن الذي غير كل شيء.. وعن ذكريات الماضي.. و.. في سياق الحديث.. تحدث قريبي عن عمتي!!!.. يااااااه.. عمتي.. أنا لم أرها منذ سنوات طويلة.. سألته عنها.. فراح يذكرها كمثال حي للتمزق الأسري الذي نشهده في زماننا الحالي.. وقال إن عمتي هذه غريبة الأطوار.. تسكن وحيدة مع خادمتها الآسيوية في بيت قديم جدا.. ولا تحب الاحتكاك بأحد على الإطلاق.. حتى إنها تطرد كل من يزورها!!!.. تخيلوا هذا. كما أنها امرأة جشعة جدا تمتلك الكثير من المصوغات الذهبية في منزلها - حسب ما يشاع في العائلة - وتمتلك أيضا مبلغا كبيرا من المال ورثته عن زوجها المتوفى.. وهي تحتفظ بالمبلغ في خزنة حديدية في بيتها كما يفعل الكثير من العجائز والشيوخ.

قلت بحسرة:

- إنها محظوظة للغاية.

رد بلا مبالاة:

- أنا لا أؤمن بالحظ.

أجبته بشرود:

- بل تؤمن به.. لكنك لا تعرف هذا بعد!!.

لم يعلق على كلامي.. بل ظللنا نتحدث عن عمتي لفترة من الزمن.. لتتغير دفة الحديث شيئا فشيئا حول مواضيع أخرى.. بل ودخلت زوجة قريبي طرفا في النقاش عندما تحدثنا عن الأحوال السياسية في البلد.. و ... لا أعرف لماذا.. لا أعرف لماذا واتتني تلك الفكرة المجنونة أثناء

حديثنا.. هكذا هي الأفكار المجنونة.. تأتيك فجأة.. وإلا لما وصفناها بالجنون!!!.. هل أنا قادر على فعل ذلك؟!.. لا أعلم.. لكن الفكرة تكبر في ذهني بسرعة غير معقولة!!.

إنني أتحدث عن عمتي بالطبع.. أعرف أنها كبيرة في السن.. وأعرف الآن أنها منقطعة تماما عن العالم وتمتلك أموالا كافية لتغيير حياتي بأكملها.. الفكرة تزداد إلحاحا وتكاد أن تنفجر في خلايا مخي.. مهلا.. يجب أن أعرف معلومة مهمة قبل أن أستمر بالتفكير في هذا الأمر.

رحت أتصنع الانهماك في الحديث مع قريبي وزوجته.. قبل أن أدخل بشكل متعمد في موضوع عمتي هذه.. عندما سألت قريبي بشكل غير مباشر عن مكان سكنها.. فراح يتحدث عن بيتها القديم في منطقة (النزهة) بالقرب من المسجد الفلاني و.. إلخ!!.

لم يكن من العسير أن يسيل لعابي تماما لهذه الفكرة وقد وجدتها فرصة ذهبية لتغيير حياتي بأكملها.. ولا أعتقد أن أحدا منكم يجهل ما كنت أفكر به.. نعم.. أن أقوم بسرقة عمتي.. هذا ليس بالأمر العسير.. لكنه يحتاج إلى بعض التخطيط.. وبعض الاستعداد النفسي.. خاصة وأنني لم أفعل شيئا كهذا من قبل.. يا إلهي.. أريد الانفراد بنفسي للتفكير ووضع تصوراتي الكاملة حول عملية السرقة.. استأذنت من قريبي وزوجته وشكرتهما كثيرا على حسن استضافتهما.. لأعود أخيرا إلى البيت وقلبي يخفق بقوة.

ظللت طوال الأيام التالية أفكر بهذا الأمر.. أفكر جديا بسرقة عمتي.. خاصة وأنني بعيد تماما عن الشبهات.. كما أنني لن أسرقها إلا بعد مرور أكثر من شهر على لقائي بقريبي.. ولا شك أنه لن يربط أبدا بين زيارتي له والحديث عن عمتي.. وبين سرقتي لأموالها!!.

راقت لي الفكرة كثيرا.. ورحت أحاول إقناع نفسي للقيام بالسرقة محاولا تجاهل ضميري.. نعم.. إن عمتي امرأة كبيرة في السن ولن تجد الوقت لتستفيد من تلك الأموال.. إنها عجوز شمطاء ([1]) كما يقولون عن العجائز الشريرات.. وستموت قريبا لتذهب أموالها إلى الورثة.. وهؤلاء الورثة لن يكونوا أبناءها.. فهي لم تنجب أصلا.. ربما ستذهب إلى شقيقها الوحيد (عمي) الذي لم أره منذ سنوات أيضا ولا أعرف عنه شيئا.. لكن هذا لا يهم.

المهم الآن.. كيف سأدخل بيت عمتي وأفتح الخزنة الحديدية وأسرق كل شيء دون علمها هي أو خادمتها؟ !!.. هذا أمر بالغ الصعوبة.. فكرت في رشوة الخادمة.. ربما لو قدمت لها 400 دينار - هي كل ما أملك في رصيدي - مقابل أن تفتح لي الباب في وقت متأخر من الليل وتسمح لي بالدخول.. ولكن.. هل ستقبل الخادمة بذلك؟!.. ثم كيف أعرف أنها ستستمع إلي أصلا؟!.. ربما تكون وفية لعمتي وتخبرها بكل شيء.. وقد تقوم بعدها بإبلاغ الشرطة.

ثم.. وجدت الحل الأنسب.. أن أضرب عصفورين بحجر واحد كما نقول دائما.. رغم أنه مثل غبي للغاية بالمناسبة.. إذ لم أسمع في حياتي عن أحد نجح في اصطياد عصفور واحد بحجر أصلا.. المهم.. وبعيدا عن تلك الفلسفة.. وجدت أن الحل الأنسب هو زيارة عمتي أولا.. إنني ابن شقيقها.. ولن يكون هناك أي حرج في زيارتها.. نعم.. سأدعي أنني شعرت بضرورة التواصل مع أفراد العائلة بعد كل هذه السنوات.. وأنني أكره أن أجهل كل شيء عن عمتي الوحيدة التي لم أرها منذ زمن طويل.. وهناك.. سأعرف كل مداخل البيت ومخارجه وسأستكشف المكان جيدا قبل سرقته.

إنها فكرة رائعة كما ترون وقد قررت وضعها قيد التنفيذ في أسرع وقت ممكن.. لذا فقد ذهبت لزيارة عمتي في مساء ذلك اليوم.. وبعد مرور بضعة أسابيع على زيارتي لقريبي.

أقل من نصف ساعة قبل أن أجد نفسي أمام بيت قديم جدا ومتهالك في منطقة (النزهة).. كل شيء في الخارج يوحي أنه مهجور.. ولولا جهاز التكييف القديم الذي يظهر الجزء الأكبر منه في الخارج لقلت أن البيت مهجور بالفعل.

ضغطت على زر الجرس.. لا أحد يرد.. كررت المحاولة مرة ومرتين.. قبل أن يفتح الباب أخيرا وتظهر لي خادمة آسيوية تنظر إلي باستغراب لا مبرر له.. سألتها بابتسامة عريضة إن كانت عمتي موجودة.. فسألتني بتوجس عن هويتي.. قلت لها إنني ابن شقيق صاحبة البيت وإنني لم أرها منذ مدة طويلة وأرغب بزيارتها الآن.. نظرت إلي بامتعاض.. ثم تركتني وذهبت إلى الداخل.

انتظرت عند الباب دقائق طويلة.. قبل أن تظهر الخادمة مرة أخرى وتسمح لي بالدخول أخيرا.. و ... الإهمال التام!!!.. كان هذا أول ما لاحظته عند دخولي الساحة الداخلية للبيت.. فكل شيء فيه كان يدل على ذلك.. حديقة مهملة تماما اصفرت جميع المزروعات فيها.. سيارة مغبرة من طراز الثمانينيات بدا لي وكأن أحدا لم يقدها منذ دهر.

حاولت تجاهل كل هذا.. ودخلت البيت متجها إلى صالة الاستقبال - إن صح إطلاق كلمة صالة استقبال عليها - فوجدت عجوزا مخيفة المنظر تنظر إلى الباب بعينين صارمتين!!.. لا أنكر أنني شعرت بالخوف عند رؤيتها.. لا أعرف لماذا.. شيئا ما جعلني أشعر وكأنني أمام ساحرة شريرة قادرة على إيذائي في أي لحظة رغم كبر سنها.. لا يمكن.. هل هذه هي عمتي؟ ؟!.. إن عمرها يتجاوز ال.80 دون شك.. وهي لا تشبه بأي شكل من الأشكال الصورة التي نرسمها جميعا في أذهاننا للعجائز من طيبة وبساطة محببة.

تنحنحت بصعوبة وتوتر لم أفهم سببهما.. شاعرا أنني أعيش في فترة الثمانينيات لما يوحي به كل شيء في هذا البيت.. ثم:

- مر.. مرحبا عمتي.. كيف حالك؟!.. إنني.. إنني ابن شقيقك.. أنا ....

قاطعتني بصوت مخيف وبحدة بالغة وهي تنظر إلي من خلف نظارات سميكة للغاية:

- أعرف من أنت.. ماذا تريد؟!.. تريد أن ترثني وأنا حية؟!.. هذا مستحيل.. لا تحلم بهذا!!!.

استغربت كثيرا من ردة فعلها وهي ترى ابن شقيقها أول مرة منذ سنوات طويلة!!!.. فقلت لها بتوتر شديد:

- من تحدث عن المال يا عمتي؟ !!.. كنت فقط أود أن أسأل عنك!!.

ردت بتهكم واضح.. وكأنها تتعمد التصرف بهذه الصورة حتى لا أزورها مرة أخرى:

- تسأل عني؟ !!.. لماذا؟!.. ولماذا بعد كل هذه السنوات؟!.. إن أموالي لي.. ولن أسمح لأحد بالحصول عليها!!.

قلت محاولا تلطيف الجو:

- لست هنا من أجل المال يا عمتي؟!.. لقد وجدت أنه من الخطأ أن أترك عمتي الوحيدة هكذا دون أن أسأل عنها.. وأنه يجب علي الاعتناء بك من الآن فصاعدا.. و....

ردت وهي ترتجف من شدة الغضب:

- لا يوجد لدي أقارب في هذه الدنيا.. بل أعداء ينتظرون الفرصة.. فرصة موتي.. لقد جئت

متأخرا يا ابن أخي!!!.. جميعكم تأتون متأخرين.. سنوات طويلة عشتها وحيدة بعد رحيل زوجي دون أن يسأل عني أحد.. حتى شعرت أنكم قررتم أن لا وجود لي.. لذا فقد قررت أنا أيضا أن لا وجود لكم!!!.

و.. قبل أن أرد عليها.. قالت للخادمة بحزم:

- ساعديني للعودة إلى غرفتي.

فقامت الخادمة بمساعدتها بالفعل.. لتنهض من مكانها وهي تمشي مترنحة إلى غرفتها.. ثم قالت للخادمة وهي تدير ظهرها لي:

- بعد أن أعود إلى غرفتي.. افتحي الباب لهذا الرجل كي يخرج.. لا أريد أية زيارات أخرى!!!.

هكذا بكل وقاحة!!!.. لماذا سمحت لي بالدخول إلى بيتها أصلا إن كانت تريد معاملتي بهذا الجفاء؟!.. هل لإهانتي فحسب؟!.. لا أعلم.. وليت الأمر توقف عند هذا الحد.. بل راحت تحدث نفسها بصوت مرتفع شعرت أنها تحرص كل الحرص على أن أسمع كل حرف من كلامها:

- بعد كل هذه السنوات يسألون عني.. الجميع يريد الحصول على أموالي.. لكن هذا في الأحلام.. خادمتي هي من تستحق أموالي.. سأضع كل ثروتي في حسابها حين أشعر بدنو أجلي.. إنها عائلتي الحقيقية.. إنها قريبتي الوحيدة.. أما عائلتي بصلة الدم.. فهي ليست عائلتي.. ليت كل نقطة دم تنتمي لهذه العائلة أن تخرج من جسدي!!!.

تركتني ووجهي يحمر غضبا وخجلا بنفس الوقت من فرط الإهانة.. لكني رغم ذلك.. حاولت أن أتمالك أعصابي.. ورحت أنظر إلى أرجاء البيت جيدا متذكرا السبب الرئيسِ لقدومي إليه.. وأحاول حفظ كل شبر منه.. إنها تحتفظ بأموالها ومصوغاتها في هذا البيت في خزنة حديدية كما علمت.. جميع العجائز يفعلن هذا.. سأقتحم بيتها وأسرق أموالها ومصوغاتها في أقرب فرصة.. لقد تأكدت الآن أنه لا يوجد من يعيش في هذا البيت سوى عمتي مع خادمتها.. سأدخل مرتديا قناعا يخفي هويتي.. ولو كشفتا أمري فسأهرب.. هكذا بكل بساطة.. إنها عملية سهلة جدا كما تبدو للوهلة الأولى.. وآمل أن تكون كذلك.

وهكذا خرجت من بيت عمتي وقد شعرت أن سرقة أموالها لم تعد مجرد ضرورة لتحقيق

أحلامي.. بل نوعا من العقاب لهذه الشخصية المخيفة المتعجرفة.. لكن.. في قرارة نفسي.. كنت أعرف أنها على حق إلى حد كبير في كلامها!!!.

بعد أسبوع تقريبا من زيارتي لها.. قررت أخيرا وضع خطتي قيد التنفيذ.. فارتديت ثيابا سوداء كالتي يرتديها اللصوص في الأفلام.. واشتريت القناع الشهير الذي يستخدمه كل اللصوص في العالم.. والذي يغطي الرأس والوجه بأكمله.. ويترك مكانا للفم والأنف والعينين.. ثم اتخذت قراري بالتسلل إلى بيت عمتي في ذلك المساء!!.

لم يكن الأمر سهلا.. إذ لم أخطط يوما لسرقة أحد.. فكان توتري يزداد في كل لحظة يقترب فيها الموعد.. إلا أنني في النهاية أخرست ذلك النداء في أعماقي.. وانتظرت حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.. لأخرج بعدها بسيارتي المتهالكة متوجها إلى منطقة (النزهة) حيث بيت عمتي.. مرتديا ثياب السرقة تحت ثياب رياضية بسيطة لا تلفت الانتباه.. و.. وصلت أخيرا إلى الحي السكني.. فأوقفت سيارتي بعيدا عن البيت.. وخلعت ثيابي الخارجية.. ثم نزلت من السيارة

محاولا التصرف على طبيعتي كي لا أثير الشبهات.. فمشيت بهدوء إلى أن وصلت عند سور البيت.. نظرت حولي يمينا ويسارا.. ثم.. لبست القناع.. وتأهبت لتسلق السور!!!.

لحظات قليلة قبل أن أجد نفسي في ساحة البيت الداخلية.. كان الظلام دامسا إلى درجة مخيفة!!.. فمشيت وأنا أزدرد لعابي.. أبحث عن نافذة تصلح للدخول.. وبالفعل.. نافذة في الدور الأرضي من الممكن فتحها ببساطة شديدة لحسن الحظ.. إنني أتجه إليها الآن.. أفتحها بتوتر وأزدرد لعابي بصعوبة.

ها أنا الآن في الداخل أنظر حولي بحذر شديد.. إنني في غرفة خالية تقريبا سوى من بعض الأثاث القديم.. فتحت باب الغرفة لأجد نفسي في صالة البيت.. المكان الذي استقبلتني فيه عمتي منذ حوالي أسبوع.

يا إلهي.. البيت مخيف في مثل هذا الوقت وفي هذا الظلام الدامس.. لكن ما يجعل الصحراء جميلة أنها تخفي واحة في مكان ما.. أليس كذلك؟ ؟!.. هذه الواحة هي الخزنة الحديدية.. أو المصوغات الذهبية على الأقل!!.

رحت أفتش الغرف واحدة تلو الأخرى وسط سكون تام.. دون أن أعثر على شيء يذكر.. ثم توجهت إلى غرفة عمتي.. الباب موصد.. لكنها نائمة في الداخل دون شك.. أسمع صوتها.. صوت أنين العجائز.. لا.. إنه صوت عواء مكتوم ضاعف في أعماقي الشعور بالخوف.. أحاول السيطرة على أعصابي متذكرا أن عمتي ليست سوى امرأة عجوز نائمة الآن كالصخرة في غرفتها مهما بدا مظهرها مخيفا!!.

يدي تداعب قفل الغرفة بسلك معدني.. والمصباح الصغير في فمي ينير مساحة لا بأس بها من المكان.. لقد تدربت جيدا على فتح الباب بتلك الطريقة لحسن الحظ.. آمل أن أنجح.. آمل أن تكون خطتي متكاملة.. أقول هذا وأنا ما زلت أحاول أن أفتح الباب دون ضجة.. قبل أن.. قبل أن أشعر فجأة بشهقة قوية!!!.

التفت وإذا بالخادمة تقف خلفي في منتصف الصالة.. لم تمهلني لأستوعب ما يحدث.. إذ راحت تصرخ بجنون ورعب هائل أفقدني كل تعقّل.. اللعينة.. كيف عرفت بوجودي؟؟!!.. ستوقظ الحي بأكمله بصراخها هذا!!!.. و.. يبدو أن للرعب دورا هاما في اتخاذ القرارات الحاسمة.. إذ جريت ناحيتها بسرعة البرق ولطمتها على وجهها بكل قوتي حتى خرّت على الأرض ميتة أو فاقدة الوعي (لا يهم)!!!.

شعرت بتوتر شديد وبشيء من الضياع عاجزا عن التفكير بما يجب فعله.. قبل أن أجد فجأة كيانا مخيفا يقف في الظلام عند عتبة باب غرفة عمتي!!.. إنها.. إنها عمتي بالفعل!!!.. اللعينة.. لقد استيقظت وفتحت باب غرفتها دون أن أشعر بسبب صراخ خادمتها.. ولكن.. لماذا لا تصرخ؟!.. لماذا لا تقول شيئا؟!.

وجهت المصباح اليدوي الصغير إلى وجهها.. وإذا بها تحدق بي بغل وكراهية شديدة حتى بدت مخيفة بحق في هذا الظلام!!!.. إما أنها شجاعة غير عادية من عمتي.. أو جنون!!!.. لا أجد تفسيرا آخر.. لكني رغم كل شيء.. أقدمت على تصرف شنيع عندما توجهت ناحيتها.. ولطمتها على وجهها أيضا بقوة.. لتسقط على الأرض وهي تشهق بعنف حتى بدا لي أن قلبها سيتوقف.

سألتها بقسوة محاولا تغيير صوتي:

- أين مصوغاتك؟!.. أين أموالك أيتها اللعينة؟!.. أقسم إنني لن أتردد في قتلك مع خادمتك الحقيرة.. أقسم لك!!.

راحت تضع يديها على قلبها بقوة وكأنها تحاول عبثا أن تبقيه نابضا.. ثم همَست بكلام لم أفهمه.. فقرّبت أذني إليها وأنا أمسكها بقسوة.. لأسمعها تقول:

- أموالي كلها موجودة في.. في ...

ثم سكتت!!!.. وكأنها واحدة من تلك اللقطات السخيفة التي تتكرر كثيرا في الأفلام.. عندما يموت المجرم قبل أن يخبرنا بأهم ما لديه من معلومات.. مع تحفظي الكامل على كلمة مجرم هنا.. لذا قمت بهزها بعنف محاولا إجبارها على الكلام.. لتقول بعدها بصعوبة بالغة وهي ترتجف بقوة:

- أموالي مخبئة في.. في بيتي الثاني.. منطقة.. منطقة (كيفان).. المنزل المهجور بالقرب من السوق المركزي.. قطعة (...) !!.. الطابق.. الطابق الثالث.

قالتها وصمتت تماما.. هل فقدت الوعي؟ ؟!.. هل ماتت؟ ؟!.. لا أعلم.. ولم أكترث.. لكني رغم كل شيء قمت بتكبيلها مع الخادمة بقوة خوفا أن تصحو أي منهما فجأة وتتصل بالشرطة.. ستعيقهما تلك القيود عن الحركة لفترة من الزمن تكفيني للخروج من هنا والذهاب إلى البيت الآخر حيث ثروة عمتي.. يا له من مكان تخبئ فيه هذه الشمطاء أموالها.. وكأنني أعيش قصة ساحرة من القرون الوسطى. طردت تلك الأفكار من ذهني وأنا أركض إلى سيارتي والساعة تقترب من الثانية فجرا.. أخذت السيارة متجها إلى (كيفان) في سباق مع الزمن.. سأسرق الأموال كلها وأبقيها في غرفتي لبضعة شهور حتى تهدأ الأمور.. لن يشك أحد بشيء.. أنا واثق من ذلك.

لم يكن من العسير الوصول إلى البيت المطلوب.. فهو الوحيد المهجور في هذا الحي.. تماما كما وصفته لي عمتي اللعينة.. وصلت أخيرا إلى البيت شاعرا للحظة أن هذه المغامرة لم تخلق ليخوضها شخص عادي مثلي.. بل قاتل محترف.

كان البيت يحوي 3 أدوار وقد بُني في منتصف الثمانينيات ربما!!!.. حيث بدا من الخارج مهجورا تماما بالفعل ولم يكن يقل سوءا عن حال بيت عمتي.. فأوقفت سيارتي في مكان بعيد نسبيا عن البيت.. وذهبت مشيا متجها إليه.

توقفت للحظة أمام باب البيت المكسور.. أنظر حولي بتوتر.. يجب أن أنهي الأمر سريعا.. هكذا كنت أقول لنفسي.. فدخلت بتوجس.. ورحت أمشي داخل البيت بسرعة والعرق يتصبب بغزارة من كل ذرة من جسدي.. إنني أصعد السلم بتوتر وقلق شديدين للوصول إلى الدور الثالث دون أن أشعر بذرة من التعب!!.. فعقلي هو الذي كان يعمل وليس جسدي!!.

نظرت سريعا ناحية الغرف.. لقد قالت عمتي إنها خبأت أموالها في غرفة صغيرة في الطابق الثالث.. مهلا.. هذا الباب.. يبدو أصغر الأبواب.. إنه ليس بابا.. بل هو مجرد غطاء خشبي تم وضعه بدلا من الباب.. أزحت الغطاء الخشبي بهدوء مهيب.. إنني أستشعر النهاية

القريبة لكل ما يحدث.. ما هذه الغرفة الغريبة؟!.. إنها صغيرة للغاية!!.. وضعت قدمي اليمنى على أرض الغرفة.. واااااااااااااااا.. شعرت أن حديثي مع نفسي قد توقف فجأة وأن أفكاري نفسها قد توقفت.. لقد كنت أسقط.. أسقط من علو مرتفع وأرتطم بالأرض بقوة.. لقد.. لقد سقطت على رأسي!!!.. أشعر بكل عظمة من جسدي وهي تتكسر.. أشعر أنني عاجز عن الحركة.. وأن

روحي تنسحب من جسدي شيئا فشيئا.. إنني أموت.. يا إلهي.. إنني أموت.. لا أعرف كيف يشعر الموتى.. فأنا لم أمت من قبل!!!.. لكني واثق أن هذا ما يشعر به الميت.. الدماء تنزف من كل مكان من رأسي.. لا شك أن هناك نزيفا داخليا أيضا!!.. إن وعيي ينسحب إلى عالم الموت شيئا فشيئا!!!.

ورغم ذلك.. راحت نظراتي تحوم بعشوائية حول مكان سقوطي.. لقد عرفت أين أنا.. هذه المرأة اللعينة.. عمتي.. لقد أرسلتني إلى حتفي!!!.. فالباب الذي دخلت منه كان باب مصعد!!!.. مصعد لم يتم تركيبه.. لقد قامت عمتي منذ مدة كما يبدو - وبمساعدة خادمتها ربما - بوضع لوح خشبي رفيع على الأرض.. فانهار سريعا عندما وضعت قدمي عليه.. إنه لم يحتمل وزني.. لقد.. لقد خدعتني وأسقطتني من الطابق الثالث بخطة حقيرة.. فغرفة الكنز هذه لم تكن سوى فتحة مصعد لم يتم تركيبه.. ثم.. انتبهت للتو إلى أمر آخر سبب لي صدمة هائلة!!!.. إذ كان هذا آخر ما توقعته.. وآخر ما وقعت عليه عيناي قبل أن أغيب عن هذا العالم.. يا إلهي.. هناك جثة أخرى وجدتها بجانبي.. جثة لشخص تعرض على الأرجح لنفس الفخ.. إنها.. إنها جثة قريبي!!!!!.. قريبي الذي قمت بزيارته منذ مدة.. والذي أخبرني عن عمتي وعن أموالها.. يبدو أنه حاول سرقتها أيضا.. وربما فعل أمرا شبيها بما فعلته.. وقد أرسلته عمتي إلى هذا المكان.. نعم.. لقد خدعته هو أيضا كما أرى.. ثم أمرت خادمتها - على الأرجح - بإعادة المكان إلى ما كان عليه لإيقاع كل من يحاول سرقتها في نفس الفخ.. و.. ها هو قريبي يرقد إلى جانبي جثة هامدة.. يبدو أنه ميت منذ أكثر من أسبوع.. فجثته في حالة سيئة للغاية وقد تعفنت إلى حد كبير.. لكن التعفن لم يمنعني من التعرف عليه.

لا شك أن زوجته تبحث عنه.. ولا شك أن رجال الشرطة يبحثون عنه أيضا كشخص مفقود دون أن يعلم أحد أنه مرميا هنا وقد لقي حتفه منذ أيام!!!.. وقريبا سيبحثون عني أيضا.. دون أن يعلم أحد أنني ضحية ثانية لخبث ودهاء عمتي.. ضحية في تلك الغرفة اللعينة.. غرفة الكنز.

سر زوج ابنتي

هناك سر.. لا شك أن هناك سراً وراء ما يحدث!!!.. هكذا كنت أقول لنفسي حين تقدم ذلك الشاب لخطبة ابنتي.. ما زلت أتذكر كيف انفرجت أساريرها وكاد أن يغمى عليها من شدة الفرح - وإن حاولت أن تخفي شعورها هذا - أما زوجتي فقد راحت تهلل وتصرخ بأن حظ ابنتنا قد ابتسم لها أخيرا.

لماذا لم أفرح كما فعلت زوجتي وابنتي؟ ؟!.. لأنني رجل واقعي.. ولن تأخذني عاطفة الأبوة بعيدا عن الواقع.. والواقع يقول أن ابنتي لا تملك أي مؤهلات للزواج.. أقولها بكل حزن وأسى.. فابنتي أبعد ما تكون عن الجمال.. إنها سمينة.. وشعرها قصير جدا وخشن.. مما جعلها تبدو أشبه بالمراهقين.. خاصة مع وجهها الذي امتلأ بالبثور.. كما أنها ما زالت تدرس في إحدى الكليات وهي ليست طالبة متفوقة على الإطلاق.. ووالدها (أنا بطبيعة الحال) ليس ثريا.. باختصار شديد.. لم تكن ابنتي لتجذب اهتمام أي شاب كما هو واضح!!!.

الغريب في الأمر أن الشاب الذي تقدم لخطبتها وسيم للغاية.. ذو بنية رياضية تخلب لب أي فتاة.. كما أنه على قدر لا بأس به من الثراء.. كنت أشعر أن هناك لغزا مريبا يحيط بهذا الشاب.. فقد اتصل بي دون سابق إنذار منذ بضعة أيام.. وعرّفني بنفسه.. ثم أخبرني أنه ينوي زيارتي في منزلي ولقائي لموضوع عائلي هام.

عندما قال تلك العبارة عبر الهاتف.. تساءلت مستغربا إن كان يهدف إلى طلب يد ابنتي.. فكل ما قاله يوحي بذلك.. رغم أن هذا الأمر لم يحدث من قبل وسيكون هو أول شاب يتقدم لخطبتها.. ولو كان هذا الافتراض صحيحا.. فسيكون شابا لا يملك أي مؤهلات من أي نوع.. تماما كما هو حال ابنتي.. هكذا كنت أقول لنفسي!!!.

المهم أنه جاء إلى منزلنا في الموعد المحدد.. وبدت سيارته الفارهة غريبة وغير منسجمة إطلاقا مع الحي الذي أسكنه في منطقتنا السكنية النائية!!!.. لكني رغم كل شيء رحبت به كثيرا.. واستقبلته بكل احترام.. قبل أن يتحدث عن نفسه ويخبرني أنه يتيم الأبوين ولا يوجد لديه سوى أخت واحدة من أم أخرى من جنسية عربية.. وهو ليس على اتصال معها رغم أنها تقيم في (الكويت).. أما باقي أقاربه فعلاقته معهم مقطوعة تقريبا.

يقول الشاب - اسمه (فهد) - إنه كان زميلا لابنتي في الكلية.. حيث صادفها هناك أكثر من مرة.. وإنه أعجب كثيرا بحيائها وأخلاقها واقتنع أنها الفتاة التي يريدها زوجة له.. إلخ!!!.. لكني لم أقتنع إطلاقا بكلامه هذا.. وأخبرته أن من حقي كأب أن أسأل عنه أولا وأن آخذ رأي ابنتي أيضا.. فخرج من منزلي بابتسامة عريضة.. ابتسامة توحي بثقته أنني سأوافق إن عاجلا أم آجلا على زواجه من ابنتي.. والحقيقة أن هذا أثار غضبي.. إذ شعرت أن لسان حاله يقول:

- لا يمكنك أن ترفضني.. أنا واثق أنك ستوافق.. فابنتك لن تحلم بشاب وسيم مقتدر ماديا مثلي!!!.

وما أثار أعصابي أكثر أنه محق دون شك.. وقد بدا هذا واضحا عند رحيله.. إذ ودعته زوجتي وقلبها يتقافز كالقرد من شدة الفرح.. حتى أنها أطلقت (زغروطة) قوية ما إن ابتعد بسيارته!!!.. أما ابنتي فكنت واثقا أنها رأت الشاب عبر النافذة.. وبدا هذا واضحا أيضا عندما رأيت الفرح في

عينيها.. لكنها - رغم ذلك - وقفت أمامي تتصنع الخجل.. تماما كما يحدث في المسلسلات العربية.. بينما نظراتها تقول:

- هل جننت يا أبي؟!.. وهل سأحصل على فرصة أخرى كهذه؟!!.

سألت ابنتي بحذر شديد محاولا أن أقنع نفسي بما يحدث:

- هل تعرفين ذلك الشاب يا عزيزتي؟!!.

راحت تمثل باقتدار.. إذ سكتت بأسلوب تمثيلي واضح وهي تنظر إلى السقف وكأنها تتذكر.. ثم قالت:

- آه.. نعم يا أبي.. لقد كان زميلي في الكلية.

سألتها مرة أخرى وأنا أنظر إلى عينيها مباشرة:

- وهل كانت بينكما علاقة من أي نوع؟؟!.

هزت رأسها نفيا وقالت بصدق:

- إطلاقا يا أبي.. أصدقك القول أنني كنت أصادفه أحيانا كثيرة وأشعر في كل مرة أنه يحدق بي دون سبب واضح.. أو هذا ما كان يبدو لي على الأقل.. وعندما ألتفت إليه.. أجده ينظر إلى ناحية أخرى!!!.. لم أفهم سر تصرفه هذا!!.

نظرت إلى ابنتي بقلق.. يا إلهي.. لا يمكن أن يصفها أحد بالجمال.. إنها ابنتي وأنا مستعد أن أموت من أجلها.. لكني لن أكذب على نفسي.. هناك سر.. سر لا أفهمه في تقدم ذلك الشاب لخطبتها.. إنه يستطيع الزواج من أي فتاة يريدها.. شهادته الجامعية.. وسامته الشديدة.. بنيته الرياضية.. سيارته الفارهة ووضعه المادي.. كلها أمور يسيل لها لعاب أي أسرة دون شك!!!.

تركت ابنتي وزوجتي.. وذهبت إلى الفراش لأشاهد التلفاز في غرفة النوم على أن أنام بعدها بساعة أو ساعتين.. لكني كنت أشاهد التلفاز بذهن مشغول تماما.. أتساءل وأتساءل عن اللغز المحيط بعرض الزواج هذا.. إلى أن حسمت أمري أخيرا.. وقررت أن أكف عن القلق.. فلم يحدث شيء حتى الآن.. كما أنني أستطيع السؤال عن ذلك الشاب ومعرفة كل شيء عنه.. سأفعل هذا دون أخذ رأي زوجتي.. فهي امرأة ساذجة غير متعلمة.. وتعتقد أنه لا يوجد في العالم زوج سيء.. إنما توجد زوجة سيئة فحسب!!!.. أعرف طريقة تفكيرها وحاولت تغييرها مرارا طوال سنوات زواجنا لكن دون جدوى.. أما أنا فرجل متقاعد عملت لسنوات في إحدى الوزارات والتقيت بنوعيات لا حصر لها من البشر.. وأملك رصيدا لا بأس به من خبرة الحياة.

في صباح اليوم التالي.. كنت قد قررت أن أقوم بخطوة ضرورية وبديهية للغاية يقوم بها كل أب تقدم أحدهم لطلب يد ابنته.. السؤال عن ذلك الشاب!!!.. لذا فقد ذهبت لزيارة أحد الأقارب وهو محامٍ متخصص في الأحوال الشخصية ويمتلك خبرة لا بأس بها بقضايا الزواج والطلاق بطبيعة الحال.. لقد ذهبت إليه لأعرف رأيه.. عله يساعدني في فتح أي ملفات يحاول ذلك الشاب (فهد) إخفاءها عنا.. قد يكون مجرماً.. قد تكون له سوابق وملفات في القضاء.. كل شيء جائز.

استقبلني قريبي بترحاب شديد كونها المرة الأولى التي أزوره فيها في مكتبه.. وبعد تبادل عبارات المجاملة.. أخبرته بالقصة بكل صراحة ووضوح.. قبل أن يقول مبتسما:

- ولماذا لا تفرح؟ !!.. ربما يكون حظ ابنتك قد ابتسم لها بالفعل.. الحب أعمى.. ألا تعرف هذا المثل؟!.

ثم أكمل مازحا:

- هذا على الأرجح أقدم الأمثال في تاريخ البشرية.. نياهاهاهاهاها!!!.

ابتسمت مجاملا لدعابته السخيفة.. ثم قلت بجدية:

- لا يمكن أن يكون الحب أعمى لهذه الدرجة يا عزيزي.. أكره أن أقول هذا.. لكنك لست غريبا.. أنت تعرف ابنتي جيدا.. هل يعقل أن يتقدم لها شاب بتلك المواصفات؟ ؟!.. أخبرني بالله عليك.

نظر إلي طويلا.. وشعرت بأنه يخجل من التحدث بشكل سلبي عن ابنتي.. فقال مفكرا:

- أعطني اسمه الكامل.. ودعني أسأل عنه.. سأخبرك بكل شيء مساء اليوم.

شكرته كثيرا.. وخرجت من مكتبه عائدا إلى البيت وقد زال كل أثر للقلق من ذهني.. بعد أن

أصبحت المسؤولية ملقاه بالكامل على قريبي المحامي.

الغريب أنه لم يتأخر كثيرا.. فقد اتصل بي بعدها ببضع ساعات فحسب!!.. سألته بلهفة عما عثر عليه حول (فهد).. فقال باهتمام:

- إنه لم يكذب عليك بشيء.. فهو بالفعل يتيم الأبوين.. توفي والده منذ 10 سنوات تقريبا.. وتوفيت والدته منذ 7 سنوات.. ولا يوجد له سوى أخت واحدة من أم أخرى.. وعلاقته مع أقاربه شبه مقطوعة.

قلت له بسرعة:

- أعرف هذا.. أعرف.. ولكن.. هل هناك أي شيء غير عادي؟ ؟!.. هل تعلم كيف أصبح ثريا؟!.. هل ورث شيئا من والديه مثلا؟!.. هل ....

قاطعني قريبي مهدئا ليقول:

- إنه لم يرث شيئا.. هذا أولا.. ثانيا.. الأمر الوحيد الذي لم يخبرك به أنه كان متزوجا!!!.. نعم.. لقد تزوج منذ سنتين تقريبا.. واستمر زواجه لفترة قصيرة.. قبل أن يطلق زوجته.. ولا يعرف أحد سبب الطلاق.. بل ولا يعرف أحد أين تقيم طليقته أصلا!!!.

سألته بذهول:

- كيف عرفت تلك المعلومات؟؟!!.

رد ببساطة:

- بالصدفة البحتة.. لا تنسَ أننا في بلد صغير.. تستطيع أن تعرف كل شيء عن أي شخص لو سألت عنه.. وقد قمت بواجبي وسألت عن (فهد).. إلى أن وجدت شخصا يعرف شخصا آخر.. وهذا الشخص الآخر يعرف (فهد).. أنت تعرف كيف تسير تلك الأمور.

سألته مرة أخرى بقلق متجاوزا هذه النقطة:

- أين طليقته برأيك؟!.. هل.. هل قتلها مثلا؟!!.

رد ضاحكا:

- ياااااه.. لم نصل إلى درجة القتل يا عزيزي.. طليقته في الواقع أرملة تكبره بأكثر من 20 سنة!!!.. نعم.. هذه مفاجأة أخرى!!.

اتسعت عيناي ذهولا.. وقلت باستغراب:

- يا إلهي!!!.. هل.. هل كانت ثرية؟ ؟!.. هل انتقل إليه الثراء بسببها؟!!.

رد باهتمام:

- طليقته امرأة فاتها قطار الزواج كما نقول في (الكويت).. والداها متوفيان منذ زمن طويل.. فنحن نتحدث عن امرأة يقارب عمرها الخمسين!!.. وقد كانت ثرية بالفعل.. ربما هي من جعلته ثريا.. فلا يوجد حتى الآن سبب واضح لثرائه!!.

التزمت الصمت تماما بعد كلامه هذا.. ثم نهضت من مكاني وقد اتخذت قراري بحزم واضح.. هذا الشاب اللعين لن يتزوج ابنتي أبدا.. أبدا!!.. أنهيت المكالمة مع قريبي بعد أن شكرته كثيرا على كل ما فعله من أجلي.. وذهبت إلى غرفة المعيشة لأخبر زوجتي وابنتي بكل ما عرفته عن العريس المنتظر.. عن (فهد)!!!.

الغريب أنني توقعت تأييدا لما فعلته.. توقعت أن تشكرني ابنتي على سؤالي عن هذا الشاب.. وأن تحتضنني زوجتي وتخبرني كم أنا رائع.. لكن شيئا من هذا لم يحدث.. فقد اتسعت عينا زوجتي.. وقالت مستنكرة:

- حسنا.. لقد تزوج امرأة تكبره سنا ولم يوفق معها.. وقد تكون هي من ساعدته وأوصلته إلى الثراء كما تقول.. ما العيب في ذلك؟ !!.. ثم.. لماذا تفترض سوء النية في الرجل؟ ؟!.. لا شك أن طليقته موجودة في مكان ما في (الكويت) لكن قريبك لم يعلم بهذا!!!.

قلت بغضب شديد:

- لماذا لم يخبرني عن زواجه السابق عندما تقدم لخطبة ابنتنا؟ !!.. ثم لماذا يتزوج امرأة تكبره بأكثر من 20 عاما؟!.. ألم تفكري بهذا؟!.

ردت زوجتي بحدة أثارت جنوني:

- ولماذا تفترضون دائما يا معشر الرجال أن من يتزوج امرأة تكبره سنا إنما يفعل هذا من أجل ثروتها.. لماذا برأيك يريد أن يخطب ابنتنا إذا؟!.. هل نملك المال نحن أيضاً؟!.

سكت بحنق وأنا أعرف أنها محقة.. فأنا لا أجد الجواب على هذا السؤال الذي يثير جنوني!!!.. لماذا.. لماذا يريد الزواج من ابنتي؟ !!.. لا يمكن أن أقتنع بموضوع الحب أو الإعجاب هذا!!..

نظرت إلى ابنتي لأعرف دورها في هذا الجدل الدائر بيني وبين زوجتي.. فوجدت نظراتها التي تفضح تأييدها الكامل لكلام والدتها.. بالطبع.. إنها لا تفكر بعقلها بعد أن وجدت نفسها فجأة أمام كنز أنساها كل تفكير منطقي.

المهم أنني بعد جدل طويل وبكاء زوجتي التي راحت تردد كلاماً من طراز:

- أنت لا تريد السعادة لابنتنا.. أنت تحسد ابنتك!!!!.. أنت إنسان متشكك تفترض سوء النية في الناس.. لم يخبرك قريبك المحامي أن الشاب يشرب الخمر مثلا أو يتعاطى المخدرات.. فلماذا

تقف بوجه سعادة ابنتك.. لقد كان متزوجا وربما لم يكتب الله الاستمرار لزواجه الأول ....

و.. بعد كل هذا الكلام.. وبعد ضغوط هائلة من زوجتي.. قررت أن ألتقي ب(فهد) مرة أخرى.. سأواجهه بكل شكوكي هذه المرة ولن أخجل من شيء.. فاتصلت به.. وطلبت منه زيارتي في منزلي مساء الغد.

لم يكذب الشاب خبرا.. ففي الموعد المحدد.. كان يطرق باب البيت بحماس.. ذهبت لاستقباله.. لأجده كما بدا في المرة الأولى.. مرتديا الزي الوطني التقليدي.. وقد بدا متأنقا إلى أبعد الحدود ورائحة البخور الفاخر تفوح منه!!.

أدخلته المنزل.. وجلسنا في غرفة الضيوف نتحدث.. ثم رحت أطرح عليه أسئلتي بكل صراحة وجرأة.. لكنه لم يهتز على الإطلاق.. بل بدا واثقا من نفسه وهو يخبرني أنه كان متزوجا بالفعل من امرأة تكبره بالسن وأنه وقع في غرامها - ولا أعرف في الواقع ذوق هذا الأحمق في النساء - لكن في النهاية حصلت بينهما خلافات شديدة.. وقد طلبت هي الطلاق بعد سنة من الزواج بسبب مشاكل زوجية معتادة تحدث في كل بيت.. منها غيرتها الشديدة عليه كما يدّعي.. وهي الآن تعيش في (الولايات المتحدة الأمريكية)!!!.

يقول إنها تريد أن تعيش حياتها الباقية هناك لأنها تكره الحياة في (الكويت) ولا تجدها مريحة.. أما عن ثروته.. فقد أخبرني أنها ليست ثروة بالمعنى الحرفي.. فما يمتلكه لا يتجاوز النصف مليون دينار أعطتها إياه زوجته السابقة ليبدأ بها مشروعا تجاريا كان بمثابة حلم حياته.. لكن سوء علاقته بزوجته وطلاقه منها جعله يصرف النظر عن المشروع في الوقت الحالي على الأقل.. ويقول أيضا إنه ندم على عدم إخباري بزواجه السابق عند زيارته الأولى لبيتي.. إذ كان يشعر بالخجل قليلا بسبب زواجه من امرأة ثرية تكبره سنا بسنوات.. إلا أنه حسم أمره - كما يدّعي - وقرر إخباري بالأمر فيما بعد لكني سبقته بذلك بعد أن سألت عنه وعرفت تلك المعلومات.

كانت أجوبته مقنعة إلى حد ما.. لكني رغم كل شيء.. طلبت منه رقم هاتف طليقته في (الولايات المتحدة الأمريكية).. ربما أنا متشكك إلى حد يثير غيظ البعض.. لكني أتحدث عن ابنتي الوحيدة.. عن أغلى ما أملك.

الغريب أنه لم يشعر بأي حرج من طلبي هذا.. بل راح تلقائيا يعبث بهاتفه النقال للحظات.. ثم أرسل لي الرقم برسالة هاتفية وهو يدعي أنه حصل على رقم هاتف طليقته لإنهاء بعض الإجراءات والتسويات المتعلقة بالطلاق واحتفظ بالرقم منذ ذلك الحين.. و.. جلسنا بعدها نتحدث حول أمور جانبية.. قبل أن يقول بلهجة تربوية أثارت غيظي:

- صدقني يا عمّي.. المظهر الخارجي لا يعني شيئا.. فبشيء من الاهتمام ستغدو ابنتك جميلة - إن كنت لا تراها كذلك - وستنحف بعد أن تتبع نظاما غذائيا وتمارس الرياضة.. ستطيل شعرها وسأجلب لها من يهتم به ليبدو جميلا منسدلا على كتفيها كما هو الحال مع باقي الفتيات.. بل وسأنفق عليها كل المال اللازم لتغدو رائعة الجمال في نظر الجميع.. أقول هذا رغم أنني أراها جميلة في كل الأحوال!!!.

هذا الوغد.. هل يظن أنه يخدعني بكلامه؟!.. إنه يحاول أن يجعلني أبدو كالإنسان الذي يهتم كثيرا بالمظاهر!!!.. نحن نتحدث عن ابنتي.. ابنتي أيها الحقير.. إنني لا أحب هذا الشاب.. ولا أعتقد أنني سأحبه يوما.. شيئا في داخلي يقول أنه ينوي شرا.. ولا أدري لماذا.

في وقت متأخر من نفس الليلة.. اتصلت هاتفيا على الرقم الذي أخذته منه.. إذ كان الوقت حينها صباحا في (الولايات المتحدة الأمريكية) بسبب فارق التوقيت كما تعلمون.. و.. الوغد.. كان صادقا!!!.. فقد تحدثت مع زوجته السابقة بالفعل.. وكان كل ما أخبرني به صحيح تماما عن خلافاتهما وعن رغبتها في الهجرة والحياة هناك.. إنه لم يكذب بشيء على الإطلاق.. حتى أنني تخاذلت أمام هذه الهزيمة النكراء.. تخاذلت تماما.. وضعف موقفي كثيرا أمام زوجتي وابنتي.. ووافقت أخيرا!!!.. وافقت على مضض.. ودون اقتناع.. لأنني لم أجد أي حجة للرفض.

تم بعدها كل شيء بسرعة.. فأقمنا حفل زفاف بسيطا للغاية.. لتنتقل ابنتي وتعيش مع زوجها في شقة فاخرة على وعد منه بشراء بيت بعد سنوات قليلة من الآن حين يبدأ مشروعه التجاري ويتضاعف رأس المال. مرت بعدها الأيام هادئة للغاية.. واستمر زواج ابنتي بضعة شهور.. كانت خلالها أسعد فتاة في العالم.. ولا توجد أي مبالغة في كلامي هذا.. إذ كان (فهد) يوليها كل اهتمامه.. ويقضي معها معظم أوقاته.. وقد قام بالفعل بإشراكها في أحد الأندية الرياضية المتخصصة مع وضع نظام غذائي راح يشاركها فيه كي لا تشعر بالملل.. حتى تغيرت ابنتي شيئا فشيئا.. تغيرت تماما وتحولت إلى فتاة أخرى!!!.. فنحفت كثيرا.. وتغيرت بشرتها لتصبح أكثر نضارة وجمالا.. وطال شعرها ليصبح لامعا براقا بعد استخدام مواد وأدوية كثيرة ساعدت على ذلك.. نعم.. شهور قليلة فحسب صنع فيها (فهد) من ابنتي امرأة أخرى.. كان يفعل هذا باسم (الحب) كما يقول.. وأصدقكم القول أن كراهيتي له تراجعت إلى حد كبير.. وشعرت أنه يحب ابنتي بصدق وأن الحب أعمى بالفعل.. مثل نردده كثيرا حتى بتنا لا نعرف مدى واقعيته!!!.

هل انتهت القصة عند هذا الحد؟ !!.. إنها البداية.. البداية فحسب.. فبعد حوالي سنة.. حدثت مأساة لم تكن بالحسبان.. مأساة بالنسبة ل(فهد).. فقد توفيت أخته التي أخبرتكم عنها.. هل تذكرون؟ ؟!.. حادث عرضي بسيط أودى بحياتها مع الأسف!!!.. فقد كانت جالسة مسترخية في حوض الاستحمام في حمام شقتها.. وقد سقطت آلة تسريح الشعر في حوض الاستحمام وهي متصلة بالتيار الكهربائي.. لتسري الكهرباء في مياه الحوض وتصعق الفتاة وتقتلها على الفور.. إهمال منزلي معتاد وحادثة تتكرر دائما وأبدا كما تعلمون.

كل شيء كان يوحي بهذا التفسير كما قال رجال الشرطة.. هذا ما أخبرني به (فهد) وعيناه تدمعان تأثرا.. وهذا ما ذكر في تقرير المباحث الجنائية بالفعل.. وبالطبع لم يتم توجيه أي اتهام لأحد.. فباب الحمام كان مقفلا من الداخل بالترباس.. مما يعني استحالة أن يكون أحدهم تسلل إلى الداخل وصعق الفتاة حتى الموت ثم هرب مثلا.. وهذا يحسم القضية تماما لصالح القضاء والقدر!!!.

لقد شعرت بالأسى في واقع الأمر لهذه الصدمة رغم أنني لم أرَ أخته يوما.. وبدا التأثر شديدا وواضحا على (فهد).. إذ بدا منهارا آسفا على وفاتها وهو بعيد عنها وعلاقته بها شبه مقطوعة منذ سنوات.. حتى إنه قام بإرسال جثمانها إلى الدولة العربية حيث والدتها وأهلها.. فقد أصر خالها على أن تدفن الفتاة في بلدهم.

وأقمنا بعدها عزاءً مصغراً في الكويت لم يحضره سوى قلة قليلة جدا من الناس هم أقاربي فقط.. ف(فهد) مقطوع من شجرة كما علمتم.

المهم أنني لم أرَ ابنتي طوال فترة العزاء.. كما أن (فهد) أخبرني أنه سيسافر معها إلى أوروبا بعد أيام قليلة من الآن وبعد الانتهاء مباشرة من العزاء.. يقول إنه قام بالتخطيط للسفر مع ابنتي منذ

مدة وقبل وفاة أخته.. لأنه يشعر - على حد قوله - بحاجة ماسة إلى الراحة بسبب ضغوط العمل في تأسيس مشروعه التجاري.. وقد تضاعفت الضغوط النفسية الآن بعد فاجعة موت أخته الوحيدة.. و.. بالطبع لم أكن أملك الاعتراض.. فابنتي هي زوجته الآن وهو المسؤول عنها!!!.

الغريب أن بعد يومين فقط من انتهاء العزاء.. بعثت لي ابنتي رسالة هاتفية تخبرني فيها أنها الآن في (السويد) مع زوجها!!!.. هكذا بكل بساطة!!.. إنني لم أرَ ابنتي منذ أسبوع تقريبا.. لقد تحدثت معها مرة واحدة فقط عبر الهاتف أثناء فترة العزاء.. على وعد منها أن تزورني وتزور والدتها قريبا قبل سفرها.. لكن.. تغير كل شيء فجأة وها هي الآن قد سافرت مع زوجها دون أن تودعني!!!.

شعرت بحنق وإهانة لا حدود لهما أمام هذا التصرف.. كيف تسافر ابنتي دون أن تأتي للاطمئنان على والديها؟ !!.. وكيف تكتفي برسالة نصية لتخبرني بهذا دون أن تتصل بي على الأقل وتحدثني بنفسها!!!.. لم أتمكن من كبت شعوري لما حدث!!.. فاتصلت بزوج ابنتي أكثر من مرة.. لكنه لم يرد على الهاتف.. لأعض على شفتي من الغيظ.. وأذهب لأخبر زوجتي بسفر ابنتنا المفاجئ مع زوجها.. بالطبع أثار هذا غيظها أيضا.. لكن.. لم يكن هناك ما نستطيع عمله سوى انتظار عودتهما!!!.

في اليوم التالي.. اتصل (فهد).. وقد بدا طبيعيا للغاية.. فحاولت أن أفهم سر تصرفهما الغريب وكيف تسافر ابنتي دون الاطمئنان على والديها.. وإن كانت بخير لا تعاني من أي مشكلة.. فكان يقسم أن ابنتي على ما يرام لكنها خرجت للتسوق وستعود بعد قليل لتتصل بي بنفسها.. واعتذر بشدة لأنهما لم يجدا الوقت لزيارتنا قبل السفر.. لم أقتنع بكلامه هذا.. ففضلت الانتظار ومحادثة ابنتي لمعرفة سر تلك التصرفات الغريبة.. لكن.. انتظرت طويلا دون أن أتلقى أي اتصال منهما!!!..

لقد أثار هذا قلقي كثيرا دون شك.. حتى أنني ظللت أتصل بهما باستمرار.. لتصلني مقابل ذلك رسائل نصية فقط عبر هاتفي النقال يخبراني فيها أنهما على ما يرام وأنهما سيعودان إلى (الكويت) قريبا.. وأن وراء هذه التصرفات الغريبة مفاجأة جميلة لي ولزوجتي!!!.

لم أقتنع إطلاقا بهذا الهراء.. إذ شعرت مع زوجتي بقلق شديد على ابنتنا وأنها قد تكون في مأزق ما.. هناك لغز وراء ما يحدث.. أنا واثق من ذلك.. أفكر وأفكر.. أبحث عن حل.. أي شيء ينير لي الطريق لأفهم ما يحدث.. بل ورحت أقضي ساعات طويلة أفكر مرة أخرى بكل ما يتعلق ب.(فهد)!!.. لقد تزوج في السابق من امرأة ثرية تكبره سنا كما علمنا.. وقام بتطليقها.. وهي الآن تعيش في الخارج.. ثم تزوج ابنتي.. وبعدها توفيت أخته!!!.. هذا أهم ما حدث.. هناك أمر لا أفهمه.. هناك لغز يثير جنوني.. لماذا سافر فجأة مع ابنتي؟ ؟!.. لماذا لم تتصل بي ابنتي منذ أكثر من أسبوعين تقريبا سوى مرة يتيمة وبمحادثة سريعة مقتضبة في فترة العزاء؟!.. لماذا لا ترد على اتصالاتي الهاتفية وتكتفي بالرد من خلال الرسائل النصية؟؟!.

وأمام كل هذه التساؤلات.. خطرت في ذهني فجأة فكرة غريبة للغاية!!!.. إنني لست معتادا على التفكير بهذه الوسائل البوليسية.. لكن.. وجدتها فكرة فعالة لكشف الغموض

المحيط بهذه القصة.. إذ عادت الشكوك تلتهم عقلي مرة أخرى بكل ما يتعلق ب.(فهد).

وضعت خطتي قيد التنفيذ واتخذت قراري سريعا.. فخرجت من البيت متجها إلى شقة ابنتي

وزوجها.. لقد قمت بزيارتها أكثر من مرة.. وحارس المجمع السكني يعرفني جيدا.. ربما أستطيع إقناعه أن يفتح لي باب الشقة.. سأقوم بجولة تفتيشية في كل ركن منها.. ربما سأعرف شيئا عن (فهد).. لا شك أن هناك سراً يحاول إخفاءه عن الجميع.. لا شك أن هناك سرا.. لا شك أن هناك سرا!!!.

أردد تلك الجملة في ذهني كالمجنون أثناء طريقي إلى شقة ابنتي في منطقة (الجابرية).. و.. نصف ساعة قبل أن أجد نفسي أمام حارس المجمع السكني بالفعل.. فرحبت به بشكل طبيعي للغاية.. ورحب بي كثيرا بدوره.. ثم قلت ضاحكا وبمرح شديد:

- المعذرة على هذه الزيارة المفاجئة.. ولكن ابنتي سافرت مع زوجها إلى أوروبا.. وهناك بعض الحاجيات التي يجب أخذها من شقتها.. والمفتاح مع الأسف ليس بحوزتي.. فهل بالإمكان أن تفتح لي الباب؟ ؟!.. أظن أنك تملك نسخا احتياطية من جميع مفاتيح الشقق في المجمع.. أليس كذلك؟!.

تجهم وجهه قليلا.. وسكت للحظة وهو يفكر بحرج.. لكني لم أعطه الفرصة للتفكير.. بل قلت بمرح مفتعل:

- مالك يا رجل؟!.. إنها شقة ابنتي وزوجها.. فهل سأسرق ابنتي؟!.. إنني رجل كبير في السن ولم أكن لآتي إلى هنا لولا الضرورة القصوى.

قلت هذا ثم ابتسمت وأنا أخرج هاتفي النقال من جيبي أعتزم الاتصال ب(فهد) كي يتحدث مع حارس المجمع ليسمح لي بالدخول.. كنت أفعل هذا بقلق شديد وأنا أردد في ذهني:

- أرجو أن يمنعني من الاتصال ويسمح لي بالدخول!!.. أرجو أن يفعل!!.

لحسن الحظ.. خدعته التمثيلية.. فقال مقاطعا:

- لا بأس يا سيدي.. لا داعي لذلك.. إنني أعرفك جيدا.. ولا أعتقد أن ابنتك أو زوجها سيمانعان دخولك شقتهما.

انفرجت أساريري.. وحمدت الله كثيرا في سري على نجاح خدعتي الصغيرة.. فتوجهنا معا إلى الشقة في الطابق السابع.. قبل أن يفتح لي الباب ثم يستأذنني الذهاب.. لأدخل أخيرا!!!.. دخلت دون قلق كوني موجوداً هنا بشكل قانوني وواضح وصريح.

أنرت الأضواء وبدأت أبحث في غرف الشقة بتوتر شديد لم أعرف سببه.. أبحث عن ماذا بالضبط؟ !!.. لا أعرف.. أي شيء غير عادي.. أي شيء قد يكشف الغموض المحيط بزوج ابنتي اللعين هذا.

دخلت غرفة النوم.. وبحثت في كل الأدراج دون أن أجد شيئا يذكر.. ثم توجهت إلى غرفة المكتب.. وكانت أدراج المكتب مفتوحة مما أثار غيظي كثيرا.. فهذا الوغد يتصرف وكأنه إنسان عادي جدا لا توجد لديه أي أسرار تثير الشك والريبة.. لكن.. ربما يكون إنسانا عاديا بالفعل!!!.. ربما أكون ظالما في حكمي عليه!!.. اللعنة.. طردت تلك الأفكار من رأسي.. ورحت أبحث وأفتش في الأدراج بحذر شديد.. إلا أنني لم أجد سوى أوراقاً عادية تخص مشروعه التجاري.. ثم.. مهلا.. لقد استوقفني أمر ما!!!.. فقد وقعت عيناي على شيء غريب.. إنه.. إنه مخبأ سري في الدرج الأخير من المكتب.. يا إلهي.. لم أكن لأجده لولا أنني بحثت بدقة شديدة.. ترى.. هل تعلم ابنتي بأمر هذا المخبأ؟ !!.. لا أدري.. ولا أعتقد!!!.

كان الدرج يتكون من طبقتين.. تماما كما يفعل تجار المخدرات الذين يخفون الممنوعات في مخبأ سري تحت الثياب في حقيبة السفر!!.. أزحت الأوراق جانبا.. ورفعت الطبقة الخشبية من الدرج حيث المخبأ السري.. لأجد ملفا صغيرا.. كان الملف يحوي صوراً.. بضعة صور لابنتي تم التقاطها لها بعد التغييرات الأخيرة على مظهرها.. لكن.. لا.. لا.. هذه الفتاة.. إنها تشبه ابنتي إلى حد كبير جدا لكنها ليست هي.. فالصور تبدو قديمة تم التقاطها منذ بضع سنوات كما يبدو!!!.

وقفت كثيرا محدقا في تلك الصور والخواطر تلعب في ذهني.. يا إلهي.. هناك فكرة مخيفة للغاية ومضت في عقلي فجأة كمصباح صغير!!!.. شعرت بقلق هائل.. وقلت بذعر:

- يا رب.. ياااااااااااارب.. ابنتي.. ابنتي!!!!.

كانت اللوعة تلتهم قلبي بسبب قلقي الشديد من أن تكون مخاوفي في محلها.. فتركت الشقة مسرعا إلى المكان الذي سيؤكد لي مدى صحة استنتاجي.. إذ توجهت بذعر هائل إلى ذلك المجمع السكني الجديد الفاخر في منطقة (بنيد القار) وجسدي يرتجف بأكمله.. لماذا؟ !!.. ستعرفون بعد قليل.

رحت أقود سيارتي تائها مشتتا وقلبي يحترق خوفا على ابنتي.. لكنني وصلت أخيرا إلى المجمع السكني.. وإلى طابق محدد عرفت مكانه من تقرير الشرطة الخاص بوفاة أخت (فهد).. ثم.. أنظر بقلق إلى أبواب الشقق المتناثرة في الطابق.. أي منها يا ترى الشقة المقصودة؟ ؟!.. أي منها يا ترى؟!.. اللعنة.. لا أذكر رقم الشقة.. ثم.. اتخذت قراري.. سأتصرف بجهل متعمد!!!.

طرقت باب إحدى الشقق.. لحظات قليلة قبل أن يفتح لي أحدهم الباب.. كان رجل في مثل سني تقريبا ومن جنسية عربية.. سألته عن (نجلاء).. من هي (نجلاء)؟ ؟!.. إنها أخت (فهد)!!!.. المعذرة.. فأنا لم أذكر لكم اسمها من قبل.. المهم أنني سألت الرجل عن مكان شقتها بمرح وكأنني لا أعرف ما حدث لها.. ثم:

- المعذرة يا أستاذ.. يبدو أنك لا تعلم.. المسكينة (نجلاء).. لقد رحلت عن الدنيا.. فقد توفيت منذ أسبوعين تقريبا!!!.

تصنعت الانزعاج من كلامه.. وفتحت فمي استغرابا في مشهد تمثيلي واضح.. أنظر إلى أبعاد أخرى بحزن شديد.. وبعد لحظات قليلة احترم فيها ذلك الرجل صمتي.. سألته بحزن:

- أين كانت شقتها يا أستاذ؟!.

أشار إلى إحدى الشقق دون أن يتحدث.. ثم سألني:

- هل حضرتك قريب لها؟!.

قلت بأسى:

- تستطيع أن تقول ذلك.

ورحت أتصنع الحزن الشديد حتى يتركني أرحل ولا يطرح أي أسئلة أخرى.. هذا جيد.. لقد عرفت الشقة المقصودة.. سأدخلها في وقت متأخر الليلة حتى لا يراني أحد.. سأتسلل إليها بشكل غير قانوني.. فهناك أمور كثيرة مخيفة أود التأكد منها.. ورحت أتمنى مرة أخرى أن أكون مخطئا في شكوكي!!!.

في الساعة الثانية فجرا تقريبا.. كنت أقف في نفس الطابق وأمام باب الشقة ذاتها.. ومعي عامل من جنسية آسيوية متخصص في فتح الأقفال.. لقد تعاملت مع هذا الرجل في أكثر من مناسبة لإصلاح أقفال بيتي.. وقد طلبت منه فتح باب هذه الشقة.. في البداية رفض تماما.. لكني دفعت له 100 دينار ليفعل ذلك.. وأقسمت له أن أحدا لن يعرف أبدا بالأمر وأنني لن أذكر اسمه في أي مناسبة وأن ما أفعله هو من أجل الخير.. كما أنه يعرفني منذ سنوات ويعرف أنني إنسان شريف و.. راح يزن الأمر في عقله.. قبل أن يأخذ المبلغ ويفتح لي الباب ثم يخرج دون أن ينظر إلي.. وكأنه ينفي عن نفسه أي علاقة بي!!!.

دخلت الشقة بحذر وهدوء شديدين دون أن أصدر أي صوت.. ثم أمسكت بهاتفي النقال ورحت أستغل الضوء الموجود في شاشته لأعرف طريقي وسط الظلام.. لقد نسيت أن آتي معي بمصباح يدوي لإنارة طريقي.. أمشي بحذر شديد وأبحث في كل أرجاء الشقة آملا أن تخيب توقعاتي.. لكن.. صعقت وسرت في جسدي قشعريرة قوية حين رأيت جسدا نائما متدثرا باللحاف في غرفة النوم!!!.. المفترض أن تكون الشقة خالية.. فأخت (فهد) ميتة كما نعلم ولا يوجد أحد غيرها يعيش هنا.. يا إلهي.. يا إلهي.. أعتقد أن تصوري صحيح!!.

أقترب من الجسد المتدثر باللحاف وقلبي يضخ أطنانا من الدماء بسبب التوتر.. ثم.. رفعت اللحاف بشكل عنيف.. وصرخت بلوعة هامسة:

- ابنتي.. ابنتي.. هل أنت بخير؟!!.

صدرت شهقة قوية من الفتاة.. واستيقظت بذعر حقيقي حتى إنها بذلت جهدا واضحا لمنع نفسها من الصراخ.. فقلت بمرارة والدموع تتشكل في عيني:

- إنك لست ابنتي.. إنك أخت (فهد).. (نجلاء)!!!.. إنك (نجلاء)!!.. أليس كذلك؟!!.

راحت الفتاة تنظر إلي مصدومة أمام هذه المفاجأة.. فأردفت بتخاذل والدموع تنهمر من عيني:

- يا إلهي.. إنك تشبهين ابنتي كثيرا.. لكنك لست هي.. الآن بدأت أفهم.. لقد تزوج (فهد) من ابنتي لأنها تشبهك.. وجعلها تفقد الكثير من وزنها واهتم بمظهرها الخارجي كثيرا لجعلها نسخة طبق الأصل منك!!!.. يبدو أنها خطة حقيرة قمت بإعدادها باقتدار مع شقيقك الوغد.. أليس كذلك أيتها اللعينة؟!!.

ظلت تنظر إلي دون أن تنطق بحرف.. وجسدها يرتجف بأكمله من شدة الرعب.. ثم أردفت قائلا بغضب هائل:

- الفتاة التي ماتت في حمام هذه الشقة كانت ابنتي.. وليست أنت!!!.. لكن الأمر خدع رجال الشرطة لأن (فهد) صنع من ابنتي نسخة منك.. فجعلتما الجميع يظنون أن الميت أنت.. وتم إثبات هذا بأوراق رسمية من قبل الطب الشرعي.. في حين أن الجثة كانت جثة ابنتي وليست جثتك!!!.

سكت طويلا وأنا أحدق بالفتاة في حقد هائل.. هذه الحقيرة.. لقد تآمرت مع شقيقها المجرم لقتل ابنتي!!!.. انقضضت عليها.. وأمسكت برقبتها بعنف.. وقلت لها هامسا والعرق يتصبب من جسدي رغم برودة الغرفة بفضل التكييف المركـزي:

- أخبريني أيتها السافلة.. وإلا أقسم لك بأنني سأقتلك دون رحمة.. أخبريني بكل تفاصيل خطتكم الحقيرة!!!.

ظلت تنظر إلي مصدومة دون أن ترد.. فقمت بفعل شيء لا يمكن أن أقوم به في أي ظروف أخرى.. إذ دسست بعض المناديل الورقية التي وجدتها بجانب الفراش في فمها بقسوة.. ثم ضربتها بقبضة يدي وبكل قوتي في بطنها.. فأطلقت صرخة مكتومة.. وراحت عيناها تدوران حول محجريهما من شدة الألم.. لأقول بعدها وأنا أمسح دموعي:

- إذا لم تبدئي بالكلام الآن.. فسأكرر الضربة.. وستكون أقوى هذه المرة!!!.

لكنها ظلت تهز رأسها نفيا ووجهها قد احمر ألما.. فرفعت يدي.. وقمت بضربها مرة أخرى بكل قوتي في بطنها.. حتى شعرت أن القيء سيتفجر من فمها.. لكني لم أكترث.. ورفعت يدي مرة أخرى لضربها في نفس المكان.. إلا أنها أشارت بيدها هذه المرة وبذعر هائل أن أتوقف وأن أخرج تلك المناديل من فمها!!!.. هذا جيد.. يبدو أنها ستتحدث الآن.

أخرجت المناديل من فمها بالفعل.. فشهقت بقوة ثم صاحت متألمة وبصوت مبحوح:

- ماذا تريد أن تعرف؟!.

سألتها بصرامة:

- بدأت أفهم ما يحدث.. لكن أريد معرفة التفاصيل كلها.. أخبريني أولا عن طليقة (فهد) المقيمة في (الولايات المتحدة الأمريكية).. تلك المرأة الثرية التي تكبره بسنوات طويلة.. ما قصتها؟!.. هل هي بالفعل طليقته؟!!.

ردت بانهزام واضح وقد بدا لي أنها جاهزة تماما للاعتراف:

- المرأة التي تحدثت معها عبر الهاتف.. إنها.. إنها ليست طليقته!!!.. لقد قتلنا طليقته هنا ودفناها في (الكويت).. فقد تزوجها (فهد) طمعا في أموالها فحسب.. حيث قام بعد قتلها ببيع كل الذهب والمصوغات الموجودة لديها.

قلت ببغض:

- سرقة حقيرة سبقتها جريمة قتل أيتها اللعينة!!!.. وماذا عن المرأة التي تحدثت معها في (الولايات المتحدة الأمريكية)؟!.

ردت وهي تبكي:

- إنها امرأة من جنسية عربية كانت مقيمة في (الكويت) لسنوات طويلة.. وهي تتحدث اللهجة الكويتية بطلاقة.. وقد هاجرت إلى (الولايات المتحدة الأمريكية) منذ سنوات.. لذا فقد اتفقنا معها أن تستقبل أي اتصال هاتفي يأتيها من (الكويت) على أنها طليقة أخي!!!.. حيث كنا نرسل لها سنويا مبلغا من المال لاستمرار هذه الكذبة.

سألتها مرة أخرى:

- ماذا عن أقارب طليقة (فهد)؟ ؟!.. كيف تقتلانها هكذا دون أن يثير الأمر اهتمام أحد.. ألم يسأل عنها أقاربها مثلا؟!.

لم أمنع نفسي من صفعها بقسوة وأنا أسمع منها كيف تمارس مع أخيها جرائمهما ويزهقان الأرواح دون حساب.. لتقول وهي تلوح بيديها ذعرا:

- أرجوك.. أرجوك لا تضربني.. سأخبرك بكل شيء.. لقد أوقعها أخي في شباكه وتزوجها بعد أن

عرفنا أنها فريسة مثالية.. فهي أرملة ثرية كبيرة في السن.. تعيش وحيدة ولا يوجد من يسأل عنها.. وقد تزوجها (فهد) ودام زواجهما بضعة شهور.. قبل أن يفتعل خلافا معها ويطلقها في النهاية.. وبعد بضعة شهور أخرى.. تسللنا إلى منزلها وقتلناها.. حيث أخبر أخي الجميع بعد ذلك أن طليقته قد تركت البلد وهاجرت إلى (الولايات المتحدة الأمريكية).. إذ لن تبحث الشرطة أو تتأكد حول هذا الأمر طالما لم يبلغ أحد عن اختفائها أصلا.. فالمرأة كانت تعيش وحيدة كما أخبرتك.

سألتها بحقد بالغ:

- ماذا عن ابنتي؟!.. كيف جئتما بها إلى هنا؟!.. كيف قتلتماها؟؟!.

قالت دون أن تنظر إلي:

- لقد جاء بها (فهد) إلى شقتي هذه وأخبرها أنه يعد لها مفاجأة هائلة وسهرة جميلة لن تنساها مدى الحياة.. فقدم لها كوبا من العصير وضع به مخدر قوي.. وطلب منها أن تأخذ حماما ساخنا بعد أن ملأ لها حوض الاستحمام.. على أن تشرب العصير وهي مسترخية في الحمام لتمنحه الوقت الكافي ليعد لها المفاجأة المزعومة.. وقد قامت ابنتك وبشكل تلقائي بقفل باب الحمام بالترباس كما نفعل جميعا.. لم تكن تعلم أن آلة تسريح الشعر قد تم وضعها بقرب حوض الاستحمام على قطعتين من الثلج.. لقد أجرينا التجربة أنا وأخي أكثر من مرة لنعرف الوقت اللازم لذوبان قطعتي الثلج ومن ثم سقوط آلة تسريح الشعر في الحوض وصعق ابنتك بالكهرباء حتى الموت!!!.. لذا فقد شربت ابنتك العصير ونامت على الفور بسبب قوة المخدر.. ثم ذابت قطعتا الثلج بعد دقائق لتسقط آلة تسريح الشعر في الحوض المليء بالماء وقتلت ابنتك!!!.

ساد المكان صمتا رهيبا بعد كلامها هذا.. يا للدهاء.. أي عقول مريضة خططت لتلك الجريمة الغريبة؟ !!.. هذا ذكاء غير معقول.. ذكاء يفوق الذكاء نفسه.. لكنه ذكاء مريض.. ذكاء يصيبك بالاشمئزاز!!!..

أكملت (نجلاء) كلامها:

- عندما ارتكبنا جريمتنا.. كنت مختبئة في سطح العمارة!!!.. إذ ظللت هناك يوما كاملا إلى أن خرج رجال الشرطة وحملوا معهم جثة ابنتك.. ليتصل بي (فهد) بعدها عبر هاتفي النقال في وقت متأخر من الليل ويطلب مني العودة إلى الشقة للاختباء فيها لمدة شهر أو أكثر قليلا!!!.. لقد سرقنا أموال ومجوهرات طليقته بعد أن قتلناها.. لكن المبلغ لم يكن كافيا.. فرسمنا خطة أخرى.. أن نجد فتاة تشبهني (ابنتك).. ثم نفتعل حادث عارض أبدو أنا ضحيته أمام الشرطة.. لكن الضحية في الواقع هي ابنتك.. فقد قام أخي بشراء تأمين على حياتي من دولة أوروبية منذ 4 سنوات وبمبلغ هائل.. وظللنا ندفع قيمة التأمين طوال تلك الفترة حتى نكسب ثقة الشركة.. ثم قمنا بعدها بالبحث عن فتاة تشبهني!!!.. وقد عثر شقيقي على ابنتك في الكلية!!.. لكن.. كانت هناك تغييرات عديدة تحتاجها لتصبح نسخة مني.. إطالة شعرها وصبغه كي يشبه شعري.. أن تفقد الكثير من وزنها وتهتم ببشرتها وأناقتها.. حتى بدت في النهاية نسخة مني.. أنت تعرف هذه التفاصيل.. ويبدو أنك خمنتها بنفسك!!!.

غمغمت بحزن:

- لقد رأيت صورتك في مكتب (فهد) في درج سري في مكتبه.. وظننت للحظة أنها صورة ابنتي.. وحتى عندما اقتحمت الشقة قبل قليل.. ورفعت عنك اللحاف.. ظننت في البداية أنك ابنتي بالفعل!!!.. ولكن.. مهلا.. ماذا كنت تفعلين في الشقة ؟؟.. لماذا لم تهربي مع (فهد) إلى أوروبا؟!.

ردت بانكسار:

- لقد طلب مني الاختباء في شقتي.. على أن يسافر إلى أوروبا بمفرده ليقبض مبلغ التأمين كاملا أولا ونضمن نجاح خطتنا دون أي مشاكل أو شبهات قد يثيرها وجودي هناك.. خاصة وأن شركات التأمين هذه تجري تحريات واسعة للتأكد من عدم وجود أي عملية نصب في الموضوع!!!.. سيتطلب الأمر بعض الوقت لإنهاء إجراءات شركة التأمين والحصول على المال.. خاصة وأن حالة الوفاة قد حدثت خارج أوروبا.. والواقع أنني كنت سألحق بأخي بعد أيام قليلة من الآن.. إذ لم يتبقَ شيئا على إنهاء الإجراءات واستلام الشيك.. صحيح أنني سأسافر بجواز سفر ابنتك بطبيعة الحال كوني سأنتحل شخصيتها من الآن فصاعدا.. لأنني الآن ميتة بحكم القانون كما تعلم.. لكن.. ربما تكشف تحريات شركة التأمين عن عملية التزوير وأنني ما زلت حية.. فلا تنسَ أنهم يملكون صوراً شخصية لي مع معلومات كاملة عني كون أخي قد اشترى وثيقة التأمين باسمي.

قلت باهتمام:

- يا إلهي.. لولا هذا الإجراء الاحترازي الصغير الذي قمتم به وبقاؤك هنا.. لما عرفت ما حدث لابنتي.. يبدو أن الحذر الزائد قد انقلب ضدكما.. ولكن.. هناك نقطة هامة لا أفهمها.. كيف تلقيت اتصالا هاتفيا من ابنتي أثناء فترة العزاء بعد موتك.. أعني بعد موتها؟!!.

زفرت بقوة وهي تقول:

- لم تكن ابنتك.. كانت المتصلة أنا.. ألم تلاحظ أن الاتصال كان قصيرا ومقتضبا جدا؟ !!.. وألم تلاحظ أيضا أنني كنت أتحدث وسط ضجيج هائل؟!.. لقد كنت أتحدث إليك من أحد المجمعات التجارية وبأكثر أوقات اكتظاظه بالناس.. فعلت هذا حتى لا تلاحظ أي اختلاف بين صوتي وصوت ابنتك!!.

سكت قليلا محاولا التذكر.. ثم أردفت بغضب:

- بالفعل أيتها الحقيرة.. لقد شعرت للحظة أن صوت ابنتي مختلف.. لكني لم أعر الأمر أي اهتمام حينها.. خاصة وأنك اتصلت من هاتفها النقال.. لذا لم تكن هناك ذرة شك لدي أن المتصلة هي ابنتي.. ولكن لماذا اتصلت بي أصلا؟!!.

قالت:

- لم يكن أخي يريد أن يثير أي شكوك لديك في حالة اختفاء ابنتك تماما بعد موتي المزعوم.. صحيح أنك لم تكن لتعلم الحقيقة حينها.. فأنت لم ترَ جثة ابنتك.. كان هذا مجرد إجراء احترازي آخر كي لا نثير شكوكك.

لم أصدق ما أسمعه.. فقلت وأنا أضغط على أسناني:

- إذاً.. كان من المفترض أن تختفي ابنتي مع زوجها فجأة بعد حصوله على الشيك دون أن أعلم

أنها ميتة أصلا!!!.. كيف تتلاعبون بأب وأم بهذه الصورة أيها الأوغاد؟ ؟!.. إن زوجتي تكاد أن تموت قلقا على ابنتنا.. والآن سأخبرها أنها قد قُتلت بتخطيط مريض من زوجها وأخته؟؟!!.. من أجل ماذا ؟؟.. من أجل المال؟!.

ثم نهضت من مكاني وأمسكت ب(نجلاء) بكل قوتي لآخذها إلى المخفر.. لن يكون الأمر عسيرا لإقناع الشرطة بما حدث.. فحص هذه الفتاة سيؤكد أنها (نجلاء) أخت (فهد).. وأن الجثة هي جثة ابنتي!!!.. لحسن الحظ أن الشرطة تستطيع الوصول لهذا المجرم في أوروبا بسهولة.. فجميع دول أوروبا أعضاء في البوليس الدولي (الانتربول).. لا بد أنه كان سينهي إجراءات التأمين ويقبض المال اللازم ثم يسافر مع أخته إلى إحدى دول أمريكا اللاتينية على الأرجح والتي ليست عضوا في (الانتربول).. لقد اشترى التأمين على حياة أخته من أوروبا لأن شركات التأمين هناك تدفع بسخاء.. هذا مؤكد ومعروف.

و.. لم يكن هناك المزيد ليقال.. فقد جررتها من شعرها إلى مخفر الشرطة.. وأخبرتهم بكل التفاصيل.. ولم تستطع الحقيرة الإنكار.. إذ اعترفت بكل شيء.. وبدا واضحا أنها مجرد فتاة ضعيفة كانت تعتمد على دهاء أخيها وخبثه بالدرجة الأولى.. إلا أن هذا لم ينقذها.. إذ تم القبض على (فهد) في أوروبا بعدها ببضعة أيام.. وتم تسليمه إلى السلطات في (الكويت) ليأخذ جزاءه أخيرا!!!.

لقد انتهت القضية كما ترون.. ولكن بعد أن خسرت ابنتي إلى الأبد.. خسرتها في ملابسات جريمة هي على الأرجح أغرب الجرائم التي قد يقرأ عنها إنسان في حياته.. ولا داعي أن أخبركم بحال زوجتي عندما علمت بنبأ وفاة ابنتنا الوحيدة.. فهذا أمر مفروغ منه.. ليتها فكرت في كلامي قبل زواجها!!!.. ليتها فعلت.

مع الأسف.. من النادر أن نفكر بما نملك.. بل نحن نفكر بما ينقصنا.. وها أنا الآن قد خسرت ابنتي الوحيدة بسبب ذلك.. لكني على الأقل ثأرت ممن قتلها.. وساهمت بشكل كبير في القبض عليه وعلى أخته!!!.

لقد بكيت كثيرا.. وظللت أياما طويلة مكتئبا مع زوجتي.. غير مصدق أن هناك من يفكر بتلك الطريقة ويدمر حياة أسرة بكاملها ويزهق روحا بريئة بدم باردا!!!.. شعرت بضياع.. شعرت بعدم الأمان في هذا العالم.. فليس من السهل أن يخسر المرء ابنته الوحيدة في قضية متشابكة معقدة كهذه.. لكن.. لم يكن هناك ما أستطيع فعله سوى الاستمرار في الحياة والحسرة على ما حدث.. آملا أن أنعم مع زوجتي بأغلى هدايا الزمن.. النسيان.. خاصة بعد أن ساهمت بفتح ملف القضية على مصراعيه وكشفت السر.. سر زوج ابنتي الوغد الذي لقي جزاءه أخيرا مع أخته.

اللغز

كنت بحاجة ماسة إلى تلك الإجازة دون شك.. بعد أن قضيت أياما طويلة لا أفعل فيها شيئا سوى العمل المتواصل في إحدى شركات القطاع الخاص.. حيث بدأت صعود سلم النجاح منذ أن تم تعييني في تلك الشركة قبل حوالي 9 سنوات.. وكسبت ثقة المسؤولين منذ السنة الأولى نظرا لإخلاصي الشديد في العمل.. فتدرجت في المناصب الوظيفية بسرعة تثير الإعجاب والفخر بالفعل.. حتى حصلت في النهاية على منصب نائب المدير العام في زمن قياسي وأنا لم أبلغ الخامسة والثلاثين من العمر بعد.

أتذكر جيدا أنني لم أكن أحصل على أي إجازات للراحة رغم نصائح المدير العام نفسه ألا أنغمس في العمل إلى هذا الحد وأنسى صحتي.. لكني لم أستمع إليه.. ولم أستمع إلى نصائح والدتي-أطال الله في عمرها - عندما كانت تلح علي بشكل متواصل أن آخذ إجازة أسافر فيها للراحة والاستجمام.. وأن أتزوج كباقي الناس.. وهي محقة في كلامها إلى حد كبير.. فالعمل أخذ مني حياتي الاجتماعية واستحوذ على كل اهتمامي.. حتى أنني كنت أرفض الزواج تماما.. وأراه قاتلا للطموح!!.

المهم أنني رضخت في النهاية لتلك الضغوط.. خاصة بعد أن شعرت أن صحتي لم تعد على ما يرام رغم صغر سني.. فهناك آلام شديدة تغزو عمودي الفقري بسبب جلوسي الدائم على مكتبي.. كما أن نظري لم يعد على ما يرام أيضا بسبب الاستخدام الدائم لجهاز الكمبيوتر.. عندها فقط أمرني المدير العام أن أحصل على إجازة لمدة شهر.. وضعوا ألف خط تحت كلمة (أمرني)!!!.. فقد استدعاني في ذلك اليوم.. وأمرني بأخذ إجازة لمدة شهر أو أكثر إن أردت.. وحذرني بأنه لو رآني في الشركة طوال تلك المدة فسيتخذ بحقي إجراء صارما لعدم تنفيذي لأوامره!!!.

في النهاية.. لم أجد بدا من الاستماع إليه.. والأخذ ب(أوامره) ونصائح والدتي.. وأن أسافر وحيدا إلى مكان هادئ جميل بعيدا عن زحمة الحياة وصخبها.. فوجدت نفسي أختار مباشرة السفر إلى تلك البقعة الساحرة الجميلة.. قرية (خيثورن) (Giethoorn) ([2]) الهولندية الصغيرة!!.. وهي بالمناسبة واحدة من أجمل القرى في العالم.. ويطلق عليها اسم (بندقية الشمال) نسبة إلى مدينة (البندقية) الشهيرة في (إيطاليا) والتي تشتهر بممراتها المائية الكثيرة وقلة شوارعها.. وهذا ما كان يميز تلك القرية الهولندية بالفعل.. فهي تخلو تقريبا من الشوارع وضجيج السيارات.. فلا يمكنك التنقل في معظم ممراتها إلا من خلال المراكب الصغيرة.. إنها تحفة من الجمال والروعة و.. الهدوء.. إذ لا يتجاوز عدد سكانها 2000 نسمة فقط.. كما أن أجواءها رومانسية ساحرة.. ولو مشيت في تلك القرية مع أي فتاة في العالم لتخيلت أنك تحبها بجنون ([3])!!.

كما ترون.. كانت تلك القرية مكانا مثاليا لشخص مثلي.. مكاناً يصلح للراحة والاستجمام وشحن طاقات الجسد والعقل.. لقد اخترت السفر إلى هناك دون أن أعلم أنني سأواجه في تلك القرية الصغيرة أكبر لغز قد يتعرض له إنسان في حياته!!!.

لن أدخل في تفاصيل رحلتي إلى هناك.. فقد تمت إجراءات السفر بسرعة دون تعقيد.. ووجدت نفسي بعد أيام قليلة في (هولندا) راكبا سيارة أجرة ومتجها إلى أحد الفنادق الصغيرة في تلك

القرية.. وفي طقس معتدل إلى حد ما في مثل ذلك الوقت من شهر (مايو).

كانت الأمور تسير بصورة طبيعية للغاية قبل أن أصل إلى الفندق وألتقي بموظف الاستقبال الذي ما إن رآني.. حتى ظل يحدق بي بغباء ودهشة لم أفهم سببهما!!!..

ليسألني بعدها بتوجس واضح:

- (عثمان)؟ !!.. أنت (عثمان)؟!!.

نظرت إليه باستغراب بالغ!!!.. كيف عرف اسمي؟ !!.. لقد ناداني باسمي وكأنه يعرفني منذ زمن!!!.. أو.. كأنني زائر دائم لتلك القرية التي لم أزرها في حياتي من قبل.. نقلت تساؤلاتي إليه.. فرد بحماس ومرح شديدين:

- هل نسيتني يا رجل؟ !!.. لا يمكن أن تكون قد نسيتني.. أخبرني أولا.. لماذا رحلت عنا فجأة؟!.. كان شهرا رائعا لا ينسى عندما أقمت هنا.. فقد كسبت صداقة أهل القرية.. وأحبك الجميع.. لماذا رحلت؟!.. يااااه.. إنك لم تزرنا منذ فترة طويلة.. ربما منذ سنتين.. و ....

قاطعته وأنا ألوح بيدي وأهز رأسي نفيا بقوة:

- مهلا.. مهلا.. مهلا.. إن اسمي (عثمان) بالفعل.. لكني لم أزر (هولندا) في حياتي من قبل.. ولم آت بكل تأكيد إلى هذه القرية.. إنها المرة الأولى.. فكيف عرفت اسمي بالله عليك يا رجل؟؟!.

نظر إلي بدهشة.. ثم مط شفتيه وكأنه يظنني أكذب.. بل وأكذب بوقاحة!!!.. فقال مستغربا وبلهجة رسمية لم تخلُ من الإحراج:

- حسنا يا سيد (عثمان).. إن غرفتك رقم (8).. ستجدها في الطابق العلوي.. موعد الإفطار من السابعة صباحا وحتى....

قاطعته بإصرار وقد ضايقني ذلك التبدل السريع في طريقة حديثه معي:

- أخبرني أولا.. كيف عرفت اسمي؟ !!.. هل هي صدفة؟!.. إنني لا أحمل جواز سفري القديم معي وإلا جعلتك تتأكد بنفسك أنني لم أزر قريتكم منذ سنتين كما تقول.. بل إنها المرة الأولى التي أزور فيها (هولندا) يا رجل!!!.

قال بتحفظ شديد خوفا من ردة فعلي:

- إنني واثق من أنه أنت يا سيد (عثمان).. كيف عرفت اسمك إذاً؟!.. لا يمكن أن يكون الأمر صدفة.. كما أن شكلك لم يتغير على كل حال!!!.

قلت بإلحاح وبشيء من الحدة:

- وأنا أقول لك إنني لم آت إلى هنا في حياتي!!!.. ولا أفهم حتى الآن كيف عرفت اسمي.

نظر إلي دون أن يرد.. وكأنه يقول في قرارة نفسه:

- أعرف أنك تكذب.. لكن لا أعرف السبب.

عندها فقط.. أخذت مفتاح الغرفة من يده بحدة بعد أن شعرت أن النقاش معه عقيم ولن يؤدي إلى شيء.. وأمسكت حقيبتي الصغيرة متوجها إلى غرفتي والتساؤل يتكرر في ذهني.. كيف عرف ذلك الرجل اسمي؟!.. هل جاء إلى هنا شخص يشبهني مثلا وقد ظن أنه أنا؟ ؟!.. هذا

جائز.. ولكن.. لا يمكن أن يحمل ذلك الشبيه اسمي أيضا!!.. ستكون صدفة خارقة.. لا.. لا يمكن أن تصل الصدف إلى هذا الحد.. خاصة وأننا نتحدث عن قرية صغيرة للغاية لا يزورها السياح العرب كثيرا!!.

طرحت تلك التساؤلات خلفي.. وجلست في غرفتي محاولا تناسي ما حدث والاسترخاء بعد السفر الطويل.. حيث كانت الأجواء هادئة للغاية إلى درجة أنها تشعرك بالألفة والأمان.. بل إن الفندق نفسه لم يكن فندقا بالمعنى المعروف.. فهو أشبه بمنزل كبير.. لكنه كان نظيفا للغاية.

توجهت بعدها إلى الحمام وأخذت حماما ساخنا.. قبل أن أقرر الخروج من الفندق والتجول قليلا في القرية للاستمتاع بالهدوء والهواء النقي وجمال الطبيعة.. خاصة وأن الساعة لم تتجاوز الخامسة مساء.

نزلت إلى صالة الاستقبال.. لأجد نفسي أمام الموظف ذاته!!!.. ولكن.. هذه المرة لم يكن وحيدا.. بل كان هناك مدير الفندق أيضا.. وكلمة (مدير) كبيرة إلى حد ما لمكان كهذا.. فعدد الموظفين هنا قد لا يتجاوز أصابع اليدين.. لكنه كان المدير على كل حال.

الغريب أنه ما إن رآني.. حتى أشرق وجهه فجأة.. ووضع يديه على كتفي وهو يقول بحرارة وبلغة إنجليزية جيدة:

- (عثمان)؟!.. إنه أنت.. يا إلهي.. أين ذهبت يا رجل؟!.. لماذا رحلت فجأة وتركتنا؟ !!.. إن لأصدقائك حقاً عليك أيضا.. كل هذه المدة ولا تفكر بزيارتنا مرة واحدة على الأقل؟؟!!.

لم أرد.. بل ظللت أنظر إليه مصدوما.. قبل أن أسمع موظف الاستقبال يخاطب المدير باللغة الهولندية.. على الأرجح يقول له:

- هذا الرجل يكذب بوقاحة وينكر أنه يعرفنا!!!.

صعد الدم إلى رأسي.. واحمر وجهي غضبا أمام ما يحدث.. فقلت بحدة:

- هل أنتم شلة من المجانين؟ !!.. إنني لم آت إلى هنا من قبل.. أقسم لكم إنني لم أزر (هولندا) في حياتي.. هذه هي المرة الأولى.. ألا تفهمون.. إنها المرة الأولى!!!.

نظر إلي المدير باستنكار شديد أمام ردة فعلي.. فتداركت الأمر.. وغمغمت معتذرا:

- المعذرة.. لكني بالفعل لم أزر (هولندا) من قبل يا سيدي.. ولا أعرف كيف تعرفون اسمي.. ربما أتاكم زائرا يشبهني.. ويحمل اسمي أيضا و ....

وجدت كلامي سخيفا للغاية.. فخرست.. وخرجت من الفندق تاركا المدير وموظف الاستقبال حائرين أمام تصرفي هذا!!.. حقا لا أعرف ما يجري هنا.. إنه أمر بالغ الغرابة.. كيف يؤكد موظف الاستقبال والمدير أنني قد زرت تلك القرية من قبل رغم أنني لم أفعل؟ ؟!.. وكيف يعرفان اسمي؟ !!.. من يحل لنا هذه المعضلة؟!!.

المهم أنني خرجت لأمشي قليلا في ممرات القرية مستمتعا بالطبيعة الخلابة والأجواء الحميمة محاولا نسيان ما حدث في الفندق.. قبل أن أقرر الذهاب إلى أحد المطاعم القليلة الموجودة في القرية لتناول وجبة العشاء.. و.. لا أريد أن أكون مملا وأكرر لكم القصة مرة أخرى وأخرى!!!.. نعم.. بعض أهالي القرية يعرفونني أيضا!!!.. إن الأمور قد بلغت حدا لا يصدق!!.. فعندما دخلت المطعم.. عرفني صاحبه مباشرة.. بل ورحب بي بحرارة على أنني (عثمان).. ونادى زوجته

أيضا التي رحبت بي بدورها بحرارة.. حتى أنها احتضنتني كعادة الأوروبيات!!!.

ورغم أن المطعم كان خاليا تقريبا سوى من بعض الزبائن من أهل القرية.. إلا أن بعضهم قد تعرفني أيضا.. فأحاطوا بي وراحوا يعاتبونني على هذا الغياب الطويل والرحيل المفاجئ!!!.. قبل أن تتحدث زوجة صاحب المطعم وهي تقول بعتاب:

- لماذا تركت (سيلفيا) ورحلت عنها يا ولدي؟ !!.. المسكينة.. لقد أحبتك كثيرا.. إن تصرفك هذا لم يكن سليما.. فحتى لو اضطرتك الظروف إلى العودة لوطنك.. كان الأجدر بك إبلاغ الفتاة على الأقل أو الاتصال بها لاحقا في أسوأ الأحوال.. أما أن تختفي فجأة طوال هذه المدة ثم تعود بشكل مفاجئ أيضا.. فهذا أمر لا يقبله أحد!!!.

ماذا كانت ردة فعلي أمام كل هذا الكلام وكل ما حدث في المطعم؟ !!.. لا شيء بالطبع.. نعم.. فقد شلتني المفاجأة تماما.. لقد كانت الصدمة أقوى من أن أتكلم أو أن يكون لي أي رد فعل!!!.. لا يمكن أن يخطئ الجميع.. لا يمكن.. يا إلهي.. إن ما يحدث يقع في نطاق المستحيل.. لكني أعيشه واقعا.. أي لغز هذا؟!!!.

و.. أمام هذا السكوت المريب.. شعرت بضرورة الرد أمام كل هؤلاء الذين أحاطوا بي بحب.. لذا حاولت أن أقول شيئا.. حاولت أن أرد.. فغمغمت بعبارات اعتذار مبهمة لم أفهمها أنا نفسي!!.. حتى شعر الجميع أنني لست على ما يرام.. ليتركوني شيئا فشيئا.. وعلامات الاستفهام تكبر من حولي وكأنها جيوش جرارة لا يوقفها أحد!!!.

خرجت بعدها مباشرة من المطعم.. إذ لم أتمكن من الجلوس وطلب الطعام كحال بقية الزبائن.. شعرت أن ما حدث قد سمم الجو تماما.. يتصرف الجميع على أنهم يعرفونني!!.. وفي نفس الوقت.. أنا لا أعرف أحدا هنا.. ولم أزر هذا المكان في حياتي.. وهذا ما يظهرني أمامهم كالوغد الذي يتعمد الكذب.. لا يمكن أن أكون قد أتيت إلى هنا من قبل ونسيت الأمر برمته بعد ذلك!!!.. هذا مستحيل.. وهو تفسير سخيف أيضا.

عدت بعدها إلى الفندق على أن أطلب وجبة العشاء من خدمة الغرف لأتناول الطعام في غرفتي ولنرى بعدها ما سيحدث.. فقد كنت أتضور جوعا.. ولم أستبعد فكرة خروجي من القرية وانتقالي إلى مدينة أو قرية أخرى.. فقد شعرت للحظة أنني محاصر في هذا المكان وكاذب في نظر الجميع.. وهو أمر لا يحتمل بطبيعة الحال!!.

جلست في غرفتي مستمتعا بدفء أجوائها.. أشرب حساء الخضراوات اللذيذ.. وآكل وجبتي بهدوء.. ثم رحت بعدها أشاهد أحد الأفلام الأجنبية شاعرا أن الحياة لا يمكن أن تكون أجمل من ذلك.. ولم يكن ينغص علي سوى تلك الأحداث العجيبة التي مررت بها منذ وصولي إلى القرية والتي منعتني إلى حد ما من الاندماج مع أحداث الفيلم.. و.. مهلا.. أسمع طرقا خفيفا على باب الغرفة!!!.. من سيأتي إلى غرفتي؟ !!.. خدمة الغرف مثلا؟ !!.. لا يمكن.. لقد تركت صفحة الطعام خارج الغرفة بعد تناول العشاء.. ثم إن الساعة تقترب من الحادية عشرة مساء.. من سيأتي إلى غرفتي في مثل هذا الوقت؟!!.

نهضت من مكاني مستغربا.. ثم نظرت من فتحة الباب.. وإذا بفتاة شقراء رائعة الجمال.. أوروبية الملامح بكل تأكيد!!.. فتحت لها الباب.. وإذا بالدموع تنهمر من عينيها!!!.. نعم.. لقد كانت الفتاة تبكي وتنظر إلي بحزن شديد وعتاب لا حدود له.. أما أنا.. فكنت أنظر إليها وأحدق بها ببلاهة وغباء شديدين.. لماذا أشعر بالبلاهة والغباء؟ !!.. هل لأن الفتاة رائعة الجمال؟ !!..

هل لأنها تبكي؟ !!.. فبكاء الفتيات الجميلات يضعف قلوب أعتى الرجال.. أم.. هل لأنها تبدو لي مألوفة إلى حد ما؟ !!.. نعم.. فهذه الفتاة تبدو مألوفة بالفعل رغم أنني لم أرها من قبل.. أنا واثق من ذلك.. وكأنها.. وكأنها أيقظت شيئا في عقلي الباطن.. شيئا لا أعرفه.

لحظات من الصمت دارت خلالها عشرات الخواطر في رأسي.. قبل أن تقول وهي تطلق لدموعها العنان:

- لا أصدق أنه أنت.. لماذا يا (عثمان)؟!.. لماذا رحلت هكذا وتركتني دون أن تخبرني بعنوانك أو رقم هاتفك في (الكويت)!!.. إنك لم ترحل.. بل هربت.. لا يوجد وصف آخر لما فعلته سوى الهروب!!.

مرة أخرى أخرسني هذا الكلام.. تماما كما أخرستني قبلها كل المفاجآت التي بت أواجهها باستمرار في تلك القرية.. فغمغمت بصوت متحشرج:

- أنا.. أنا.. أنا.. لا أعرف ما أقول!!!.

نظرت إلي معاتبة.. ولسان حالها يقول:

- لا يوجد لديك ما تقوله بكل تأكيد بعد تصرفك الأحمق هذا!!.

ثم قالت كلمات أصابتني في مقتل:

- لقد طالبني الجميع بنسيانك.. وقد حاولت بالفعل.. لكني لم أستطع.. إنني أحبك.. وما زلت أحبك رغم كل ما فعلته بي!!!.

لم أحتمل تلك الدموع.. لم أحتمل هذا الكلام.. فأمسكت بيدها وجذبتها برفق إلى داخل غرفتي.. ثم أغلقت الباب ورحت أقول بجدية بالغة:

- اسمعيني أرجوك.. اسمي (عثمان) نعم.. الجميع هنا يعرفني كما هو واضح.. لكني أقسم لك إنني لست (عثمان) الذي تعرفينه!!.

ردت وهي تمسح دموعها:

- بالفعل.. لقد تغيرت كثيرا.. ولا أعرف لماذا؟ ؟!.. لا يمكن أن أكون قد أخطأت في حكمي عليك.. لأنك عشت بيننا فترة تجاوزت الشهر لم أفارقك فيها إطلاقا.. فعرفتك جيدا وتحدثت معك أياما طويلة وعرفت صدق مشاعرك.. إلى أن وقعت في حبك!!!.. وظننت أنك أحببتني بالمقابل.. لكن يبدو أنني كنت مخطئة!!!.

قلت ملوحا بكفي وكأنني أنفي عن نفسي تهمة خطيرة:

- لا.. لا.. اسمعيني أرجوك.. أعتقد أنك (سيلفيا).. فقد أخبروني عنك في المطعم.. صدقيني.. أنا لم أزر (هولندا) في حياتي.. ولم آت إلى هذه القرية من قبل!!!.. أرجوك صدقيني.. أعترف أنني أشعر بالفعل بشيء من الألفة هنا.. لقد كنت أظن هذا شعورا معتادا بسبب روعة المكان وهدوئه.. وربما بسبب مشاهدتي لصور كثيرة لهذه القرية من خلال الانترنت.. لكن بدأت الآن أصدق أن هناك لغزا ما.. لغزا أجهله يكاد أن يصيبني بالجنون!!!.

هزت رأسها وهي تقول بأسف:

- لا أعرف لماذا تكذب.. ولا أعرف لماذا عدت إلى هنا أصلا إذا كنت قد هربت سابقا.. إنك

حتى لم تدفع فاتورة الفندق.. فتكفلت أنا بها.. ظنا مني أنك تعاني ظروفا قاهرة أجبرتك على العودة سريعا إلى وطنك!!!.

لم أعرف ما أقول.. كيف أقنعها بصدق كلامي؟!.. ثم.. تذكرت شيئا.. فقلت بلهفة:

- مهلا.. مهلا.. سأطلب من شقيقي أن يرسل لي جواز سفري القديم على عنواني هنا.. سأثبت لك أنني لم آت إلى (هولندا) من قبل!!!.

نظرت إلي مستغربة.. ثم قالت بشيء من الحدة:

- ما الذي تقوله يا (عثمان)؟ !!.. أنا أعرف أنه أنت.. لقد كنت معك طوال الفترة التي قضيتها في قريتنا.. هل نسيت ذلك المطعم الذي تناولنا فيه الطعام معا؟ !!.. هل نسيت اللحظات الجميلة الذي قضيناها في أحد الممرات المائية على متن ذلك القارب الصغير؟ !!.. لماذا تنكر؟ !!.. لماذا تتصرف بهذه الغرابة؟ !!.. لو كانت هذه طريقتك لإنهاء علاقتك بي ف.....

قاطعتها بإصرار وحدة:

- يا فتاة.. أقسم لك إنني لا أكذب.. أستطيع أن أثبت لك كلامي.. يومين أو ثلاثة فحسب وسيصل جواز سفري القديم عبر البريد السريع.. سأتصل بشقيقي الآن لأطلب منه إرساله غدا صباحا.

لم تجد ما تقوله أمام هذا الكلام.. فنظرت إلي بأسف غير مقتنعة بكلامي إطلاقا.. ثم خرجت من غرفتي بانكسار واضح.. وتركتني وحيدا مهموما والأفكار تصطرع في ذهني وتلغي بعضها بعضاً دون أن أفهم ما يدور حولي!!.

أمسكت بعدها بهاتفي النقال.. وضغطت على أزراره بعصبية.. سأتصل بشقيقي لأطلب منه إرسال جواز سفري غدا صباحا في البريد السريع.. مع شيء آخر لم أتذكره سوى الآن.. دليل آخر سيثبت لهؤلاء الناس أنني لا أكذب.

أخبرت شقيقي بكل شيء.. وقضيت بعدها اليومين التاليين في غرفتي.. لم أخرج منها إطلاقا سوى في أوقات متأخرة من الليل حتى أتجنب الناس تماما ولا أقع في الحرج.. ولكن.. أصدقكم القول أن الشعور بالألفة قد تزايد إلى حد كبير مع هذا المكان.. ولا أنكر أيضا أنني شعرت باشتياق لا حدود له لتلك الفتاة الجميلة.. في البداية ظننت أن الأمر طبيعي.. فأي فتاة جميلة تدخل غرفتك باكية في قرية هادئة جميلة كهذه لا بد وأن تحرك شيئا في أعماقك.. ولكن.. شيئا آخر في داخلي يجعلني أشعر أن الأمر أكبر من ذلك بكثير.. هذه الفتاة.. وهذه القرية.. يا إلهي.. 3 أيام فحسب.. 3 أيام قضيتها في هذه القرية وغرقت خلالها في عالم من الألغاز.. هذا لا يصدق.. لا يصدق!!!.

في اليوم الرابع من وجودي في القرية.. تلقيت اتصالا من موظف الاستقبال يخبرني بوصول بريد لي.. وسألني إن كنت أرغب أن يأتي به إلى غرفتي.. بالطبع كان يحدثني بشيء من التحفظ بسبب الموقف السخيف الذي حدث بيننا يوم وصولي الفندق.. لكني لم أكترث.. المهم أن أثبت لهؤلاء الحمقى أنهم مخطئون بشكل أو بآخر.. ولكن.. هل الجميع حمقى بينما أنا العاقل الوحيد؟ ؟!.. أليس هذا ما يقوله المجانين دائما؟!.. لم أبحث عن إجابة لهذا السؤال.

لم أنتظر أن يأتي البريد إلى غرفتي.. بل نزلت بنفسي من شدة لهفتي وأخذت المظروف من موظف الاستقبال بعد أن شكرته دون أن أنظر إليه.. وعدت بعدها إلى غرفتي مسرعا لأفتح

المظروف.. أخيرا!!!.. هذا سيثبت كل شيء.. لحسن الحظ أنني لست مجنونا.. فقد بدأت أشك في كل شيء.. حتى في سلامة عقلي.. ولحسن الحظ أيضا أنني قد احتفظت بجواز سفري القديم مع تلك الأوراق الأخرى التي أرسلها أخي والتي ستثبت الأمر بصورة أكبر.. أي أوراق؟ !!.. ستعرفون بعد قليل!!!.. فقط تابعوا معي.

كانت الساعة لا تتجاوز الواحدة ظهرا.. فنزلت مسرعا إلى موظف الاستقبال ذاته لألقي عليه التحية بمرح.. وطلبت منه أن ينادي المدير بسرعة.. فهز رأسه موافقا بتحفظ شديد.. و.. لحظات قليلة قبل أن أجد المدير أمامي.. ثم:

- تفضل.. هذا جواز سفري القديم.. لن تجد فيه أي تأشيرة دخول إلى (هولندا) بل ولا حتى إلى أوروبا في السنوات الـ 10 الماضية!!!.. وهذه الأوراق من أحد المستشفيات في (الكويت).. لقد كنت نزيلا في المستشفى لأكثر من شهر بسبب حادث مروري!!!.. تحديدا في الفترة التي تدعون أنني كنت موجودا فيها في قريتكم.. هل هذا كاف ليثبت لك أنني لست (عثمان) الذي تظنه؟!!.

لم يرد أحد منهما.. بل راحا ينظران إلى الأوراق وإلى جواز السفر ببلاهة.. كان واضحا أنني أخرستهما تماما.. نعم.. لقد نسيت أن أخبركم في بداية قصتي بهذا الأمر.. فأنا لم أغب يوما عن عملي ولم أحصل على إجازة باستثناء تلك المرة.. عندما تعرضت لحادث مروري جعلني طريح الفراش في المستشفى!!!.

بعد هذا الدليل الذي لا يقبل الشك.. غمغم المدير باستغراب هائل وهو يحك رأسه:

- أنا لا أفهم ما يحدث.. هذا مستحيل.. هناك أمر غير مفهوم!!!.

راح يتبادل النظرات مع موظف الاستقبال وكأنه يطلب منه تفسيرا.. لكن الأخير هز رأسه بذهول عاجزا بدوره عن تفسير ما يراه.. وكأنهما كانا على يقين أنني كنت أكذب.. وقد تبين أخيرا أنهما مخطئان.

ثم.. جاءت النقطة الأهم.. سألتهما عن (سيلفيا).. الفتاة التي زارتني في غرفتي قبل يومين.. فانفرجت أسارير موظف الاستقبال وهو يقول:

- آه.. (سيلفيا).. هذه الفتاة الرائعة.. إن منزلها بجانب الفندق.. لهذا أنت اخترت السكن هنا عندما أتيت إلى قريتنا في المرة الأولى.. ل ...

خرس فجأة بعد أن تذكر أنني لست (عثمان) الذي يقصده.. أو أن الذي زارهم في القرية في المرة السابقة لم يكن أنا.. فوصف لي بصورة مقتضبة كيفية الوصول إلى بيتها القريب من الفندق دون أن تزول نظرات الاستغراب من عينيه بعد أن أثبت لهم صدق كلامي.

خرجت بعدها مسرعا متجها إلى منزل (سيلفيا).. فاستقبلني والدها بحرارة مختلطة بالعتاب المعتاد لما فعلته بابنته!!!.. أما والدتها فاحتضنتني بحنان بدورها وهي تطلب من الأب ألا يقسو علي.. فربما كانت هناك ظروف معينة اضطرتني إلى السفر والعودة لوطني بصورة مفاجئة.. وربما أكون قد شعرت بخطئي - على حد قولها - وقد عدت أخيرا لابنتهم!!!.

أما الأهم من كل هذا.. (سيلفيا).. فلم تكن في البيت!!.. بل في عملها.. في المكتب السياحي الصغير التابع للقرية.. هل أذهب إليها؟ !!.. نعم.. ولكن.. سأثبت لوالديها أولا أنني

لم آت إلى هنا من قبل!!!.

جلست في غرفة المعيشة في ذلك البيت الصغير الدافئ.. ووالد (سيلفيا) مع زوجته ينظران إلي وكأنهما ينتظران توضيحا.. يبدو أن ابنتهما لم تخبرهما بزيارتها لي في الفندق!!!..

أخرجت جواز السفر.. وقلت للأب بجدية:

- أعرف يا سيدي أنك لن تصدقني.. ولكن.. هذا دليل لا يقبل الشك على ما سأقوله لك.. تفضل.. هذا جواز سفري.. لن تجد فيه ختم (هولندا) نهائيا.. بل ولن تجد فيه تأشيرة دخول أي دولة أوروبية في السنوات ال 10 الماضية.. بينما يصر الجميع على أنني (عثمان) الذي زاركم منذ سنتين.. وأنا اسمي (عثمان) بالفعل.. ولكن لست نفس الشخص الذي تقصدونه!!!.

نظر الأب إلى جواز السفر بعدم فهم!!!.. ثم نظر إلي بذهول.. وقال لزوجته شيئا باللغة الهولندية!!!.. فراحت تنظر إلي بدورها بذات الاستغراب.. ليقول الأب مغمغما:

- هذا مستحيل.. لا يمكن.. هذا دليل لا يقبل الشك بالفعل.. ولكن!!.. هل تحمل جواز سفر آخر غير جوازك الكويتي؟!!.

هززت رأسي نفيا بقوة.. ثم أخرجت الأوراق من جيبي.. وقلت له بإصرار:

- هذا دليل آخر!!.. أوراق تثبت أنني تعرضت إلى حادث سير ألزم بقائي في المستشفى لأكثر من شهر.. وهذا خلال الفترة التي يدعي فيها الجميع زيارتي لقريتكم منذ سنتين.. أعتقد أن هذا يؤكد لكم أنني محق تماما.. أليس كذلك؟!!.

راح يقرأ الأوراق وعلامات الاستفهام واضحة على ملامحه هو وزوجته!!!.. ثم.. سمعت أحدهم يفتح الباب.. إنها (سيلفيا) دون شك.. التفت بلهفة.. وإذا بها تنظر إلي بشوق وحنان لا حدود لهما.. آ ه يا جميلتي.. لو كنت قد أتيت إلى هنا يوما ووقعت في غرامك.. فلن أتركك أبدا.. تأكدي من ذلك!!!.

نهضت من مكاني.. وطلبت منها أن تستمع إلي قليلا!!!.. فنظرت إلي طويلا دون أن ترد.. ثم.. حسمت أمرها كما يبدو.. وأشارت بحزن كي أتبعها إلى خارج البيت حتى نتحدث بحرية.. لنخرج مباشرة متجهين إلى الحديقة الخارجية تاركين والديها في حالة استغراب بالغة بسبب الأدلة التي شاهداها بنفسيهما!!..

وفي حديقة المنزل الصغيرة.. سألتها بحنان:

- هل انتهيت من عملك؟!.

هزت رأسها نفيا وهي تقول:

- إنها ساعة الغداء فحسب.. سأعود إلى العمل بعد ذلك!!.

أومأت برأسي متفهما.. ثم قلت بتوتر ينم عن أهمية الموقف:

- عزيزتي.. لقد أتيت لوالدك بما يثبت صحة كلامي.. جواز سفري القديم مع التقرير الطبي من المستشفى في (الكويت).

نظرت إليّ بلا مبالاة.. وكأن كل هذا لا يعنيها في شيء.. يبدو أنها واثقة من أنني أكذب بصورة أو بأخرى.. فأغاظني هذا إلى حد كبير.. لأقول متوسلا:

- أرجوك أن تستمعي إلي.. أنا أشعر أنني مرتبط بك بصورة مجهولة لا أعرف كيف أصفها.. في

البداية كنت أقول لنفسي إن أي إنسان يراك.. لا بد وأن يشعر نحوك بالألفة.. وأي إنسان يتواجد في هذه القرية الجميلة.. سيشعر بذات الشعور!!.. ولكن.. أعتقد أن الأمر مختلف.. هناك اتصال نفسي غامض يربط بيني وبينك.. وبين هذه القرية أيضا!!!.. إنني لا ....

قاطعتني بغضب زادها جمالا:

- لا تقل هذا الكلام يا (عثمان).. هذه أسخف كذبة أسمعها في حياتي.. إنني لا أعرف حتى لماذا عدت إلى هنا.. ماذا تريد بالضبط؟ !!.. ألا يكفي أنك أذبت قلبي في المرة السابقة؟ !!.. هل تريد فعل هذا مرة أخرى؟ !!..

أمسكت يدها.. ورجوتها أن تأتي معي إلى الداخل حتى تتأكد بنفسها.. فتبعتني بامتعاض شديد.. وقبل أن ندخل.. فوجئت بوالدها يقف أمام الباب!!.

نظر إلي طويلا بغموض.. ثم قال:

- هناك أمر لا أفهمه.. إن ما تقوله حقيقي تماما.. كل ما لديك يثبت أنك لم تأتِ إلى هنا يوما وأن هذه هي زيارتك الأولى ل(هولندا).

نظرت إليه (سيلفيا) باستنكار واضح ثم قالت شيئا باللغة الهولندية.. شيئا يعادل على الأرجح:

- أبي.. ماذا تقول؟ !!.. هل ستصدق أكاذيبه؟!!.

لكن الأب أشار إليها أن تهدأ.. وأعطاها جواز السفر مع التقرير الطبي.. فنظرت إليهما (سيلفيا) للحظة.. قبل أن تنظر إلي بذهول شديد وعدم فهم.. ثم سألني الأب بحذر:

- هل قرأت تقريرك الطبي يا (عثمان)؟ !!..

هززت رأسي نفيا وقلت:

- إنه تقرير طويل يصف حالتي بالكامل.. لم أهتم لقراءته.. خاصة بعد خروجي من المستشفى سليما معافى!!!.

سكت طويلا.. ثم نظر إلي.. ونظر إلى ابنته.. وإلى زوجته التي لحقت به عند باب المنزل.. قبل أن يقول بعدم فهم:

- أنظر إلى تلك الفقرة من التقرير الطبي.. الحادث الذي تعرضت له ألزمك البقاء في المستشفى بالفعل.. حيث كنت في غيبوبة.. وفي حالة خطرة جدا بسبب الحادث.. يقول التقرير أنك قد تعرضت إلى (موت سريري)!!!.

سألته باستغراب:

- أعرف كل هذا يا سيدي.. ما الذي تريد قوله؟!.

قال بصبر:

- هل تعرف ما هو (الموت السريري) يا بني؟!.. إنه باختصار شديد تلف يصيب المراكز الحيوية في المخ ويجعله متوقفا عن العمل.. في حين يظل القلب والدورة الدموية يعملان.. ويستبدل حينها التنفس الطبيعي بالتنفس الصناعي.. وهو ما يبقي الميت سريريا على قيد الحياة لبعض الوقت.. حتى يتم إجراء بعض الفحوصات عليه لمعرفة ما إذا كانت الوفاة كاملة أم أنها أمر عارض ممكن أن يمر بسلام ويعود بعدها مركز التنفس للعمل مرة أخرى.

رحت أنظر إليه بعدم فهم.. قبل أن يقول وعلى وجهه علامات التفكير العميق:

- عادة ما تتراوح تلك الفترة التي يعمل فيها القلب ويتوقف فيها المخ عن العمل بين أسبوع وأسبوعين.. قبل أن يفشل بعدها القلب فشلا وظيفيا فيتوقف تماما.. وهو ما يعني في هذه الحالة وفاة المريض.. هذا ما يحدث في معظم الحالات.. ولكن.. انتبه لكلامي جيدا.. في حالات نادرة جدا يستيقظ المريض أثناء (الموت السريري) هذا وقبل حدوث الوفاة الكامل.. وهذا ما حصل معك.. أليس كذلك ([4])؟؟!.

نظرت إليه طويلا.. يا إلهي.. إنه يعيد إلي ذكرى سيئة للغاية.. فهذا ما حدث معي بالفعل.. كنت على وشك الموت منذ حوالي سنتين بسبب تعرضي لذلك الحادث المروري.. قبل أن يكتب لي الله الحياة مرة أخرى.. لكني لا أفهم ما علاقة هذا بقصتنا!!!.

نقلت له خواطري.. فقال دون أن يكترث لسؤالي:

- هناك نقطة ربما لم تنتبه إليها.. إنني ممرض متقاعد.. وأعرف الكثير عن تلك الأمور.. فتقريرك الطبي يشير إلى أمر مريب لم يلتفت إليه الأطباء أثناء فترة موتك السريري.. التقرير يشير إلى حدوث استهلاك مفاجئ لا معنى له في حمض الأدرينالين في جسدك!!.. استهلاك لا مبرر له إطلاقا!!!.. ولكن.. أخبرني أولا.. لماذا أتيت إلى هنا؟ !!.. لماذا اخترت المجيء إلى

قريتنا؟ !!.. إنها ليست مزارا سياحيا معروفا للعرب كالعاصمة (أمستردام) مثلا.

نظرت إليه بحيرة.. ثم:

- لا أعلم.. لقد وجدت تقريرا كاملا عن هذه القرية في أحد مواقع (الانترنت) منذ حوالي 4 سنوات.. ورحت أنظر إلى صور القرية الجميلة وطبيعتها الهادئة.. فوقعت في غرام المكان وتمنيت زيارته يوما.. لهذا لم أتردد في السفر إليه عندما حصلت على إجازتي.. لكن.. عندما جئت إلى هنا.. فوجئت أن الجميع يعرفونني ويعرفون اسمي.. الغريب أيضا أنني شعرت بالألفة مع المكان.. وتزايد ذلك الشعور بقوة عندما رأيت ابنتك.. مهلا.. ما الذي تريد قوله؟!!.

تنهد بقوة.. ثم نظر إلينا جميعا.. وطلب منا أن نعود إلى الداخل ونجلس لأن كلامه سيطول على حد قوله.. أنصتنا إليه ومشينا خلفه بهدوء وبصورة آلية إلى غرفة المعيشة.. واتخذ كل منا مقعدا.. ثم نظرنا إليه بلهفة شاعرين أنه يملك الجواب على هذا اللغز.. قبل أن يقول:

- أعرف أن تفسيري لا يصدق.. وسيحتاج بدوره إلى تفسير آخر لا أملكه.. لكني سأخبركم بما أظنه على كل حال.. إن قصتك بالغة الغرابة بالفعل يا (عثمان).. وأنا في واقع الأمر لا أجد لها سوى تفسيرا واحدا فقط!!!.

نظر إلينا مترددا وكأنه يخشى أن يقول ما لديه.. ثم.. حسم أمره عندما أردف بجدية:

- لقد كنت يا (عثمان) موجودا في قريتنا بالفعل.. أثناء وجودك في (المستشفى) في (الكويت)!!!!!!!.

نظرنا إلى بعضنا بعضاً.. ونظرت أنا إليه وكنت على وشك الصراخ قائلا:

- (بشرفك).. هل أنت سكران؟!.

لكني لم أقل هذا بالطبع احتراما لسنه.. أما زوجته.. وابنته (سيلفيا).. فقد نظرتا إليه بعدم فهم.. وقالت ابنته بسخرية مريرة:

- ما الذي تحاول قوله يا أبي؟ !!.. هل تقول أن (عثمان) قد تواجد في مكانين في آن واحد؟؟!!.. كيف بالله عليك يحدث هذا؟ !!..

ابتسم لكلام ابنته.. ثم قال:

- صدقوني.. الأمر لا يقل غرابة بالنسبة لي.. ويأبى عقلي أن يصدقه أيضا.. لكننا لا نملك تفسيرا سوى هذا!!!.. هل تعرف يا (عثمان) لماذا استهلك جسدك الأدرينالين بصورة مرتفعة أثناء موتك السريري؟ !!.. لأنك أثناء ذلك.. كنت هنا معنا؟!!.

سألته بحدة لا تتناسب أبدا مع فارق السن بيننا:

- كيف يا رجل؟ !!.. استهلاكي الزائد لـ(الأدرينالين) كما تقول لم يستغرق سوى لحظات قليلة.. بينما تقولون أنني بقيت في هذه القرية قرابة الشهر.. ثم كيف أكون موجودا في مكانين بنفس الوقت؟!!.

رد ببساطة:

- بضع دقائق.. بضعة شهور.. من يعرف ما هو الوقت؟ ؟!.. ومن يعرف نسبية الوقت يا بني؟ !!.. نحن نحلم أثناء نومنا وتمر بنا أحداث لا حصر لها في أحلامنا.. رغم أن الزمن الفعلي لتلك الأحلام لا يستغرق سوى بضع ثوان.. ثم إن الكثيرين من الذين نجوا من موت محقق قالوا إنهم رأوا حياتهم بأكملها أمامهم في لحظات قليلة.. وهذا يؤكد أنه لا وجود للزمن في العقل الباطن.. العقل الباطن لديه كل الوقت.. فتستطيع من خلاله أن تعيش دهورا تساوي لحظات قليلة في عالمنا!!!.

راح ينظر إلى السقف وكأنه يريد أن يتذكر شيئا.. ثم:

- إن قصتك شبيهة إلى حد كبير بقصة ذلك الجندي الفلبيني الذي ظهر فجأة في (المكسيك) عام 1593م !!.. لقد قرأت عن تلك الحادثة في أكثر من كتاب.. كان هذا عندما تم القبض على شخص أثار ريبة الناس في (مكسيكو سيتي).. حيث كان يرتدي زيا عسكريا غريبا.. ويحمل سلاحا غير مستخدم في هذه المدينة.. لذا فقد تم تحويله إلى التحقيق.. وقد بدا الرجل مذهولا ومرتبكا تماما.. بل وأخبر رجال الشرطة أنه لا يعرف لماذا هو هنا أصلا!!!.. فقد خرج للتو من قصر الحاكم في (مانيلا) عاصمة (الفلبين) وأن عليه أن يؤدي واجبه العسكري في مواجهة الاضطرابات التي صاحبت مقتل الحاكم ليلة أمس.. وفجأة وجد نفسه في هذا المكان.. وهنا بدت علامات الدهشة على وجه شرطة (مكسيكيو سيتي).. فـ(مانيلا) تبعد عن (المكسيك) بمسافة كبيرة جدا كما نعرف جميعا!!.. ومن المستحيل أن يكون هذا الرجل صادقا.. خصوصا وأنه لم تصل أي أخبار عن مقتل حاكم (الفلبين).. لذا فقد أُلقي الجندي في السجن بتهمة التجسس دون الاستماع إلى توسلاته!!.

راح ينظر إلينا.. وقد شعر أن كلامه استحوذ تماما على اهتمامنا.. قبل أن يكمل:

- وبعد حوالي شهرين من تلك الحادثة.. وصلت سفينة إلى (مكسيكيو سيتي) قادمة من (مانيلا) لتبلغهم بنبأ وفاة الحاكم في نفس الليلة التي ذكرها ذلك الجندي.. وقد كان الخبر بمثابة الصدمة!!.. فالأخبار في تلك الفترة من الزمان كانت تصل ببطء شديد كما تعلمون.. ولم تكن وسائل النقل والاتصال كما هي عليه الآن.. ومن المستحيل تماما أن يكون هذا الجندي قد علم بنبأ وفاة الحاكم في نفس اليوم.. لذا أُفرج عنه دون أن يعرف أحد أي تفسير لهذه الحادثة

العجيبة ([5]).. وهناك قصص أخرى شبيهة.. إلا أن هذه القصة هي الأشهر على الإطلاق.

ساد المكان هدوء شديد بعد هذا الكلام.. قبل أن أسأل الأب بعدم فهم:

- تريد أن تقول إن ظهوري المفاجئ هنا قبل سنتين شبيه بحادثة ذلك الجندي؟!.

أومأ برأسه إيجابا قبل أن يقول وهو يفكر بعمق:

- نعم يا بني.. فهذا احتمال لا يمكن إهماله.. وهو يفسر ما حدث إلى حد كبير لذلك الجندي المسكين.. وهذا يجعلنا نتساءل أيضا.. فعندما ظهر ذلك الجندي في (المكسيك).. هل كان ميتا سريريا في بلده كما حدث معك؟ ؟!.. هل الذين يموتون سريريا تظهر أشباحهم في مكان آخر مثلا؟ ؟!.. أعرف أن الجندي ادّعى أنه كان يحاول مواجهة الاضطرابات التي صاحبت موت الحاكم.. لكن.. هل ما قاله صحيحا؟!.. ربما هو نفسه لم يكن يعلم أنه قد تعرض إلى إصابة بالغة أثناء الاضطرابات أفقدته وعيه فجأة.. وتعرض بسببها إلى موت سريري لمدة محددة.. قبل أن يصل على الأرجح لحالة الوفاة الكاملة بسبب عدم وجود تقنيات طبية كالتي نمتلكها في زمننا الحالي.. إذ لا أحد يعرف ما حدث لذلك الجندي بعد أن أفرجت عنه السلطات في (المكسيك)!!!. إنه تفسير غريب للغاية.. لكنه أقرب التفسيرات لما حدث معك!!!.

قلت مصدوما:

- يا إلهي.. إنه تفسير منطقي للغاية رغم غرابته.. ولكن كيف؟ !!.. كيف أتعرض لموت سريري في بلدي.. وأظهر هنا سليما معافى؟!.. كيف يحدث هذا؟ !!.. ثم.. هل كان هناك موت سريري في تلك الحقبة من الزمن التي عاشها ذلك الجندي أصلا؟!.

هز الأب رأسه باستغراب وهو يقول:

- بالنسبة لسؤالك الأول فأعتقد أن هناك جزءا من نفسيتك تصرف بشكل مستقل عنك.. ولو تجردنا قليلا من ما نعرفه.. نستطيع أن نقول إننا قد اكتشفنا للتو أن الأشباح ليست فقط تجسيدا للموتى كما يظن الكثيرون.. بل تجسيدا للميتين سريريا أيضا!!!.. وأن تفسير قضية الجندي الفلبيني وظهوره المفاجئ الذي شغل العلماء طويلا ليس سوى أنه شبح لرجل ميت سريريا.. المشكلة أن النسبة الأكبر من الميتين سريريا لا يعودون إلى الحياة.. لذا فيظل موضوع ظهورهم الغامض في أماكن مختلفة من العالم لغزا لم نكن نعرف له إجابة سوى الآن!!.. إننا نرى الناس في الشوارع المزدحمة كل يوم.. فهل سنعرف إن كان أحد منهم شبح لشخص ميت سريريا مثلا؟!.. بالتأكيد لا!!.. إنهم أشباح ظاهرهم بشري تماما ومن الممكن أن يخدعنا جميعا.. أما بخصوص سؤالك الثاني.. فلا أعلم إجابته.. ربما عثروا على وسيلة لإبقاء الموتى سريريا على قيد الحياة في ذلك الزمن ولكن لوقت قصير لا يتجاوز بضع دقائق.. وأرجو أن تتذكر مرة أخرى أن الزمن يختلف من مكان لآخر.. فوجود ذلك الجندي في السجون المكسيكية لمدة شهرين لا يعني أنه كان ميتا سريريا طوال تلك المدة.

انتهى من حديثه.. لكن ذهولنا لم ينتهِ!!.. و.. مهلا.. تذكرت شيئا هاما:

- ولكن.. هناك تناقض واضح.. أنت تقول إن الجندي الفلبيني قد بدا تائها حائرا عندما قبضوا عليه.. أما أنا فكنت سعيدا بينكم أعرف طريقي جيدا في القرية كما تقولون جميعا.. لماذا؟!.

رد باهتمام:

- لأنه وجد نفسه في مكان لا يعرفه ولم يره في حياته.. أما أنت فتقول إنك كنت مغرما بقريتنا هذه.. وإنك قرأت عنها الكثير وشاهدت الكثير من صورها من خلال الانترنت.. لذا فقد بدت لك مألوفة عند ظهورك فيها ولم تشعرك بالارتباك.. ولا أنسى أن أخبرك أن بعض الأشباح لها كيان مادي ملموس كما تقول بعض المراجع.. أتذكر جيدا أنني صافحتك أكثر من مرة أثناء وجودك هنا منذ عامين ولم أشعر بأي شيء غير عادي.. وكذلك فعلت ابنتي وزوجتي والعديد من سكان القرية دون أن يلحظوا شيئا مريبا بدورهم.

ساد المكان صمت مبهم لفترة طويلة.. قبل أن أقول بعين ذاهلة وبصوت يشوبه بعض الاستنكار:

- لقد وجدت تفسيرك منطقيا في البداية.. لكن.. يبقى هذا كلام عائم لا ذيل له ولا رأس.. بكم أبيع تلك الكلمات ومن أي مصرف أستبدلها؟!.. وأرجوك المعذرة.. لكن هذا الكلام يحمل شيئا من السخف أيضا.. أكون ميتا سريريا في بلدي.. ويظهر شبحي هنا!!.. إنها نظرية غريبة وغير معقولة!!!.

قال الأب بثبات:

- قبل نظرية العالم العظيم (آينشتين).. كنا على ثقة تامة أننا نعيش في عالم ذي ثلاثة أبعاد فقط.. الطول والعرض والارتفاع.. والآن نحن على ثقة تامة أننا كنا حمقى.. وأن هناك بعداً رابعاً وهو الزمن!!!.. من يدري ما الذي سيكتشفه العلم في المستقبل يا عزيزي.. من يدري؟!.. ثم.. هل لديك تفسير آخر سوى أن شبحك قد ظهر في قريتنا أثناء موتك السريري؟!.. يقول العلم إن كل شيء في عالمنا مكوّن من ذرات تتحرك بسرعة محددة.. حتى لوحة التحكم في جهاز الكمبيوتر تتكون من ذرات تتحرك بسرعة فائقة ([6]).. فما الذي نعرفه عن حقيقة عالمنا؟ !!.. ربما كنت ميتا سريريا في المستشفى يا (عثمان).. في حين أن ذرات وعيك انتقلت إلى مكان آخر.. هل هناك ذرات للوعي أيضا؟ !!.. من يدري؟!.

نظرت إلى أبعاد أخرى وأنا أفكر.. واحترم الجميع صمتي.. قبل أن أقول باستسلام واضح يشوبه الذهول:

- كلامك يا سيدي يحتاج إلى تفسير آخر.. أشعر أنك لم تعطنا إجابة كاملة!!.

قال بغموض:

- كما ترى.. إنه أمر روحاني لا أجد له تفسيرا.. وما قلته لك هو كل ما أعرف!!!.

قالت (سيلفيا) بهدوء مهيب وقد صدقت والدها تماما واقتنعت بكلامه:

- لطالما تساءلت دون أن أعرف الإجابة: هل الشخص الواقع في غيبوبة موجود داخل نفسه؟ ؟!.. هل يدرك ذاته.. هل يعرف أنه هو؟ ؟!.. سؤال غريب لكنه يمر في ذهني بين الحين والآخر.. فما الذي يجعلني (أنا)؟!.. بل وأين أذهب (أنا) أثناء الغيبوبة أو الموت السريري ([7])؟؟!.

نظر إليها الأب مبتسما دون تعليق.. أما أنا فقد شدني كلامها كثيرا وأثار اهتمامي.. لكني أيضا لم أملك ردا عليه.

و.. انتهى الكلام أخيرا.. وظللنا صامتين منبهرين بكلام الأب.. ثم اختلست النظر أثناء ذلك إلى

(سيلفيا).. فوجدتها تنظر إلي بدورها بحنان.. وحب.. أما أنا فشعرت بتدفق ذلك التيار في جسدي.. تيار الحب!!!.. شعرت أن ما بيننا هو رابط قوي جدا.. رابط يفوق الماديات!!.. وأن حياتي كلها مرتبطة بهذا المكان.. وأنني لا أستطيع الحياة بدون (سيلفيا).. آه.. تذكرت شيئا:

- عزيزتي.. ألا يجب أن تعودي إلى عملك؟!!

ردت بحنان:

- لا أريد.. أريد أن أبقى معك.. سأتصل بالمدير وأعتذر عن حضوري بقية اليوم.

ابتسمت ممتنا.. إنني.. إنني أتخذ قرارا مصيريا.. قرارا خطيرا بارتباطي بفتاة لا أعرف عنها شيئا.. وأعرف عنها كل شيء بنفس الوقت!!!.. أشعر أنني مقتنع تماما الآن بكلام الأب.. يا إلهي.. قبل عاصفة وصولي إلى القرية كان الهدوء.. و بعد العاصفة.. عاد الهدوء أيضا!!!.. ماذا سأفعل الآن؟ !!.. لا أعلم.. لقد مررت بقصة مذهلة لم أكن لأصدق أنني سأمر بها يوما.. قصة تتحدى المنطق!!.

المهم الآن.. يجب أن.. يجب أن أرتبط ب(سيلفيا).. لا شك في ذلك.. سأتزوجها.. أعترف أن هناك اختلافا هائلا في الثقافات بيننا.. لكننا نتكلم بلغة واحدة وهذا هو المهم.. لغة الحب!!!.

ماذا عن عملي؟ !!.. ماذا عن والدتي وأشقائي؟ !!.. لا أعلم أيضا.. لكن سأجد حلا لكل هذا.. إنني لن أخبرهم بتفاصيل تلك القصة.. لأن أحدا لن يصدقني.. لكني سأتمكن من إقناعهم بزواجي.. لن تكون هذه مشكلة.. لن يقف أحد في طريق سعادتي.

أقول هذا الكلام.. وأنا أنظر إلى (سيلفيا).. وأنظر حولي.. ولا أصدق أنني تعرضت لتجربة كهذه.. تجربة جعلتني مرتبطا بقوة بهذه القرية الساحرة.. ربما سأترك عملي وآتي إلى هنا لأبحث عن وظيفة.. إنني أمتلك كل المؤهلات اللازمة للحصول على وظيفة محترمة.. لن أبتعد عن حبيبتي بعد الآن.. لن أتركها أبدا.

ولو فكرتم يوما بزيارة تلك القرية الصغيرة.. وسألتم عن شخص يحمل اسمي.. فسيعرفني الجميع دون شك.. لأنني زرتهم هناك يوما.. انتقلت إليهم بصورة مجهولة أثناء موتي السريري.. وعشت مع ابنتهم قصة حب رائعة ستنتهي بالزواج.. رغم كل الأسئلة التي ظلت معلقة حتى الآن دون جواب.. ورغم كل هذه الألغاز!!.

ليلة لا تصدق

ما زلت أنظر حولي بعينين زائغتين وقلب يرتجف بعنف من هول الأحداث التي مررت بها في الساعات القليلة الماضية.. هل يعقل أن تصل الصدف إلى هذا الحد الخارق من الغرابة؟ !!.. أرجوكم أن تقرؤوا قصتي.. وأعدكم أن أحداثها ستفاجئكم وتسبب لكم صدمات متلاحقة.. إنها واحدة من القصص التي تصلح لتحويلها إلى فيلم سينمائي من شدة غرابتها.

لقد بدأ كل شيء قبل ساعات قليلة من الآن فحسب.. عندما سمعت طرقا هادئا على باب شقتي.. نظرت من ثقب الباب لأرى وجها غير مألوف.. رجل حليق الوجه هادئ الملامح لم أره في حياتي.. سألته عن هويته.. ليرد بصوت هادئ من خلف الباب ويخبرني بشيء من الحماس أنه مندوب من إحدى الشركات ويريد أن يعرض علي صفقة مغرية جدا لن أندم عليها أبدا!!!.

مططت شفتي امتعاضا.. فقد اعتدت هذه الصفقات والكلمات الرنانة التي يتضح في النهاية أنك لن تربح شيئا من ورائها.. إذ تعرض عليك تلك الشركات عادة كوبونات مجانية وبخصومات جيدة.. مقابل أن تدفع مبلغا معينا من المال.. وبالطبع لن تستخدم أي من هذه الكوبونات وستنساها في دولابك إلى أن تنتهي مدتها.. لذا أخبرت الرجل من خلف الباب أنني لا أريد صفقات من أي نوع.. وطلبت منه بأدب أن يرحل.

لكنه لم يكتفِ برفضي.. بل راح يرجوني ويتوسل إليّ أن أمنحه الفرصة وأن أستمع إليه وهو يقسم إن صفقته مختلفة تماما عن أي شيء أتوقعه!!!.. و.. أثار غيظي عناده الشديد هذا.. ففتحت له الباب بحدة لأخبره وجها لوجه أنني لا أريد أي صفقات من أي نوع وأن عليه أن يرحل الآن.. لكن.. ما أن فتحت الباب.. حتى فوجئت بالحماس وقد دب بالرجل فجأة.. إذ دفعني بكل قوته إلى داخل الشقة مما تسبب في سقوطي بقوة على الأرض!!!.. ثم دخل بدوره وأغلق الباب خلفه بلمح البصر.. ليخرج بعدها مسدسا من جيبه ويوجهه ناحيتي.. هكذا بكل بساطة!!.

وقبل أن أستوعب ما يحدث حولي.. قال بقسوة واضحة وبكلمات سريعة:

- هل يوجد هنا أحد غيرك؟ ؟!.. أخبرني وإلا سأقتلك.. أقسم لك إنني سأفعلها بدم بارد.. لقد قتلت سابقا ولن يمنعني شيء من القتل مرة أخرى!!.

شهقت من فرط الخوف وقوة المفاجأة.. ثم رددت عليه متلعثما وأنا ألوح بيدي:

- نعم.. نعم.. إن.. إن.. إن زوجتي موجودة في غرفة النوم!!!.

أمسكني من ثيابي وأمرني بالنهوض وفوهة مسدسه ما زالت مصوبة تماما إلى رأسي.. ثم دفعني بقوة لأتقدم طريقه وآخذه إلى الغرفة حيث زوجتي التي تجمدت تماما من شدة الخوف وهي ترى رجلا غريبا يهددنا بالقتل دون أن تفهم شيئا مما يدور حولها.. و:

- اسمعي أيتها اللعينة.. لو نطقت بحرف فستموتين مع زوجك.

انعقد لسانها تماما لهذه المفاجأة.. ونظرت إلي برعب هائل وكأنها تطلب مني توضيحا لما يحدث.. فغمغمت بخوف ودهشة:

- لا أعرف يا (سهام).. لقد اقتحم الشقة فجأة.. و ....

لم أكمل عبارتي.. بل صفعني الرجل بقوة وهو يقول:

- اخرس.. لم أطلب منك أن تشرح لها ما يحدث.

خرست تماما بالفعل وقد شعرت بإهانة لم أشعر بها في حياتي بعد أن توهج خدي الأيمن بالدماء من قوة الصفعة.. فسألني سريعا:

- هل يوجد أحد غيركما في الشقة؟!.. هل لديكما خادمة؟!!.

قلت باستسلام وبوجه محتقن:

- لا توجد لدينا خادمة.. نحن حديثي الزواج.. لم يمر على زواجنا سوى بضعة شهور.

أومأ برأسه مفكرا.. ثم قال بصرامة:

- لقد هربت من السجن للتو.. فهناك حكم بالإعدام ينتظرني بعد حوالي أسبوع من الآن.. لكن الشرطة تطاردني وتبحث عني في كل مكان في المنطقة.. لذا سأختبئ في هذه الشقة بضعة أيام إلى أن تهدأ عملية البحث!!!.

قلت بذعر واضح:

- هل تمزح؟ !!.. إن لدينا التزامات كثيرة في حياتنا.. لدي عمل يجب أن أذهب إليه غدا.. زوجتي أيضا موظفة.. لا شك أنك تعلم جيدا أن الشرطة تبحث عنك في محيط هذه المنطقة كما قلت بنفسك.. وسيثير شكوكهم أمر تغيبنا عن العمل.. أمور كهذه لا تخفى على رجال الشرطة.. سيبحثون في قائمة سكان جميع العمارات المحيطة بالمنطقة وعن أي شيء غير عادي.. كتغيّب رجل وزوجته عن العمل في نفس اليوم مثلا.. حينها سيعلمون أننا رهائن عندك.

لا أعرف كيف واتتني الجرأة لأقول كل هذا.. لكني أخبرته بالحقيقة كاملة كي يعرف وضعه جيدا وأن لا جدوى من الاختباء في شقتي.. وقد كنت محقا في كلامي دون شك.. لكنه سكت قليلا.. وأردف رغم ذلك بعناد:

- لم أطلب رأيك.. ستفعلان ما أمرتكما به.. ستتصل غدا بمقر عملك وتخبرهم أنك مريض وتحتاج إلى إجازة مرضية.. وستفعل زوجتك الأمر ذاته.. ستجريان الاتصالين أمامي.. وحذارِ من أي رسالة استغاثة توجهانها عبر الهاتف.. لا تنسَ أن هناك حكما بالإعدام ينتظرني.. ولن يضرني كثيرا ارتكاب جريمة قتل أخرى!!.

تراجعنا لا شعوريا مع كلمات التهديد والوعيد حتى التصقنا تماما بالحائط.. لكنه أمرنا أن نمشي أمامه ليستكشف الشقة على حد قوله.. دقائق قليلة قبل أن يقرر فجأة أننا سننام في الغرفة المخصصة لخادمة المستقبل - إن صح التعبير - كونها لا تحوي أي نوافذ.. لكنه لن يسمح لنا بالنوم قبل أن نعد له وجبة العشاء.. هكذا بكل حقارة!!!.

ثم:

- سأنام بجانب باب غرفة الخادمة بعد أن أقفلها عليكما بالمفتاح!!.. وأنا أحذركما للمرة الأخيرة.. سأنام بعين نصف مغمضة.. فلا تحاولا لعب دور البطولة.. فقط أتركاني أختبئ هنا من دون مشاكل.. وسأرحل من دون مشاكل أيضا بعد أيام قليلة من الآن.

لم يكن هناك بدا من الانصياع لأوامره.. فذهبنا إلى المطبخ ورحت أساعد (سهام) في إعداد

وجبة عشاء خفيفة لهذا الوغد ونحن ننظر إلى بعضنا في قلق حقيقي.. ما هذه الصدفة اللعينة؟ !!.. إن هروب أحد المساجين واقتحامه لإحدى الشقق لهو أمر نادر الحدوث في (الكويت).. فلماذا اختار شقتي تحديدا؟ !!.. لماذا لم يقتحم شقة مليئة بالسكان مثلا حتى يوسعه أصحابها ضربا ويقوموا بتسليمه إلى الشرطة؟؟!!.. ربما فعل هذا متعمدا بعد أن مر بجانب جميع الشقق ليسترق السمع ووجد أن شقتي هي الأكثر هدوءاً.. مما يعني أنها الأقل سكانا.. أقول ربما.

أعددنا له وجبة عشاء سريعة راح يتناولها بنهم بعد أن أجبرنا على الجلوس في زاوية الصالة وبوضع لا يسمح لنا بالنهوض السريع حتى لا نفاجئه بأي تصرف..

دقائق قليلة حتى انتهى من وجبته ونظر إلى الساعة المعلقة على الحائط والتي تشير إلى ما قبل العاشرة بقليل.. ثم تجشأ باشمئزاز ليقول:

- اذهبا إلى غرفة الخادمة.. ولكن يجب أن أقوم بتفتيشكما أولا.. علي أن أتأكد أنكما لم تخفيا شيئا في ثيابكما أثناء وجودكما في المطبخ.. سكين مثلا أو ما شابه.

ردت (سهام) ببغض:

- لن تلمسني أبدا حتى لو اضطررت إلى قتلي.

شعرت بتوتر شديد خوفا من أن يستفزه كلامها.. لكنه ضحك وقال بسخرية:

- زوجتك أشجع منك يا رجل.. اسمك (سهام) يا صغيرتي.. أليس كذلك؟!.

قلت دون أن أكترث لعبارة الغزل الواضحة في كلامه:

- نعم.. إن زوجتي إنسانة رائعة بالفعل.. وهي أشجع مني.. لكني رغم ذلك أؤكد لك كلامها أيضا.. فلو لمستها.. لن يهمني كثيرا أن أموت بعدها.. سأهجم عليك وأمنعك بنفسي.

نظر إلينا باستهتار وكأن كلامي لا يعني له شيئا.. ثم طلب مني أن أقوم بتفتيش (سهام) أمامه.. فرحت أفتشها بينما ظل هو يراقب يدي جيدا حتى يتأكد أنها لا تمر على أي انبعاج قد يسببه وجود سكين مثلا أو هاتفا نقالا في مكان مخبأ من ثيابها.. وقام بعدها بتفتيشي جيدا.. ليأمرنا أخيرا أن نذهب إلى الغرفة دون أن ينسى تحذيرنا للمرة العاشرة من أي تصرف أحمق على حد قوله.

رحنا بعدها نسير متجهين إلى الغرفة.. وهو يسير إلى جانبي وفوهة المسدس ما زالت موجهة إلى رأسي.. قبل أن أشعر فجأة أن اللحظة قد حانت.. لحظة سريعة لا تتجاوز جزءا من الثانية أحسست فيها أنني قادر على مفاجأته والانقضاض عليه بعد أن لمحته وهو يلتفت.. و.. لا أعرف كيف فعلتها بهذه السرعة ودون تفكير.. إذ أمسكت بيده فجأة.. وعضضتها بكل قوتي حتى شعرت أنني سأقتطع جزءا منها.. فصرخ بألم شديد وأطلق شتيمة بذيئة للغاية.. لكنه ظل ممسكا بالمسدس رغم ذلك.. لألتحم معه في صراع عنيف.. ورحت أمسك بيده الممسكة بالمسدس من جهة.. وأحاول ضربه بيدي اليسرى بكل قوتي.. كان واضحا أننا متكافئان تقريبا.. لذا ظللنا ملتحمين لفترة بدت لي طويلة و.. أثناء التحامنا العنيف.. ضغط إصبعه على زناد المسدس.. وأطلق رصاصة ليدوي صداها عاليا جدا في الشقة!!!!.

عندها فقط ركلته بركبتي بكل قوتي في منطقة حساسة جدا.. لتخور قواه فجأة.. وأقوم بعدها بضرب أنفه برأسي وبكل قوتي أيضا.. مرة.. مرتين.. فتفجرت منه الدماء وخارت قواه تماماً ليقع

مغشيا عليه.

أمسكت بالمسدس.. وابتعدت عن المجرم قليلا.. لأنهار بعدها تماما.. وأستلقي على الأرض وأنا ألهث وأعب الهواء في جوفي شاعرا أن نبضات قلبي حققت رقما قياسيا بعدد الدقات بسبب الجهد البدني والنفسي الهائل الذي بذلته.

لم يطل الأمر كثيرا.. نصف ساعة أو ربما أقل.. قبل أن أسمع طرقا عنيفا على باب شقتي.. رحت أزحف من شدة الإرهاق وبسبب الدوار الذي أصاب رأسي جراء قوة الضربات التي وجهتها إلى أنفه.. ثم وقفت بصعوبة وفتحت الباب دون أن أسأل عن هوية الطارق.. وإذا بمجموعة من رجال الشرطة.. حيث قال أحدهم بصرامة:

- لقد اتصل الجيران وأخبرونا بسماعهم لصوت إطلاق نار وصراخ وشجار.. وقد كنا قريبين من شقتك فأتينا مسرعين.. ربما يكون الأمر متعلقا بذلك المجرم الهارب.. أليس كذلك؟؟!.

كان سؤاله سخيفا دون شك.. فالمشهد بدا واضحا لا يحتاج إلى سؤال.. إذ كنت أبدو منهكا متعبا وأجزاء من ثيابي ممزقة والعرق يتصبب من جسدي.. دعكم من أن وجهي قد أصيب ببعض الخدوش بسبب الشجار العنيف.. لكني رغم كل شيء قلت بتهالك وبعينين دامعتين:

- نعم.. ذلك المجرم.. اللعين.. إنه هنا مغشيا عليه.. لقد تشاجرت معه وتغلبت عليه بصعوبة.. لكنه أطلق رصاصتين طائشتين أثناء شجارنا أصابت إحداهما زوجتي.. لقد قتل زوجتي!!!.

دخل رجال الشرطة بسرعة وقام أحدهم بتكبيل المجرم الذي كان ما زال فاقدا وعيه.. وقد تعرفاه مباشرة كونه هاربا من السجن وتم تعميم أوصافه على كل دوريات الشرطة دون شك.. ثم راح أحدهم يفحص (سهام) وأنا أتحدث بحزن شديد وأصف لهم شجاري مع المجرم.. لكن الشرطي هز رأسه بأسف وهو يقول:

- لقد توفيت المسكينة!!!.. أصابتها الطلقة في رأسها أثناء شجارك معه.. لقد كاد أن يقتلك أنت أيضا كما يبدو.. لكن لحسن حظك أنك تغلبت عليه.. تقبل تعازينا الحارة يا رجل.

وضع يده على كتفي مشجعا.. ثم راح يبلغ غرفة العمليات على ما يبدو لجلب سيارة الإسعاف ورجال الطب الجنائي.. إلخ.. أما أنا فقد وقعت أرضا ورحت أبكي من هول الموقف.. قبل أن يستيقظ المجرم أخيرا ليستوعب أنه مقيد وقد انتهى أمره تماما.. لكني لم أكتفِ بذلك.. إذ هجمت عليه محاولا ضربه مرة أخرى وأنا أصرخ بغضب وأشتمه بأقذر الشتائم.. لكن رجال الشرطة أمسكوا بي ومنعوني من الوصول إليه وسط اعتراضي.

راح المجرم ينظر بذهول إلى ما حدث ورأى جثة زوجتي مرمية على الأرض.. فتسائل باستغراب:

- ماذا حدث؟!.

رد رجل الشرطة بغيظ:

- أيها اللعين.. لقد أصبت زوجة صاحب الشقة برصاصة طائشة أثناء شجارك معه وقتلتها.

قال وهو يعض على شفتيه قهرا:

- لم أكن أقصد قتلها.. لقد خرجت الرصاصة بالخطأ أثناء شجاري مع زوجها!!.

أجابه رجل الشرطة بتهكم:

- تقتحم شقتهما وتقوم بتهديدهما بالسلاح ثم تقول إنك لم تقصد قتل زوجته؟ ؟!.. حتى وإن كان كلامك صحيحا.. لا تنسَ حكم الإعدام الذي ينتظرك بسبب جريمتك السابقة.. مصيرك هو حبل المشنقة.. لا يوجد لك أي مخرج.

سكت بغيظ.. فمرت لحظات قليلة من الصمت وصل فيها رجال الإسعاف ورجال المعمل الجنائي.. قبل أن يتم إخراج المجرم من الشقة.. لكنه.. لكنه.. لكنه راح ينظر إلى جثة زوجتي باستغراب.. قبل أن يقول:

- مهلا.. هذه ليست زوجة صاحب الشقة!!!!!.. هذه امرأة أخرى لم أرها في حياتي.. فعندما اقتحمت الشقة.. كانت معه امرأة أخرى ادعى أنها زوجته وقال إن اسمها (سهام).. هذه الجثة ليست جثة زوجته!!!!!.

نظر رجال الشرطة إليه باستهتار دون أن يكترث أحد لما يقوله.. فأخرجوه من الشقة وهو يقسم إن هذه الجثة ليست جثة المرأة التي وجدها معي عندما اقتحم الشقة!!!.. بالطبع تجاهلوه مرة أخرى ولم يستمعوا إليه على اعتبار أنه مجرم هارب ينتظره حكم بالإعدام وهو يكذب محاولا التمسك بحبل الهواء.. تماما كما يفعل الغريق.

مضت ساعتان تقريبا أخذ فيها رجال الطب الجنائي كل الأدلة التي يريدونها وأخذوا جثة زوجتي.. وخرجوا جميعا تاركين رجلا يبكي دما على زوجته.. وهو أنا بطبيعة الحال!!.. أو.. هذا ما ظنه الجميع.. لكن القصة ليست هكذا.. ليست هكذا على الإطلاق!!!!!.. أعلم أنكم أُصبتم ببعض الارتباك جراء الأحداث الأخيرة والأقوال المتضاربة.. والواقع أن معكم كامل الحق في هذا.. فهناك تفاصيل أخرى حدثت في الخفاء ويجب اطلاعكم عليها.. لقد كذبت على المجرم في أكثر من أمر.. وكذبت على رجال الشرطة أيضا!!!.. وحتى أشرح لكم أسرار هذه القصة.. يجب أن أعود إلى الماضي قليلا.. وإلى ما قبل حادثة اقتحام المجرم لشقتي.

لقد بدأت القصة منذ حوالي سنة بعلاقة حب بيني وبين صديقة زوجتي.. واستمرت علاقتنا السرية دون أن يعرف أحد عنها شيئا.. كنا نحب بعضنا بجنون.. نعشق بعضنا بصورة جعلتني أشعر أن حياتي لا يمكن أن تستمر دونها.. وقد فكرت في كل الحلول الممكنة للتخلص من زوجتي والارتباط بحبيبتي.. خاصة بعد استمرار الخلافات بيني وبين زوجتي طوال 4 سنوات هي عمر زواجنا.. حيث عرفت خلالها أنه لا يوجد بيننا أي توافق من أي نوع.. وقد كذبت على المجرم في بداية القصة حين أخبرته أنني حديث الزواج.

المهم أنني كنت عاجزا عن طلاق زوجتي.. فهناك مؤخر ضخم لن أتمكن من سداده في حالة

الطلاق.. لذا توصلت مع حبيبتي إلى اتفاق مخيف.. أن نتعاون معا لنقتل زوجتي!!!.. نعم.. قلتها في بادئ الأمر كمزحة أثناء حديثي معها عبر الهاتف.. وتحولت هذه المزحة مع مرور الأيام إلى فكرة.. وإلى تخطيط.. ثم التنفيذ أخيرا!!!.. فقد وضعنا خطة مدروسة بعناية بالغة تعتمد على زيارة حبيبتي لنا في شقتنا وهو أمر معتاد كونها صديقة زوجتي كما علمتم.. على أن أكون خارج الشقة حينها.

وبعد أن تقدم لها زوجتي واجبات الضيافة من مأكولات ومشروبات.. ستطلب حبيبتي شيئا من المطبخ.. كحبة بندول مثلا أو أي شيء آخر.. وما إن تذهب زوجتي إلى المطبخ لتلبية الطلب.. ستقوم حبيبتي بوضع نوع محدد من السموم في كوب العصير الخاص بزوجتي.. وهو نوع غير معروف من السموم دفعنا مبلغا كبيرا للحصول عليه.. ومن الممكن أن يخدع رجال الطب

الجنائي في (الكويت).. إذ يجعل من يتناوله يصاب بهبوط حاد في القلب ويتسبب بالوفاة.. ولا أنسى أن أخبركم أيضا أننا تعمدنا تنفيذ هذه الخطة أثناء وجود الخادمة في بلدها في فترة إجازتها.. حتى ننتهي من كل شيء دون وجود شهود.

وقد نجحت الخطة تماما.. فعندما تناولت زوجتي السم ولفظت أنفاسها الأخيرة.. اتصلت بي حبيبتي تبلغني بالخبر.. لأعود بعدها مسرعا إلى الشقة.. ثم قمنا بحمل جثة زوجتي ووضعها في فراشها تحت اللحاف.. لنذهب بعدها للتأكد من إزالة كل ما يثير الشبهات.. كاستبدال كوب العصير المسموم بكوب آخر وضعنا عليه بصمات زوجتي وتركنا شفاهها تلمس أطرافه.. لترحل حبيبتي أخيرا بعد تجهيز المكان حتى يبدو كل ما حدث مجرد حادث عرضي وسكتة قلبية مفاجئة.

على أن أتصل بالشرطة صباح الغد لأخبرهم أني حاولت إيقاظ زوجتي لكنها لا تتحرك ولا تستجيب وقد توقف نبضها تماما.. وسيتطلب الأمر تمثيلا متقنا فيما بعد.. إذ سأتوسل إليهم أن يرسلوا سيارة إسعاف بأسرع وقت ممكن.. وسأتصل بأهل زوجتي لأخبرهم بما حدث.. مع بكاء ونحيب وانهيار نفسي.. على أن أنتظر بعد ذلك لفترة من الزمن إلى أن تهدأ الأمور وأطمئن تماما لابتعادي عن الشبهات.. لأتقدم إلى صديقة زوجتي وأطلب يدها للزواج.

كان كل شيء يسير تماما كما خططنا له.. ولكن.. بعد أن انتهينا من إزالة كل أثر لجريمتنا.. وبعد أن استعدت حبيبتي للعودة إلى بيتها.. فوجئنا بأحدهم يطرق باب شقتي.. بالطبع أصابنا هذا بارتباك شديد.. فقمت سريعا بإخفاء جثة زوجتي تحت السرير في غرفة النوم.. وطلبت من حبيبتي أن تختبئ بدورها في الغرفة.. فعلت هذا خوفا من أن يكون الزائر أحد أقاربنا وسيكون مريبا حينها أن يجد زوجتي نائمة كما ستبدو له وصديقتها الزائرة في شقتنا.. لذا كنت أنوي أن أخبر الزائر أيا كان أنني وحيدا في الشقة وقد خرجت زوجتي لزيارة أحد الأقارب أو الأصدقاء مثلا.

المهم أنني ذهبت لأعرف هوية الطارق.. فكانت الصدمة التي لم أتوقعها أبدا كما رأيتم.. مجرم هارب من حكم بالإعدام يقتحم شقتي!!!.. وعندما سألني إن كنت وحدي في الشقة.. تصرفت سريعا وبسرعة بديهة لم أعرف أنني أمتلكها.. حين جعلته يظن أن حبيبتي المختبئة في غرفة النوم هي زوجتي (سهام).. في حين كانت زوجتي الحقيقية جثة هامدة تحت السرير.. لكنه لم يكتشف هذا لحسن الحظ.. وظل المجرم طوال الوقت يعامل حبيبتي على أنها زوجتي دون أن يعلم!!!.. ولحسن الحظ أيضا أن حبيبتي فهمتني مباشرة عندما خاطبتها باسم (سهام) وتصرفت معي على هذا الأساس.

لقد كنت أخشى كثيرا أن يعثر المجرم على جثة زوجتي تحت السرير أثناء وجوده في الشقة.. وكان هذا السبب الأكبر لتوتري وقلقي.. لذا فقد أقدمت على تلك المغامرة وهجمت عليه.. فأطلق رصاصة بالخطأ أثناء التحامي معه.. قبل أن أتغلب عليه وأفقده وعيه.

لكني لم أتوقف عند هذا الحد.. إذ واتتني فكرة عبقرية لاستغلال الظروف وتلبيس ذلك المجرم قضية مقتل زوجتي أيضا.. حتى أبعد الشبهات تماما عن نفسي كوني قاتل زوجتي الحقيقي.. فأخرجت جثتها من تحت السرير وأطلقت على رأسها النار من مسدس المجرم.. أما حبيبتي التي رآها المجرم معي في الشقة وظنها زوجتي.. فقد طلبت منها أن تختبئ في الدولاب لحين خروج الشرطة.. لتبدو الصورة الظاهرة للجميع أن المجرم اقتحم شقة زوجين مسالمين وقتل الزوجة..

غير عالمين أن قاتلها الحقيقي هو أنا وأن هناك امرأة أخرى مختبئة في الشقة (حبيبتي) لا يعلم رجال الشرطة بوجودها أصلا!!!.

نعم.. قصة شائكة معقدة.. وصدفة خارقة الحدوث لكنها حدثت.. جريمة كاملة ساعدني ذلك المجرم دون قصد على تحقيقها!!!.. و.. بالطبع لم يكن رجال الشرطة ليصدقوا حرفا مما يقوله وهو المحكوم عليه بالإعدام أصلا.. بل سيصدقون المواطن الصالح الذي لا يحمل أي سجل جنائي.. وهو أنا بطبيعة الحال!!!.

لقد تحققت الجريمة الكاملة.. وتخلصت من زوجتي أخيرا.. ولم يعد يقف في طريق سعادتي شيء.. لا أنكر أنني كنت محظوظا إلى درجة مذهلة في هذه القصة.. إلى درجة لا تصدق.. ففي البداية كانت جريمة القتل مغامرة محفوفة بالمخاطر رغم كل الاحتياطات التي اتخذتها.. بل وظننت بعدها أنني أمر بسوء حظ غير طبيعي عندما اقتحم ذلك المجرم شقتي.. لكن الآن.. ستبتعد عني الشبهات تماما.. رغم الأحداث المروعة التي مررت بها في هذه الليلة.. الليلة التي لا تصدق.

الموت الأبيض

كنت جالسا في مكتبي في المباحث الجنائية أفكر بكل القضايا التي مررت بها طوال السنوات السابقة.. أشرب قهوتي وأطلب من الله سبحانه وتعالى أن يحفظ أحباءنا وأقرباءنا من كل الشرور الموجودة في العالم!!.. إذ رأيت خلال سنوات عملي جرائم يندى لها الجبين.. قتل.. اغتصاب.. شروع في قتل.. خلافات عائلية كادت أن تودي بجريمة.. وأكثر من ذلك!!!.

أفكر بتلك الجرائم وأحدق في شرود محبب بدخان قهوتي الذي يتصاعد بهدوء شديد حتى لأتمنى أن أكون أنا نفسي دخان.. غير عالم أنني سأكون اليوم مع قضية جديدة.. ولغز مذهل لم أكن لأصدق أحداثه لولا أنني عشتها بنفسي.. إذ جاءني اتصال هاتفي مفاجئ قطع لحظات الاسترخاء التي كنت أعيشها.. يفيد باختفاء شخص بصورة غامضة منذ أسبوعين تقريبا!!!.. وقد أثار هذا الأمر انتباهي إلى حد ما.. فطوال سنوات عملي في المباحث الجنائية.. كان الناس عادة يبلغون عن أحبائهم وأقاربهم بعد مرور 24 ساعة فحسب على اختفائهم.. بل إن بعضهم لم يكن لينتظر كل هذه المدة أصلا.. أما أن يختفي شخص لفترة أسبوعين تقريبا دون أن يرد بلاغ اختفائه سوى الآن فهو أمر غريب بعض الشيء!!.

كنت في طريقي إلى عنوان الشكوى في منطقة (الفروانية) ظنا مني أن القضية لن تتجاوز قضايا الاختفاء العادية رغم كل شيء وستنتهي بالعثور على الشخص المفقود مسافرا.. أو مع زوجته الثانية!!.. أو حتى ميتا بجرعة زائدة من المخدرات.. لذا كنت طوال الطريق أستمع إلى الراديو بلا مبالاة.. إلى أن وصلت أخيرا إلى العنوان المطلوب.. لأجد نفسي أمام مجمع سكني قديم نسبيا.

ترجلت من سيارتي وتوجهت ناحية الباب الرئيسِ ليستقبلني رجل في منتصف الخمسينيات من العمر بترحاب شديد.. حيث بدا وكأنه كان يترقب حضوري.. صافحني بهدوء وعرفني بنفسه على أنه مالك العمارة.. فألقيت عليه التحية بدوري باحترام متبادل.. ثم قام بتقديمي إلى حارس العمارة مع بعض سكانها..

صافحتهم بود محاولا أن أخفف شيئا من رهبة رجل الأمن.. تلك الرهبة الموجودة عند أغلب الناس.. ثم طلبت من مالك العمارة أن يخبرني بكل ما لديه.. في حين أمسكت بورقة وقلم لأدون - كعادتي- النقاط الرئيسية التي قد تفيدني في حل لغز القضية.

وأمام نظراتي المتسائلة.. تحدث مالك العمارة ليقول:

- لم أكن أعرف السيد (مرزوق) شخصيا.. بل ولم ألتقِ به من قبل.. فأنا رجل أعمال أمتلك الكثير من العمارات السكنية ولا أعرف جميع سكانها بالطبع.. لذا لم أعرف عن هذا الرجل شيئا إلا بعد أن أبلغني حارس العمارة باختفاء مقيم في إحدى الشقق يدعى السيد (مرزوق)!!.. في البداية لم أعر الأمر اهتماما.. فربما يكون مسافرا.. ربما يكون مقيما عند أحد أقاربه.. هناك عشرات الاحتمالات كما تعلم.. لكني عرفت من الحارس أن المدعو (مرزوق) قد انتقل إلى الشقة منذ حوالي سنتين.. ورغم القواعد الصارمة بمنع سكن العزاب في مجمعات سكنية تقطنها العائلات.. إلا أن مدير مجمعاتي السكنية قد تجاوز تلك النقطة وسمح للرجل بتأجير الشقة.. إذ بدا له الرجل عجوزا في منتصف السبعينيات من العمر.. فشعر بالأسف لحاله وسمح له

بالإقامة هنا.

لم يكن هناك أي شيء يثير الاستغراب في هذا الكلام.. لذا لم أنطق بحرف متوقعا أن القصة لم تبدأ بعد.. ليردف مالك العمارة:

- الغريب في الأمر أن السيد (مرزوق) أقام هنا طوال سنتين دون أن يخرج من شقته إلا ثلاث أو أربع مرات حسب شهادة جميع سكان العمارة.. بل إن بعضهم كان يطرق عليه الباب بين الحين والآخر ليقدم له بعض المأكولات أو للسؤال عنه كما يفعل الجيران عادة مع بعضهم.. إلا أن الرجل لم يكن يرد على أحد.. بل كان متحفظا غريب الأطوار لا يسمع منه الجيران أي ضجيج.. وكأن شقته مهجورة تماما!!!.

أومأت برأسي متفهما.. ثم سألت وأنا أنظر إلى الجيران:

- هل زاره أحد من قبل؟؟!.

هز أحدهم رأسه نفيا وهو يقول تأكيدا على كلام مالك العمارة:

- لم نرَ أحدا يزوره على الإطلاق.. أنا أقطن مع أسرتي في الشقة المقابلة لشقته.. ولدي ولد وبنت يخرجان ويدخلان إلى الشقة باستمرار أثناء فترات لعبهما.. أستطيع أن أؤكد لك أن أحدا لم يزره على الإطلاق!!!.. ولكن ....

شعرت أنه سيقول شيئا مهما.. فتحفزت نظراتي وأنا أترقب كلامه.. ليردف قائلا:

- لقد رأيناه مرات قليلة للغاية يخرج من شقته ويعود إليها بهدوء دون أن يلتفت إلى أحد.. الغريب أنه في إحدى المرات القليلة تلك.. كان يحمل بعض الصناديق غريبة الشكل!!!.

قلت بلا مبالاة:

- ربما كان يحمل أغراضه الخاصة.. أجهزة إلكترونية مثلا.. أو مستلزمات الشقة!!.

رد الجار باستغراب:

- لا أعتقد يا سيدي.. لم تبدُ لي الصناديق ثقيلة من طريقة حمله لها.. ثم إنه كان يحملها بحذر شديد.. حتى إنني سألته إن كان يحتاج مساعدة في حملها.. إلا أنه تمسك بها بشكل غريب وكأنه يرفض تماما أن يلمسها أحد غيره!!.. أما بخصوص مستلزمات الشقة.. فقد كان يشتريها من خلال خدمة التوصيل.. فكثيرا ما كنت أجد عامل البقالة يقف عند باب الشقة.. ليفتح له السيد (مرزوق) الباب ويسلم العامل نقوده دون أي كلمة.. ثم يأخذ أغراضه ويعود سريعا إلى الداخل!!.. لقد كنت أستغل هذه الفرص النادرة لأطرق عليه الباب حال رحيل العامل كي أدعوه إلى الغداء مثلا.. لكنه لم يكن يرد!!!.. حتى عرفنا أن الرجل يريد أن يكون في حاله ولا يريد أن يتواصل مع أحد.

سألتهم باهتمام شديد:

- هل تعتقدون أن مكروها قد أصابه مثلا؟!.. هل تظنون أنه لقي مصرعه في شقته؟!.. هل دخل أحدكم شقته أصلا؟!.

هز الجميع رأسهم بنفي!!.. ثم قال جار السيد (مرزوق) مرة أخرى:

- لا نعرف حتى الآن إن كان موجودا في شقته أم لا.. لكن.. عامل البقالة الذي يوصل حاجيات

السيد (مرزوق) أسبوعيا إلى هنا.. طرق باب شقته في المرتين الأخيرتين لفترة طويلة دون أن يفتح له الباب.. فعاد العامل حاملا معه الأكياس.. بل إنني سمعته في المرة الثانية يتذمر من ضياع وقته بهذه الطريقة السخيفة دون هدف!!.

قلت وأنا أتنهد:

- ربما خرج لسبب ما دون أن يعلم البقال.. ربما يكون قد سافر مثلا.

رد مالك العمارة سريعا:

- هذا احتمال قائم دون شك.. ولكن.. سيارته موجودة عند الباب.. ثم إنني لا أعتقد أنه في حالة صحية تسمح له بالسفر.. دعك من أن أحدا لم يراه وهو يخرج أصلا.. ولو كان قد سافر كما تقول.. فلماذا لم يبلغ صاحب البقالة الذي يوصل له حاجياته؟ !!.. أصارحك القول.. لقد أردنا أن ندخل شقته خوفا أن يكون مكروه قد أصابه.. لكن بصراحة كنت أخشى الدخول في مشكلة قانونية.. لذا فقد فضلنا أن نبلغ الشرطة.

أومأت برأسي متفهما بشيء من الامتنان لتعاونه بهذه الصورة مع السلطات.. فطلبت منه أن يفتح لي باب الشقة بالمفتاح الاحتياطي.. وهو أمر غير مسموح به بالطبع من الناحية

القانونية.. لكن.. لنقل إنني أتعامل بروح القانون.. فالرجل قد يكون موجودا في الداخل بالفعل.. وقد يكون مصاب بضرر ما.

اتخذت قراري بالصعود لدخول الشقة مع المالك والحارس.. وطلبت من سكان العمارة العودة إلى شققهم بعد أن شكرتهم على تعاونهم.. لينفضوا من حولنا شيئا فشيئا.. ولنتوجه نحن إلى شقة السيد (مرزوق).. و.. صعدنا إلى حيث مكان الشقة.. حيث قمت بطرق الباب وأنا أصيح بصوت مرتفع بأننا سندخل الشقة خوفا أن يكون قد أصاب صاحبها مكروها.. لكن.. لا أحد يرد.. فطلبت من الحارس أن يفتح الباب.. وما إن دخلنا.. حتى وجدت الشقة خالية تماما!!!.. وكأن أحدا لم يسكنها من قبل.

نظرت إلى مالك العمارة باستغراب طالبا منه توضيح ما يحدث!!.. هل رحل السيد (مرزوق) فجأة دون علم أحد مثلا؟ ؟!.. مستحيل.. خاصة وأن الحارس قد أكد بثقة تامة أن الرجل عندما انتقل للإقامة هنا منذ سنتين كانت معه الكثير من الحقائب وقطع الأثاث.. ويستحيل تماما أن يترك الشقة ويأخذ كل شيء معه دون أن ينتبه أحد.. مهما كان الوقت متأخرا.. هذا مستحيل تماما!!!.. عندها فقط شعرت أن القضية تكبر.. وتتحول إلى لغز.. فنحن لا نتحدث فقط عن اختفاء شخص.. بل اختفاء كل ما يتعلق به أيضا!!!.

لم يكن هذا كل شيء.. فقد كان هناك أمر آخر أثار اهتمامنا جميعا.. صوت غريب وواضح في كل أنحاء الشقة لكني لا أعرف مصدره.. إنه صوت (طقطقة).. يشبه كثيرا صوت اشتعال النيران بالأخشاب.. هل هناك شيء يحترق؟ !!.. لا أرى هذا.. ولا أشم رائحة حريق أصلا!!!.. رحنا نمشي في كل أنحاء الشقة مرة أخرى دون أن نعثر على أي مصدر لصوت ال(طقطقة) هذا!!.. لكن تذكرت أن دوري انتهى الآن بعد أن تأكدت من أن صاحب الشقة ليس موجودا فيها.. لذا فمن واجبي أن أخرج فورا.. على أن آتي ثانية في الغد بعد أن أستخرج إذن التفتيش من النيابة.

أثناء خروجنا من الشقة.. سألت الحارس باهتمام:

- كيف كان السيد (مرزوق) يدفع الإيجار؟!.

رد ببساطة:

- لقد اعتدت أول كل شهر أن أجد شيكا باسمه عند باب غرفتي!!.

نظرت إليه طويلا.. ثم قلت بخفوت:

- أي لغز تخبئ يا سيد (مرزوق)!!.. أي لغز يا ترى؟؟!!.

بالطبع لم يجب أحد على سؤالي هذا.. لكني شعرت أن القضية قد أثارت اهتمامي كثيرا.. إنها المرة الأولى التي يحدث فيها شيء كهذا!!.. أن يختفي رجل.. ويختفي معه كل شيء يخصه في الشقة.. ثيابه.. قطع الأثاث.. كل شيء.. هذا غريب.. إنني لا أرى شيئا سوى أرضية الشقة المصنوعة من حجر السيراميك.. ولا أسمع سوى صوت (الطقطقة) المجهول هذا.

أخذني الحارس بعدها إلى سيارة السيد (مرزوق) فرحت أفحصها بدقة.. لكن لم أجد فيها ما يثير الاهتمام.. لقد كانت من طراز قديم نسبيا.. إلا أنها بدت لي رغم هذا وكأنها جديدة للغاية عدا تلك الأتربة التي غطتها بفعل سوء الطقس.. وهذا يؤكد كلام سكان العمارة بأن السيد (مرزوق) لم يكن يستخدم سيارته تقريبا.

لم أجد ما أفعله بعد هذا.. فودعت مالك العمارة مع الحارس.. على أن أخرج عائدا إلى المكتب لأقوم بأولى الخطوات.. وهي عمل محضر للإبلاغ عن شخص مفقود.. مع البحث عن كل ما يتعلق بالسيد (مرزوق) هذا!!.

وبالفعل.. أجريت بحثا شاملا عنه خلال الساعتين التاليتين.. فوجدت أن الرجل شديد الغموض بحق.. فقد ورث مبلغا لا بأس به من المال وضعه في صورة وديعة في البنك يقبض فوائدها كل شهر.. كما عرفت أنه قد هاجر إلى (الولايات المتحدة الأمريكية) منذ حوالي 40 عام وأكمل دراسته هناك.. إلى أن حصل على شهادة الدكتوراه.. لكنه لم يعمل في أي وظيفة.. بل اكتفى بالشهادة فحسب!!!.

وعرفت أيضا أنه عاد إلى (الكويت) منذ سنوات قليلة وبشكل مفاجئ للغاية.. وأن علاقته بأقاربه معدومة تقريبا.. وقد قضى حياته أعزبا!!!.. هذا كل ما عرفته عنه.. لينتهي اليوم الأول دون أي نتيجة تذكر ودون العثور على أي خيط يقودني إلى حل ذلك اللغز الغريب!!!.

في صباح اليوم التالي.. خرجت من البيت بعد أن لاحظت زوجتي شرودي الشديد.. وأبلغتها أنني أمام قضية غريبة جدا سأخبرها بتفاصيلها لاحقا بعد أن أكشف الغموض المحيط بها.. ذهبت بعدها إلى مكتبي لأجد أن الإذن الرسمي من النيابة لدخول شقة الرجل وتفتيشها قد صدر أخيرا!!!.. رائع.. هذا سيمنحني الحرية الكاملة للدخول إلى الشقة والبحث جيدا في كل شبر منها.. لا بد أن أعثر على شيء.. لا بد أن أفهم ما يحدث فيها.. خاصة صوت (الطقطقة) الغريب هذا الذي سمعته في المرة الأولى.. يجب أن أعرف مصدره.

خرجت بعدها مباشرة إلى ذات المجمع السكني حيث شقة السيد (مرزوق).. فالتقيت بحارس العمارة وقدمت إليه إذن التفتيش من النيابة.. لحظات قليلة قبل أن أجد نفسي في الصالة الرئيسية للشقة.. رحت أنظر حولي بهدوء شديد محاولا إيجاد أي شيء قد ينير لي الطريق.. إنها شقة صغيرة تتكون من غرفتين فقط.. مع صالة ومطبخ وحمام.. لا يفترض أن يستغرق البحث وقتا طويلا في شقة بهذا الحجم.. خاصة وأنها تخلو تماما من الأثاث أو أي شيء آخر كما

علمتم.

ورغم ذلك.. كنت أفحص الأرضية في كل غرفة وأتأكد من عدم وجود بقايا لأي شيء مهما بدا تافه.. فأمور صغيرة كهذه قد تحل قضايا كاملة.. ولكن.. مرت أكثر من ساعة دون أن أشعر بنفسي وأنا أفحص وأبحث وأعيد البحث بإصرار شديد.. ثم.. صوت (الطقطقة) اللعين هذا ما زال موجودا لكني نسيت أمره.. تماما كما نعتاد على صوت جهاز التكييف مثلا فلا ننتبه له.. ترى.. من أين يأتي هذا الصوت؟؟!!.. أشعر وكأنه متغلغل في ذرات الهواء.. ويخترق ثنايا عقلي بانتظام وملل وركود وإصرار.

رحت أفكر بعدها بما يجب فعله.. هل أستعين بالطب الجنائي؟ !!.. لكن ماذا سيفعل الطب الجنائي أصلا إذا كانت الشقة خالية تماما ولا توجد أي أدلة للفحص.. مهلا.. لقد انتبهت للتو.. كانت هناك قطعة قماش صغيرة للغاية من العسير أن تراها بالعين المجردة مرمية بإهمال في أحد أركان الشقة.. لا أعرف كيف حالفني الحظ وانتبهت لها.. ماذا تعني تلك القطعة؟ !!.. قد تعني الكثير وقد لا تعني شيئا!!!.

أمسكت القطعة بيد خبيرة بعد سنوات من العمل في المباحث الجنائية.. أنظر إليها باهتمام بالغ.. إنها قطعة قماش رمادية أصغر من حجم الإبهام.. وتبدو كأنها مهترئة.. أو فلنقل.. تعرضت للاحتراق.. هناك آثار احتراق واضحة حولها.. لا شك أنها من بقايا حريق ما!!.. ولكن أين هو هذا الحريق ولماذا لا أرى أي أثر له في الشقة؟ ؟!.. إن النوافذ موصدة.. فلا يمكن أن تكون تلك القطعة قد طارت من الخارج مثلا ودخلت إلى هنا من خلال النافذة.. دعكم من أن قطعة القماش كانت ثقيلة نسبيا ومن الصعب أن تطير هكذا في الهواء.

أفكر بكل هذا وصوت (الطقطقة) الذي أخبرتكم عنه ما زال مسموعا بوضوح.. وكأن ذلك الحريق المجهول ما زال قائما.. نعم.. فكل شيء وجدته حتى الآن يدل على أن هناك حريقاً ما.. لكن أين هو هذا الحريق؟!.. لا زلت عاجزا عن الإجابة.. فقررت أخذ قطعة القماش هذه إلى المكان الصحيح.. إلى المعمل الجنائي!!!.

كانت الساعة تشير إلى الرابعة والنصف مساء عندما وصلت إلى المعمل الجنائي حيث يعمل هناك صديق لي لحسن الحظ.. و.. تحية طويلة ووعود وقسم بأننا سنقضي الوقت في المرة

القادمة في مقهى (كوستا) الشهير بدلا من الانغماس في العمل.. قبل أن أعطيه أخيرا كيساً بلاستيكياً صغيراً يحوي قطعة القماش تلك.. فنظر إليها صديقي دون فهم.. ثم نظر إليّ قائلا:

- قطعة قماش مهترئة؟!.. هل هي قضية جديدة؟ ؟!.. كيف ستفيدك تلك القطعة في كشف لغز قضيتك؟!.

قلت بصدق:

- لا أعلم.. ولكن.. ربما لو فحصتها.. قد تجد فيها شيئا يثير الاهتمام!!.

نظر إلي وهو يمط شفتيه.. ثم قال مبتسما:

- حسنا أيها الصديق.. أو الزميل.. لا أعرف بماذا أناديك.. اترك القطعة معي.. وسأبلغك بما توصلت إليه غدا على أبعد تقدير.

شكرته كثيرا قبل أن أخرج عائدا إلى البيت.. حيث مر بعدها اليوم عاديا دون أحداث تذكر..

في اليوم التالي.. وصلني اتصال هاتفي في فترة الظهيرة من صديقي الطبيب الشرعي ذاته.. يخبرني فيه أنه قد فحص قطعة القماش تلك وتوصل إلى أمر مدهش.. لكنه يريدني أن آخذه إلى شقة السيد (مرزوق) أولا ليتأكد بنفسه من نظريته قبل أن يخبرني بما لديه.

لم أسأله عما اكتشفه رغم لهفتي الشديدة.. إذ احترمت صمته وكتمانه لما يعرفه إلى أن يتأكد من نظريته على حد قوله.. فخرجت مباشرة لأقلّ صديقي و.. بعد أقل من ساعة.. كنا في نفس العمارة.. حيث دخلنا إلى الشقة ذاتها وسمعنا مرة أخرى وأخرى صوت (الطقطقة) الواضح والذي يبدو أنه مستمر على مدار الساعة!!!.

عندما سمع صديقي الصوت.. تحفزت حواسه فجأة.. وراح ينظر إلى كل أبعاد الشقة.. ثم اقترب أكثر من الجدران.. قبل أن يطلب مني إنارة المكان بأكمله.. فقمت بتنفيذ طلبه مستغربا.. لكنه لم يكتفِ بهذا الضوء.. بل أخرج من جيبه مصباحاً يدوياً صغيراً بحجم الأصبع بدا لي أنه اعتاد على حمله.. قبل أن ينظر إلى الحائط بانتصار وهو يقول:

- يا إلهي.. إنني محق تماما في نظريتي.. هل.. هل ترى جدران الغرفة؟؟!!.. أنظر.. توجد في خلف الجدران ممرات صغيرة جدا؟!.. هل تراها؟!.

نظرت إلى الحائط في غباء واضح.. قبل أن أقول بيأس:

- عم تتحدث يا صديقي؟!.. أنا لا أرى شيئا على الإطلاق!!.

قال بإصرار واضح وهو يشير إلى الحائط ويحاول رسم مسارا وهميا بإصبعه:

- فقط تتبع إصبعي.. فلنفترض أن جدران الشقة هي خريطة عملاقة.. وأن هناك مسارات شبيهة بالأنهار المرسومة على تلك الخريطة!!.. هل ترى تلك المسارات؟!!.

أمعنت النظر جيدا.. قبل أن أهتف:

- نعم.. نعم.. إنني أراها الآن.. ماذا يعني هذا؟ !!.. ربما تكون أنابيب الماء والكهرباء الموجودة داخل الجدران.. يبدو أن بناء المقاول كان سيئا ليجعل تلك الأشياء تظهر للعين المجردة.. ماذا تريد أن تقول؟!!.

رد بحذر شديد وكأنه سيلقي قنبلة:

- يا صديقي.. إنها ليست مواسير ماء أو أنابيب كهرباء.. وعلى كل حال.. أنا لا أعرف شيئا عن القضية التي أنت بصددها.. لكن.. لكني أعرف ما أراه الآن.

صمت طويلا وهو يفكر.. ثم حسم أمره وقال:

- عزيزي.. ما نراه في الجدران هو أنفاق طينية.. أنفاق موجودة داخل الجدران نفسها.. هذه الشقة مسكونة بكميات هائلة لا تصدق من النمل الأبيض ([8])!!!!!.. وهو الذي التهم قطعة القماش الكبيرة على الأرجح وترك منها تلك القطعة الصغيرة التي أعطيتني إياها لفحصها.

فتحت فمي لا شعوريا مستغربا من كلامه.. وسألته مصدوما:

- النمل الأبيض؟ !!.. وكيف جاءت تلك الحشرات إلى هنا بهذه الكمية الهائلة كما تقول؟!.. ثم.. كيف يفيدنا هذا في قضيتنا؟؟!!.. إنني أحقق في قضية اختفاء رجل مع جميع ممتلكاته.. قطع أثاثه.. ثيابه.. أجهزته الكهربائية.. كل شيء.. إن الشقة خالية تماما كما ترى.

رد باستغراب وقلق حقيقي:

- استمع إلى صوت (الطقطقة) يا عزيزي.. هذا الصوت يصدره النمل الأبيض.. وهو مرتفع هنا إلى حد مرعب.. ومع قطعة القماش التي فحصتها.. ومع تلك الممرات الطينية الموجودة خلف الجدران.. كل هذا يدل على أن هذا المكان هو مستعمرة للنمل الأبيض.. كميات هائلة منه تعيش هنا.. ولا أعرف كيف وصلت إلى هذه الشقة.. لكني واثق مما أقول.. يجب أن نتصل فورا بمختصين في مكافحة الحشرات.. وربما بفريق بيئي أيضا.. لا أعرف إلى أي مدى أتلف النمل الجدران هنا.. لكن ثق أن هذه الشقة آيلة للانهيار في أي لحظة.. وربما يكون المجمع السكني بأكمله في خطر!!!.. قد نحتاج إلى قلب المكان رأسا على عقب.. بل وتكسير الجدران أيضا.

سألته في حدة:

- يا صديقي.. إنني لست عالم حشرات.. ولكن هل يعقل أن يلتهم النمل الأبيض الخشب والثياب وكل شيء في هذه الشقة؟ ؟!.. ماذا عن العملات المعدنية والأواني النحاسية؟ ؟!.. ماذا عن الأجهزة الكهربائية وقطع الأثاث؟!.. هناك عشرات الأشياء المفترض وجودها هنا والتي لا يستطيع النمل الأبيض أن يأكلها أصلا.. ثم.. أين اختفى السيد (مرزوق) صاحب الشقة؟ ؟!.. هل أكله النمل أيضا؟!.

قال برهبة:

- أنا لا أعرف شيئا عن صاحب الشقة ولا أعرف ما أصابه.. لكني أتحدث عما أراه الآن.. هذه الشقة معرضة للانهيار في أي لحظة.. النمل الأبيض يا صديقي يتغذى على مادة (السليلوز) المتوافرة في كثير من استعمالات الإنسان اليومية كالملابس والورق والستائر وحتى الأثاث الخشبي.. ومن الممكن أن يكون قد التهم هذا كله بالفعل.. فالنمل الأبيض يتغذى 24 ساعة في اليوم دون توقف.. إنها حشرة قوية جدا.. صمدت أمام كل المتغيرات في كوكبنا.. بل هي موجودة منذ أيام الديناصورات.. أي منذ حوالي 250 مليون سنة ([9]).. والصوت الذي نسمعه الآن خلف الجدران يؤكد كلامي.. أما السيد (مرزوق) الذي تتحدث عنه.. وكيفية اختفاء المعادن الموجودة في الشقة والأجهزة الكهربائية.. فأنا أجهل الإجابة على تلك الأسئلة.

لم أنطق بحرف بعد كلامه هذا.. بل أخذت بنصيحته فحسب.. واتصلت مباشرة بوزارة الصحة.. وطلبت أيضا فريقا من البيئة وشركة متخصصة لمكافحة الحشرات مع مقاول لتكسير الحائط حتى نعرف ماذا تخبئ لنا جدران الشقة.. على أن أكمل التحقيق في قضية اختفاء السيد (مرزوق) فيما بعد.. هذا إذا لم يكن هناك رابط بين اختفائه وبين وجود تلك الحشرة بكميات هائلة في شقته!!!.

في اليوم التالي مباشرة.. اكتظت الشقة بالمسؤولين والفنيين ورجال الشرطة والعمال.. حتى بدت وكأنها مزار سياحي!!!.. وقد طلبت من سكان العمارة البقاء في الخارج - كما نصحني صديقي الطبيب الجنائي - تحسبا لأي طارئ.. و.. عزيزي القارئ.. لا يمكن أن أصف لك الكم الهائل من النمل الأبيض الذي تساقط على العمال عندما قاموا بتكسير أجزاء من الحائط.. الغريب أن أحد العمال راح يصرخ بهستيريا حقيقية وهو يدعي أن النمل يحاول قضم أجزاء من جسده!!!.. لقد عرفت وقرأت عن نبات يأكل اللحوم في (إندونيسيا) تم اكتشافه حديثا ([10]).. أما حشرة تأكل اللحوم؟ !!.. هذا مستحيل تماما!!!.

وأمام كل هذه الفوضى.. قام بعض عمال شركة مكافحة الحشرات برش المبيدات الحشرية على جسد الرجل نفسه وهو يصرخ ويتلوى حتى بدأ ينزف فعليا في بعض الأجزاء من جسده.. قبل أن تهمد حركة النمل شيئا فشيئا ويموت أخيرا.

كما قام العمال برش المبيدات ذاتها بغزارة في كل مكان في الشقة حيث تساقطت كميات هائلة من تلك الحشرة.. ملايين منها.. أو ربما مليارات دون مبالغة.. كان مشهدا مخيفا مقززا أصابني بذعر هائل.. إنني أسمع كثيرا عن النمل الأبيض لكني لم أره قبل الآن.. وها أنا أراه بصورة تختلف عن كل ما تعلمته وعرفته عن الحشرات.. هناك شيء مريب يحدث هنا جعل تلك الحشرة مفترسة بهذه الصورة الغريبة.. سأفكر في ذلك جيدا ولكن بعد الانتهاء من رش المكان بالمبيدات.

يومان كاملان من العمل المتواصل مع فحص المكان أكثر من مرة ورشه بالمبيدات الحشرية باستمرار.. حتى تمت إبادة النمل الأبيض بالكامل.. وقد تطلّب هذا أيضا تكسير جدران العمارة بأكملها حتى نتأكد من عدم تسلل تلك الحشرة منها.. يا إلهي.. لو انتشرت هذه السلالة فستكون كارثة حقيقية على الجنس البشري بأكمله!!!.

لقد بدأت أفهم ما حدث.. خاصة بعد أن رأيت ذلك العامل البائس ينزف دما والنمل الأبيض يقضم أجزاء من جسده قبل أن يتم إنقاذه.. إذ يبدو أن السيد (مرزوق) قد تعرض لأمر شبيه بما تعرض له ذلك العامل.. أعتقد أن النمل الأبيض قد قضم جسده والتهمه حتى الموت!!!.. لكني أرجأت التأكد من هذه النقطة إلى حين وصول خبير حشرات من (السويد) قام المسؤولون بطلبه خصيصا لفحص عينات من النمل الأبيض الذي عثرنا عليه.

لم يتأخر وصول الخبير كثيرا.. فبعد يومين فقط.. كان موجودا في (الكويت) يفحص عينة من تلك الحشرات ويضعها تحت المجهر ويسجل ملاحظاته باهتمام بالغ لساعات طويلة امتدت حتى فجر اليوم الثاني.. بل وقام بزيارة الشقة أيضا لفحصها.. قبل أن ينتهي من عمله أخيرا ويقدم تقريره إلى المسؤولين.

لقد اتضح من التقرير أن السيد (مرزوق).. إما أن يكون قد اكتشف سلالة جديدة من النمل الأبيض تلتهم المعادن واللحوم!!!.. أو أن يكون قد عبث جينيا في تلك السلالة فأنتج منها سلالة أخرى مفترسة.. لكن النتيجة واحدة في الحالتين كما ترون.. وهي وجود فصيلة جديدة من النمل الأبيض لم تكن موجودة في السابق.. ورجح الخبير بعد التحقيقات أن النمل الأبيض ربما التهم السيد (مرزوق) أثناء نومه!!!!.. قد يكون الرجل صرخ طالبا النجدة.. لكن صراخ شيخ في الخامسة والسبعين من العمر لن يكون قويا بما فيه الكفاية ليسمعه الجيران كما يبدو!!!!.

لقد تم التعتيم الكلي حول هذه القضية حتى لا تصل إلى وسائل الإعلام وتسبب الذعر بين العامة.. ماذا؟!.. هل تظنون أن الأمر مضحك وسخيف وغير قابل للتصديق؟ ؟!.. هذا ما ظننته في البداية أيضا.. ولكن.. لم يعد الأمر مضحكا حين تحدثت مع الخبير السويدي قبل عودته إلى بلده.. إذ أخبرني بقصة مخيفة للغاية جعلتني أقشعر رعبا وتقززا:

- هذه ليست المرة الأولى التي يحدث فيها أمر كهذا.. فقد قام بعض العلماء منذ بضع سنوات بجلب مجموعة من الصراصير المنزلية.. وقاموا بعملية قص ولصق في جيناتها.. حتى نجحوا أخيرا في استنباط سلالة جديدة منها.. فكانت أكبر حجما وأكثر قدرة على احتمال التقلبات المناخية.. هذا ما بدا ظاهرياً.. حتى حدثت مصادفة مخيفة أشبه بأفلام الرعب.. فذات ليلة..

قاد سوء الطالع فأراً صغيرا إلى الصندوق الزجاجي الذي يضم سلالة الصراصير المنزلية الجديدة هذه.. فما الذي حدث؟!.. انقضت عليه الصراصير وحاصرته.. والتهمته حيا!!!.. نعم.. المصادفة أثبتت أن السلالة الجديدة التي تم تعديلها جينيا كانت آكلة لحوم.. سلالة جديدة مفترسة من الصراصير!!!.. ومع حالة الهلع التي أصابت العلماء.. أدركوا مدى خطورة ما أنتجوه.. خاصة لو نجح زوج من هذه الصراصير المفترسة في الفرار من المعمل عبر فتحة مجرور مثلا.. ستكون حتماً كارثة.. لذا فقد تم اتخاذ قراراً على أعلى المستويات بالقضاء على هذه السلالة الجديدة بأكملها ([11])!!!.

اتسعت عيناي في هلع واضح أثناء سماعي لكلام الخبير.. قبل أن أقول بصوت متحشرج:

- ولكن.. هناك أمر لا أفهمه.. كيف يلتهم النمل الأبيض - مهما كانت نوعية سلالته الجديدة - أشياء بهذه الضخامة كالدولاب والثياب الموجودة فيه.. بل والسيد (مرزوق) نفسه؟؟!!.

رد الخبير ببساطة وكأن هذا أتفه أسئلتي:

- النمل الأبيض يأكل دون توقف تقريبا.. وبهذه الكميات الهائلة الموجودة منه في جدران الشقة.. وطوال فترة أسبوعين قبل دخولكم للشقة للبحث عن السيد (مرزوق).. أستطيع أن أقول إنها قادرة على ذلك بالفعل.. إن الكمية التي وجدتموها في الشقة كانت هائلة لا تصدق.. وعموما فإن عدد هذه الكائنات لا يمكن حسابه.. ولك أن تعلم أن وزن النمل الأبيض مجتمعا يفوق أوزان جميع سكان العالم مجتمعين ([12]).. لاحظ أنني لا أتحدث عن العدد.. بل الوزن!!!.. إنها كائنات اجتماعية تعيش في جماعات.. وهي منظمة بشكل مخيف وتستطيع أن تبني شبكة ضخمة من الأنفاق في الجدران كما حدث في الشقة.

لم أعلق على كلامه.. بل سألته بشيء من الأسى:

- لماذا لم يتجه السيد (مرزوق) إلى الغرب حيث يُقدّس العلم هناك ويُحترم؟!.. أشعر بالأسف لخسارة هذا العقل وبهذه الصورة البشعة.. يبدو أنه كان باحثا مميزا بالفعل!!!.

رد ببساطة وكأنه معتاداً على تلك الأسئلة:

- هذه الأمور تحدث كثيرا.. عدد هائل من العلماء لا تهمهم الشهرة أو جمع المال.. إنما يهمهم العلم فحسب ([13]).. عقلية العالم لا يمكن فهمها بسهولة.

سكتنا طويلا أمام هذا الكلام.. وسرت في جسدي قشعريرة هائلة وأنا أتخيل السيد (مرزوق) نائما بأمان وقد انقضت عليه هذه الحشرات بالملايين والتهمته حيا!!!.. وربما التهمت كل بقاياه خلال الأيام التالية مع كل ما هو موجود في الشقة.. لحسن الحظ أن الأمر لم يطل أكثر من ذلك.. لحسن الحظ أننا اكتشفنا وجود تلك السلالة من النمل قبل أن تخرج من مخابئها وتبدأ بالتكاثر في أماكن متفرقة فيستحيل حينها ملاحقتها.. يا إلهي.. لقد كادت أن تحدث كارثة حقيقية.. حمدا لله أن الأمور انتهت عند هذا الحد.

ودّعت الخبير أخيرا متوقعا ألا أراه مرة أخرى.. وقد أغلقنا ملف القضية بعد أن عرفنا سر ما حدث.. لكن ظلت التفاصيل محاطة بسرية بالغة كما ذكرت.. حتى إن تقرير قضية اختفاء السيد (مرزوق) لم يتضمن أي شيء مما حدث فعليا ولم يتطرق أبداً إلى اكتشاف تلك السلالة الجديدة.. خاصة وأن المرحوم لم يكن لديه أقارب ليسألوا عنه.. مما ساهم بشكل أكبر بإبقاء الأمر سرا وإخفائه تماما عن وسائل الإعلام.. فلم يكن أحد من شركات التنظيف أو وزارة الصحة

يعلم أن هناك قضية اختفاء شخص.. أو أن النمل الأبيض الذي عثرنا عليه هو سلالة جديدة اكتشفها السيد (مرزوق) أو ربما عدّلها جينيا قبل أن تلتهمه أثناء نومه وتتكاثر بعدها لتملأ الشقة.

أعتقد أن هذا هو سر الصناديق التي أخبرني عنها الجيران.. والتي كان يأتي بها السيد (مرزوق) إلى شقته.. لقد كانت تلك الصناديق بمثابة الحاضنات للنمل الأبيض.. ترى.. هل لديه مختبر يجري فيه أبحاثه وقد قام بجلب تلك الصناديق منه؟ !!.. هل هناك بقية لتلك السلالة

المخيفة لم نقضِ عليها بعد؟ !!.. هل هرب زوج منها عبر إحدى المواسير؟؟؟!!.. هل ستبدأ مرحلة جديدة من التكاثر بصمت وهدوء وعزلة دون أن نعلم؟ !!.. أسئلة كثيرة لا أملك الإجابة عليها.. لكني أحاول أن أطمئن نفسي دائما وأدعو الله سبحانه وتعالى أن يكون ما فعلناه كافيا تماما لانقراض تلك السلالة المخيفة من النمل القاتل.. والموت الأبيض.

في الغرفة المغلقة

((إذا كان انتحارا.. فأين المسدس الذي استخدمه المنتحر؟!.. وإذا كانت جريمة قتل.. فكيف حدثت إذا كان باب الغرفة مقفولا بالمفتاح من الداخل؟؟!!.. إنه أغرب شيء رأيته في حياتي))!!!.

ليس الهدف من هذه العبارة إبهاركم أو حثكم على قراءة قصتي.. بل هي الكلمات ذاتها التي استخدمتها عندما واجهت تلك القضية.. فطوال 30 عاما قضيتها في المباحث الجنائية حيث رأيت فيها كل ما يخطر على بال.. إلا أنني لم أمر يوما بقضية كهذه.

بدأت القصة عندما تلقيت بلاغا بوجود جريمة قتل في منطقة (ضاحية عبدالله السالم).. وهي من أرق المناطق السكنية في (الكويت) كما تعلمون.. لقد بدا الأمر غريبا حينها.. إذ لم أتلقَ من قبل أي بلاغ بوجود جريمة قتل في هذه المنطقة تحديدا!!!.. لكني قمت بما يستوجب فعله كما هي العادة.. وذهبت مع رجال البحث الجنائي إلى مسرح الجريمة لمعرفة ملابساتها.

لم تخفَ علي فخامة البيت بكل تأكيد كحال معظم البيوت في تلك المنطقة.. ولم يخفَ علي أيضا وجود سيارة إسعاف كانت قد سبقتنا إلى مسرح الجريمة حيث يحاول مجموعة من المواطنين الاقتراب منها بفضول لمعرفة ما يحدث.. رغم محاولات رجال الشرطة لتفريقهم وإبعادهم عن المكان.. لكني تجاهلت كل هذا وتوجهت مع مجموعة من رجال الشرطة إلى الداخل لمقابلة أصحاب البيت.. كان الباب مفتوحا وبدا أن الجميع - بما فيهم رجال الإسعاف - بانتظاري لمعاينة مسرح الجريمة قبل أخذ الجثة إلى المشرحة.. وفي الداخل وجدت رجلا ملتاعا يرتدي الزي الوطني (الدشداشة) ويرتجف من قمة رأسه حتى أخمص قدميه بشكل ملحوظ.. ألقيت عليه تحية سريعة.. فأشار إلينا بكلمات مقتضبة أن نتبعه!!!.

دخلنا جميعا إلى صالة البيت.. فوجدنا امرأة تحاول السيطرة على أعصابها بعينين دامعتين وهي تحتضن بدورها امرأة أخرى تصرخ وتبكي بحرقة.. سألت عن هوية المرأتين فأخبرني الرجل أن المرأة الباكية هي زوجة القتيل.. ومن تحتضنها هي شقيقتها وأنه زوج شقيقتها.

انتظرت قليلا حتى تهدأ الزوجة.. وسألتها عن التفاصيل.. لترد بوجه مليء بالدموع:

- كنت في غرفة النوم أشاهد التلفاز.. في حين كان زوجي في غرفة المكتب بالطابق الأرضي ينهي بعض أعماله.. ومع مرور الوقت.. أصابني نعاس شديد لأنام دون أن أشعر بنفسي.. لكني استيقظت في السابعة فجرا ولم أجد زوجي بجانبي.. وهو ما لم يفعله منذ زواجنا!!!.. فهو لا يسهر أبدا لفترات طويلة ويحرص على النوم قبل الواحدة فجرا على أبعد تقدير.. وهذا ما أثار فضولي وقلقي!!!.. نزلت إلى الطابق الأسفل.. ووجدت باب مكتبه مغلقا من الداخل.. فرحت أطرق الباب دون أن يرد.. عندها شعرت بذعر حقيقي ظنا مني أن مكروها قد أصابه.. نظرت من ثقب الباب ووجدت المفتاح في الداخل.. أي أن زوجي مازال في الداخل بكل تأكيد.. فشباك الغرفة مدعم بقضبان للحماية ولا يمكن أن يكون زوجي قد قفز من النافذة مثلا!!!.. لأتصل بعدها بالطوارئ حيث أرسلوا رجال المطافئ مع سيارة الإسعاف خلال نصف ساعة.. وقاموا بكسر الباب ليجدوا زوجي في الداخل وهو مصاب بطلق ناري في صدره.

سألت الزوجة بحذر:

- هل سمعت صوت الطلق الناري؟!!!.

هزت رأسها نفيا.. فهززت رأسي متفهما.. ربما تم استخدام مسدس كاتما للصوت.. هذا ما قلته لنفسي.. لألقي بعدها نظرة سريعة حولي قبل أن أطلب منهم البقاء في الصالة على أن أتوجه إلى غرفة المكتب.. إلى مسرح الجريمة.. وهناك.. وجدت الزوج ملقىً على الأرض وسط الغرفة.. والدماء في كل مكان حوله بسبب إصابته بطلق ناري في صدره كما علمنا!!!.

إلى هنا والأمر قد يكون عاديا كحال معظم الجرائم.. ولكن!!!.. رحت أبحث على عجالة عن المسدس.. فلم أجد شيئاً!!!.. أصدرت أوامري بعدها لرجال الشرطة بالبحث عن سلاح الجريمة في الغرفة بأكملها.. ثم توجهت لرجال الإسعاف أسألهم عن تفاصيل ما حدث.. وكان شبيها بما قالته الزوجة.. وقد أكدوا بالطبع أنهم لم يلمسوا شيئا في الغرفة بعد أن تأكدوا من وفاة الزوج.. حيث تركوا كل شيء كما هو عليه لغاية وصولي.. هذا الإجراء معروف ولا يخفى عليهم.

أنهيت حديثي معهم قبل أن يخبرني رجال الشرطة أنهم لم يعثروا على أي مسدس في الغرفة!!!.. هذا غريب.. غريب جدا.. أعرف أن هناك نافذة في الغرفة على افتراض أن قاتلا ما قد اقتحمها وقتل الزوج ثم هرب.. ولكن النافذة مغلقة من الداخل أيضا ومدعمة بقضبان للحماية كما علمنا من الزوجة.. أي أن دخول القاتل من الشباك أمر مستحيل بكل المقاييس.. فإزالة قضبان الحماية يتطلب وقتا.. ولا يمكن أن يحدث هذا أمام مرآى ومسمع الزوج.

نظرت حولي بدقة محاولا ملاحظة أي شيء غير عادي.. التساؤلات بدأت تغزو عقلي بعنف.. فإذا كنا أمام جريمة قتل.. كيف ارتكب القاتل جريمته وهرب طالما أن النافذة مغلقة من الداخل وباب الغرفة كذلك؟!.. وإذا كان الأمر لا يتجاوز الانتحار.. فأين هو السلاح الذي استخدمه المنتحر؟ ؟!.. لا أعرف!!!.

أخذت نفسا عميقا ثم ذهبت للحديث مع الزوجة قليلا وهي لا تزال تبكي.. و:

- سيدتي.. أعتذر عن أسئلتي هذه.. أعرف أنك ملتاعة لموت زوجك.. لكن يجب التحقيق في كل ملابسات القضية.. إننا نفعل هذا لتحقيق العدالة.. أخبريني أرجوك.. هل لاحظت أي شيء غير عادي في البيت منذ الأمس وحتى استيقاظك في الصباح؟؟!!.

هزت رأسها نفيا وهي تنظر إلي بعينين دامعتين.. ثم سألتها مرة أخرى:

- هل لديكما أبناء؟؟!.

قالت بأسى:

- ولدان.. وهما يدرسان في (الولايات المتحدة الأمريكية).. يا إلهي.. لا أعرف كيف سأخبرهما بما حدث.. لا أعرف!!!.

تنهدت وأنا أنظر إليها بتوتر أصابني لأول مرة رغم كل الجرائم التي حققت بملابساتها في الماضي.. المشكلة أنني لا أعرف كيف أبدأ.. لأنني لا أعرف أصلا إن كنا أمام جريمة قتل أو انتحار!!!.

طرحت أفكاري جانبا وأنا أسأل الزوجة مرة أخرى:

- وماذا عن الخادمة؟!..

ردت وهي تمسح دموعها التي باتت تملأ وجهها كل بضع ثوان:

- كنت أبكي وأصرخ بعد عثورنا على جثة زوجي في الداخل.. ولا أعرف ما كانت تفعله الخادمة حينها.

سألتها بنفاذ صبر:

- حسنا.. أين كانت عندما استيقظت من النوم قبل اكتشافك جثة زوجك؟!.. حاولي أن تتذكري أرجوك.. قد يكون لها دور مهم في القضية.

ردت وهي تحاول أن تتذكر:

- ربما كانت في المطبخ تعد طعام الإفطار.. ثم جاءت إلي مسرعة بعد أن سمعت طرقاتي العنيفة على باب غرفة المكتب.. قبل أن أقرر الاتصال بالطوارئ.. واتصلت أيضا بشقيقتي التي جاءت مسرعة مع زوجها!!.

طلبت منها التحدث مع الخادمة.. حيث توجهت إلى المطبخ لأجدها هناك جالسة متكورة على نفسها وهي تبكي بحرقة من هول ما رأت.. كانت من جنسية آسيوية وكانت تتحدث

الإنجليزية بشكل جيد لحسن الحظ.

سألتها عن تفاصيل ما حدث.. فلم تكن إجابتها مختلفة عما قالته سيدة البيت.. ثم سألتها بشك:

- متى ذهبت إلى الفراش في الأمس.. ومتى استيقظت من النوم؟!.

ردت بخوف واضح كما هو الحال مع الجاليات الأجنبية في (الكويت) حين تتعامل مع رجال الأمن:

- لقد قمت بأعمال البيت المعتادة.. ثم قمت بتنظيف الأطباق في التاسعة مساء بعد انتهاء سيدي مع زوجته من تناول وجبة العشاء.. وذهبت بعدها إلى الفراش في العاشرة.

سألتها بشرود دون أن أنظر إليها:

- هل هناك خدم آخرون في البيت؟!.

قالت وهي تتلعثم بشكل واضح:

- لا.. كان لدينا سائق.. لكن سيدي طرده بسبب إهماله للسيارة.

قلت مفكرا بصوت مرتفع:

- غريب.. بيت بهذا الحجم تقوم على خدمته خادمة واحدة فقط؟!.

ردت بسرعة وكأنها تنفي عن نفسها تهمة:

- إنني أخدم شخصين فقط.. وسيدي يقضي معظم وقته في العمل أو في المكتب.. فلا أعتقد أنهم بحاجة لأكثر من خادمة.. فأنا قادرة على أعمال البيت.

أومأت برأسي متفهما.. ثم تركتها في المطبخ بعد أن تأكدت أيضا أنها لم تسمع صوت إطلاق نار.. وذهبت إلى الصالة مرة أخرى للتحدث مع الزوجة شاعرا أن هناك خيوطاً كثيرة مفقودة في هذه القضية.. حقائق كثيرة واضحة لكنها تزيد الأمر غموضا في تناقض عجيب.. جريمة تحدث

في غرفة مغلقة من الداخل بالمفتاح.. والشباك مغلق من الداخل كذلك ومدعم بقضبان للحماية.. والقتيل موجود داخل الغرفة ومصاب بطلق ناري في حين لا نجد أي أثر للمسدس.. هل.. هل هي جريمة قتل أم انتحار؟ !!.. يا إلهي.. إنها معضلة حقيقية يبدو لي أن لا حل لها!!!.

توجهت إلى الزوجة التي كانت تجلس في الصالة مع شقيقتها وزوج شقيقتها حيث ساد المكان توترا واضحا. فسألتهم بعض الأسئلة التقليدية.. إن كان لهم أعداء.. إن كانوا يمرون بضائقة مالية.. وإذا ما كان هناك تأمين على حياة زوجها.. هذه أسئلة لا بد من كل رجل شرطة أن يطرحها كما تعلمون.. وغالبا ما يكون الرد سلبيا.. لكني فوجئت بالزوجة وهي تومئ برأسها إيجابا وتمط شفتيها ألما.. لتقول:

نعم.. زوجي كان يمر في الواقع بأزمة مالية طاحنة.. ولكن.. لا أعتقد أن هناك تأمينا على حياته.. إنه لم يخبرني بهذا من قبل!!!.

نظرت إليها بشك واضح.. إذاً.. لقد كان يمر بأزمة مالية بالفعل.. قد يؤدي هذا إلى شيء لكني لا أعرف ما هو حتى الآن.. وأمام صمتي وتفكيري العميق.. سألني زوج شقيقتها بغضب وقد فهم مغزى سؤالي:

- وماذا سيعني مرورهما بأزمة مالية؟ !!.. إن القتيل رجل مستقيم وهو صديق لي لم يشرب الخمر يوما ولم ينقد وراء ملذات الحياة.. وهو رجل مؤمن يستحيل أن يكون قد انتحر لو كان هذا ما ترمي إليه.. ثم إنه لم يكن ليلصق العار بزوجته وولديه اللذين يحبهما أكثر من أي شيء آخر.

نظرت إليه.. ثم قلت بشرود:

- لا يمكن أن أستبعد أي احتمال لمجرد أنك تعرف القتيل جيدا.. ولكن.. أصدقك القول.. من الصعب إثبات انتحاره لو كان قد انتحر فعليا.. ومن الصعب أيضا إثبات وقوع جريمة قتل.. لا أستطيع توجيه الاتهام لأحد دون معرفة طريقة ارتكاب الجريمة.. ودون العثور على السلاح المستخدم على الأقل.. إنني أعترف.. نحن أمام مأزق حقيقي!!!.

نظرت إلي الزوجة بوجه شاحب من شدة البكاء.. ثم قالت:

- هل سيفيد الطب الشرعي بشيء؟!.

زفرت بقوة وأنا أقول:

- لا أعتقد.. ولكن.. لن نستبق الأحداث.. فالأمر قد يحتاج إلى المزيد من التحقيقات!!.

استأذنتهما الخروج وذهني شارد تماما بتفاصيل ما حدث!!.. إنها المرة الأولى في حياتي التي أمر فيها بجريمة كهذه!!.. فأنا أجهل ملابساتها تماما.. لكن.. هناك أمر هام يجب التأكد منه.. هل يمتلك الزوج تأميناً على حياته؟!.. لا أعرف كيف ستفيد الإجابة.. لكني يجب أن أحاول على الأقل.

إنها جريمة بالغة الغرابة بحق.. وتتحدى أذكى الأذكياء.. طوال حياتي وأنا أقرأ القصص البوليسية.. بل وأشاهد مسلسل المحقق (كونان) الشهير رغم سخرية الأصدقاء!!!.. حتى إنني تعلمت منه أمورا كثيرة ساعدتني في بعض القضايا التي مررت بها.. لكن هذه القضية مختلفة دون شك.. إنها مغلقة تماما من جميع الجوانب.

خرجت من البيت.. أو (مسرح الجريمة) - كما نقول دائما- متجها إلى المكتب بعد انتهاء رجال الطب الشرعي من فحص المكان.. وبعد أخذ الجثة إلى المشرحة لمزيد من الفحوصات.. وظللت طوال الأيام الثلاثة التالية أفكر بأبعاد تلك الجريمة.. حتى إنني زرت البيت مرة ثانية وثالثة.. وقد عرفت أن هناك تأمينا على حياة الزوج بالفعل وبقيمة مليون دينار!!!.. إنه مبلغ هائل كما ترون.. لكنه لا يجيب على التساؤلات التي طرحتها أكثر من مرة.. فمن دون معرفة إن كنا بصدد جريمة قتل أو انتحار.. لن نتقدم أي خطوة إلى الأمام.

لقد شككت للحظة في الزوجة.. نعم.. ربما قتلت زوجها للحصول على مبلغ التأمين كما يحدث في جرائم كثيرة.. لكن التحريات أثبتت أن علاقتها بزوجها قوية جدا وأن أسرتهما متماسكة ولا يعانيان من أي مشاكل زوجية تستحق القتل.. لكن هذا لن يلغيها من قائمة الشبهات على كل حال.. فلا بد أن يكون هناك مستفيد من كل ما حدث.. من هو يا ترى؟!!.

وبالطبع.. لم أنسَ الاتصال بولدي القتيل في (الولايات المتحدة الأمريكية) بعد أن تلقيا الخبر الصادم من والدتهما.. وسألتهما كل ما يخطر على البال من أسئلة.. لكن.. لا شيء أيضا.. لا شيء على الإطلاق!!.. وقد عرفت أيضا أنهما سيعودان إلى (الكويت) قريبا للبقاء إلى جانب والدتهما.. لكنهما يخوضان حاليا مرحلة حرجة وحاسمة في دراستهما الجامعية وسيعودان بعد حوالي شهر.. لن يكون الأمر سهلا عليهما دون شك.

ظللت أبحث عن طرف الخيط بإصرار شديد وعن الحلقة المفقودة في هذه القضية.. لكني اكتشفت في النهاية أنني أدور في دوامة جمع المعلومات لأيام طويلة دون فائدة تذكر!!.. إلى أن جاءني ذلك الاتصال الهاتفي بعد مرور بضعة أسابيع على تلك الجريمة.. اتصال هاتفي غير متوقع كشف لي كل شيء دفعة واحدة وزادني ذهولا في نفس الوقت!!!.

نعم.. إنها الخادمة.. لقد تم القبض عليها بناء على شكوى من الزوجة.. تقول الزوجة إنها عثرت على خادمتها في حديقة المنزل الخلفية وهي تسلم رجلا من جنسيتها حقيبة تحوي حوالي 5000 دينار.. وقد اتضح أن هذا الرجل هو شقيق الخادمة وهو يعمل جرسونا في أحد المطاعم الشهيرة في (الكويت)!!!.

تقول الزوجة أيضا إن هذا جعلها تفتش في أغراض الخادمة علها تكون قد سرقت شيئا آخر.. فعثرت على تذكرة سفر بين أغراضها!!!.. لقد كانت تنوي الهرب من البلد خلال الأيام القادمة.

لم أكذب خبرا.. بل ذهبت كالمجنون لزيارة الزوجة بعد أن سيطرت تلك القضية على تفكيري طوال الفترة الماضية.. و.. وصلت إلى بيتها لأجد الخادمة منهارة تماما تتوسل إلى الزوجة أن تغفر لها.. ثم تتوسل إلي أن أستر عليها!!.. أستر عليها من ماذا بالضبط؟!.. لا أعرف.. لكني سأعرف الآن كما يبدو!!.

جلست في صالة البيت بوجود الزوجة والخادمة.. فسألت الزوجة وأنا أختلس النظر إلى غرفة المكتب التي وجدنا فيها جثة زوجها:

- هل دخل أحد إلى غرفة المكتب منذ ارتكاب الجريمة؟!.

هزت رأسها نفيا وهي تقول بانكسار:

- بالطبع لا.. لقد قمت بإغلاق الباب وقفله بعد أن أنهيتم عملكم.. ولم أفتحه منذ ذلك الحين.. إنني أنتظر عودة ولديّ إلى (الكويت) بعد أيام قليلة من الآن حتى يتصرفا.. أصبحت أمقت

البيت كثيرا ولا أطيق البقاء فيه.

هززت رأسي متفهما ثم سألتها:

- لماذا لم تقيمي عند شقيقتك أو أحد أقاربك؟!.

ردت وهي تتنهد:

- لقد رجتني شقيقتي أن أفعل لكني رفضت.. أخشى أن أكون ضيفة ثقيلة على زوجها رغم أنه أصر بدوره على أن أنتقل للإقامة عندهما إلى أن يصل ولداي على الأقل.. وأمام رفضي المستمر.. أصرت شقيقتي أن تقيم هي في منزلي إلى حين عودة ولديّ.. وهي التي كشفت الخادمة تقدم ذلك المبلغ إلى شقيقها.

أومأت برأسي متفهما.. ثم سألتها:

- وأين هي شقيقتك؟!!.

قالت ببساطة:

- لقد خرجت لإيصال ولدها إلى أحد أقاربنا.. ستعود بعد قليل.

قلت بحزم:

- ربما سأحتاج إلى الحديث معها.. ولكن.. فلنؤجل هذا الآن.

قلتها وأنا ألتفت إلى الخادمة التي كانت تجلس منهارة تماما ووجهها قد امتلأ بالدموع.. لم يعد هذا المنظر يثير شفقتي كثيرا.. فكل قاتل أو سارق قبضت عليه أراه بهذه الصورة.. دعكم من أنه لم يثبت أي شيء عليها حتى الآن.. فالزوجة تقول إنها لا تملك هذا المبلغ في البيت أصلا.. ولم تفقد هي أو زوجها أي أموال طوال السنوات السابقة.. أي أن المبلغ لم يُسرق من البيت.. ولكن.. وجود مبلغ كهذا في حوزة خادمة لا يتجاوز راتبها 60 دينارا أمر يثير الشكوك بكل تأكيد.

أشرت إلى الخادمة أن تقترب وتجلس بجانبي.. ثم قلت لها بإنجليزية سليمة تماما وبصرامة واضحة:

- إنك الآن في مأزق حقيقي.. فأنت تملكين مبلغا كبيرا من المال يوازي راتبك لـ8 سنوات تقريبا!!!.. كما أن لقاء شقيقك عند باب البيت لتسليمه المال أمرا يثير الشكوك أيضا.. ولا تنسي الحادثة الرئيسية.. مقتل صاحب البيت.. فكل هذه الملابسات ستوجه أصابع الاتهام ناحيتك.. إنك في موقف لا تحسدين عليه ما لم تعترفي بكل شيء بنفسك!!!.

ازداد انهيارها أمام كلامي هذا.. وراحت تبكي بصوت أزعجني كثيرا.. فآثرت منحها بعض الوقت كي تخرس.. وسألت زوجة القتيل باهتمام:

- منذ متى تعمل لديكم هذه الخادمة؟ !!..

ردت بأسى واضح متعاطفة مع بكاء خادمتها:

- منذ 5 سنوات تقريبا.. وهي خادمة أمينة ومخلصة لم نشتك منها يوما.. إنني ما زلت عاجزة عن تصديق ما يحدث.. لا يمكن أن تكون قد سرقتنا!!!.. إننا حتى لا نملك هذا المبلغ في البيت كما أخبرتك.. وقد تأكدت من مجوهراتي ولم أجد فيها شيئا ناقصا.. هناك أمر لا أفهمه.. وهي لا تريد أن تخبرني بشيء.

أغاظني دفاع الزوجة عنها وهي التي عثرت على مبلغ يثير الشبهات بحوزتها!!!.. لكني نظرت إلى الخادمة بحزم ثم قلت بقسوة متعمدة:

- كلام سيدتك هذا لن يفيد كثيرا.. إنني مضطر إلى اتهامك بالسرقة وربما بجريمة القتل ما لم تعترفي بكل شيء.. ماذا تقولين؟!.. السكوت لن يفيدك.

استمرت في بكائها ودفنت وجهها بين راحتي كفيها.. و.. يبدو أن لحظة الانفجار قد حانت.. إذ نظرت إلي فجأة ثم قالت بوجه ممتلئ بالدموع:

- أنا لم أسرق شيئا.. لقد أعطاني سيدي صاحب البيت هذا المال!!!!.

انتفض جسدي بقوة وأنا أنظر إليها.. ثم سألتها وأنا أنظر إلى عينيها مباشرة:

- لماذا؟!.. هل كانت بينكما علاقة ما؟!!.

اختلست النظر إلى الزوجة فوجدتها تنظر إلي باستنكار واضح.. لكني لم أكترث.. بل نظرت إلى الخادمة بصرامة.. فأومأت برأسها إيجابا!!!!.. عندها فقط.. انقضت عليها الزوجة وهي تصرخ بجنون مفاجئ:

- أيتها الحقيرة.. أيتها اللعينة.. كنت تخونيني مع زوجي؟ ؟!.. أنا التي عاملتك كأحد أفراد العائلة منذ لحظة مجيئك إلى هنا.. أيتها (.....).. يا بنت (......)!!.

وسيل هائل من الشتائم والاتهامات وهي تضرب الخادمة بكلتا يديها!!.. في حين راحت الخادمة تصرخ:

- أنا لم أفعل شيئا.. لم أفعل شيئا.. ليس الأمر كما تظنين!!!.

وقفت بينهما كي أحمي الخادمة من الضرب.. قبل أن تسقط الزوجة أرضا وهي تبكي جراء هذه الصدمة!!!.. فسألت الخادمة بصوت مرتفع:

- ما طبيعة العلاقة بينك وبين القتيل؟ ؟!.. هل كانت علاقة جنسية؟ !!..

لوحت بكفها مذعورة وهي تنفي هذا.. ثم قالت بسرعة:

- لقد دفع لي سيدي هذا المال مقابل مساعدتي له!!!.

كان هذا الكلام كفيلا بجذب اهتمامي واهتمام الزوجة التي كفت عن البكاء فجأة وراحت تحدق في الخادمة التي أكملت:

- لقد دفع لي هذا المبلغ لأعاونه على تنفيذ عملية انتحاره!!!..

لا يمكن لأحد منكم أن يتوقع قوة الصدمة التي أصابتني مع الزوجة!!.. فقد رحنا نحدق بالخادمة بلهفة شديدة وكأننا ننتظر منها المزيد من الشرح.. قبل أن تزيد الدموع انهمارا من عينيها - أو هذا ما بدا لي على الأقل - وتقول:

- بدأ كل شيء منذ حوالي 3 شهور.. حين جاء إلي سيدي وهو يخبرني بأنه على استعداد لتغيير حياتي رأسا على عقب.. وأنه مستعد أن يقدم لي مبلغ 5000 دينار مقابل خدمة!!!.. بالطبع صدمني هذا المبلغ كثيرا.. فهو هائل بمقاييس بلدي ويحل جميع مشاكلي المادية إلى الأبد.. لم أفكر إطلاقا أن سيدي يريد أن يقدم لي هذا المبلغ مقابل خدمة جنسية رخيصة.. لأنه رجل محترم لم يتعرض لي يوما.. لذا كنت أعلم أنه سيطلب أمرا آخر لكنه سيكون صعب التنفيذ..

وإلا لما عرض علي هذا المبلغ أصلا!!!.

ساد المكان صمتاً مهيباً وأنا أتطلع إليها منتظرا المزيد.. أما الزوجة فكانت في أسوأ حال ممكن وهي تكتشف للتو أن أمورا كثيرة كانت تجري في البيت دون علمها.. المهم أن الخادمة أردفت وقد بدا أنها مستعدة تماماً لكشف كل شيء:

- لقد خرج سيدي ذات ليلة في وقت متأخر نسبيا واتصل بي على هاتفي النقال حتى

يتمكن من محادثتي بعيدا عن شكوك سيدتي.. وأخبرني أنه على وشك الإفلاس لأنه يمر بأزمة مالية خسر بسببها مبالغ طائلة.. وهو يخشى كثيرا على مصير زوجته وولديه اللذين ينفق على دراستهما في الخارج.. لقد أثار استغرابي كثيرا اتصاله هذا ومصارحتي بمشكلته.. لكني فهمت سريعا بعد أن أخبرني أنه لا يوجد سوى حل أخير.. وهو أن يموت ويضحي بحياته لتنتهي مشاكله وتحصل زوجته وأولاده على مبلغ التأمين.. مليون دينار اشترى من خلالها وثيقة تأمين على حياته.. وهو مبلغ ضخم سيتم من خلاله دفع ديونه بأكملها وسيتبقى منه ما يكفي لضمان مستقبل زوجته وولديه!!!.. لكنه لا يستطيع أن يقتل نفسه بالطبع.. لأنه في هذه الحالة سيخسر قيمة التأمين.. لذا.. لم يكن لديه سوى حل أخير.

ساد الصالة صمت مخيف بعد هذا الكلام!!!.. وراحت الزوجة تنظر إلينا بعينين زائغتين غير مصدقة ما تسمعه.. ثم:

- كان هذا الحل يكمن في انتحاره مقابل مساعدتي له كي يبدو الأمر وكأنه جريمة قتل!!!.. لقد رفضت بشدة في بادئ الأمر رغم أن المبلغ الذي عرضه علي كان مغريا بحق.. إلا أنني وافقت بعد عدة أيام بسبب إلحاحه الشديد وترغيبي في هذا المبلغ الذي سيقدمه لي وكيف أنه سيغير حياتي إلى الأبد!!.

سألتها مبهورا:

- كيف حدثت الجريمة؟ ؟!.. أي خطة شيطانية تلك التي اقترحها عليك؟؟ ؟!.. أشعر أنني سأموت من الفضول إذا لم أعرف!!!.

ردت وهي تزفر بتوتر:

- لقد أخبرني بأنه سيطلق النار على نفسه في غرفة المكتب بمسدس صامت.. وفي نقطة معينة من صدره قريبة من قلبه.. وعلي بعدها أن آخذ المسدس بسرعة وأخرج من الغرفة.. ثم سيصارع الموت ليذهب ويقفل الباب من الداخل.. ويعود بعدها ليرتمي وسط الغرفة حيث سيموت بهدوء!!!.. وكان علي بعد ذلك أن أتخلص من المسدس.. كل هذا ليبدو الأمر وكأنه جريمة قتل معقدة جدا ومعضلة لا حل لها!!!.. فسلاح الجريمة هو كلمة السر في القضية كلها كما كان يقول سيدي.. ولو عثر رجال الشرطة على المسدس في الغرفة لتبين أن الأمر لا يتعدى جريمة انتحار وسيخسر سيدي مبلغ التأمين.. أما لو اختفى السلاح.. ومع غلق الغرفة بالمفتاح من الداخل.. ومع إغلاق النافذة أيضا من الداخل.. سيظل الأمر لغزا مبهما لا حل له!!.

كيف ابتكر المرحوم - إن جاز إطلاق لقب (مرحوم) عليه - هذه الوسيلة العبقرية؟ !!.. هذا لا يصدق.. لا يصدق.. نظرت إليها مبهورا بتلك الفكرة العجيبة.. لتكمل الخادمة:

- كانت المشكلة الوحيدة هي قدرة سيدي على تحمل إصابته بطلق ناري مميت ومقاومة آلامه كي ينهض ويغلق باب الغرفة من الداخل بالمفتاح ثم يعود إلى وسط الغرفة لينزف حتى الموت..

إنه أمر بالغ الصعوبة ويحتاج إلى إرادة جبارة.. إرادة لا تخفى على أحد.. لكنه فعلها!!!.. يبدو أن حبه لأسرته لا يفوقه شيء!!!.

انتهت من كلامها وهي تكمل بكاءها وقد شعرَت أن ما خططت له مع المرحوم قد فشل.. فهو سيفقد أموال التأمين بعد كشف ملابسات القضية.. والخادمة ستنال عقوبتها بالتأكيد لمشاركتها في إخفاء معلومات مهمة عن هذه الجريمة.

رحت أختلس النظر إلى الخادمة وهي تبكي.. وأنظر إلى زوجة المرحوم التي أصبحت تمثالا صامتا لهول ما سمعت وللتضحية المذهلة التي قام بها زوجها.. حقا أن أعقد الأمور أبسطها كما يقولون.. وبدا هذا واضحا في قضيتنا كما ترون.. وأعتقد أنني أعرف الآن لماذا لم يستأجر الزوج أحدا ليقتله بدلا من اللجوء إلى خطة صعبة التنفيذ كهذه.. إذ يبدو أنه كان يريد تحمل المسؤولية كاملة.. ولم يكن يريد أن يورط أحداً في جريمة قتل حقيقية قد تودي بمرتكبها إلى السجن لسنوات طويلة.. فكل ما تورطت به الخادمة في قضيتنا هذه هو إخفاء معلومات عن رجال الشرطة فحسب وإخفاء السلاح الذي استخدمه المنتحر.. كما أنني لا أعتقد أن المرحوم كان سيغامر بإدخال قاتل إلى بيته ويعرض زوجته - ربما - إلى الخطر.

لذا.. ربما وجد أن الحل الأفضل هو القيام بما فعله ليكون مسؤولا وحده عن القضية بأكملها.. وليضع الشرطة في حيرة شديدة.. فلا نعرف حينها إن كانت القضية انتحارا أو جريمة قتل.. وبالطبع كنا سنميل إلى جريمة قتل ارتكبها قاتل ما بدهاء شديد.. وهذا ما كان الزوج يريدنا أن نظنه.. لكن.. انكشف كل شيء الآن.

وأمام هذه المفاجأة.. سكتنا جميعا.. سوى الزوجة التي راحت تردد بصوت مذهول:

- يا إلهي.. زوجي الحبيب!!!.. فعلت كل هذا من أجل أسرتك!!.. كل هذا.. كل هذا!!!.. لا أصدق ما فعلته من أجلنا.. لا أصدق تضحيتك هذه.. أنك.. إنك ...

لم تكمل عبارتها.. إذ راحت تجهش بالبكاء دون توقف حتى تحولت الصالة إلى مأتم.. و.. أصدقكم القول أنني شعرت بصدمة بالغة جراء ما سمعته.. فوجود جريمة في غرفة مغلقة بالتفاصيل التي ذكرتها لكم هي كابوس حقيقي لرجال الشرطة.. وقد شعرت أنني ولأول مرة عاجز تماما عن كشف الغموض المحيط بها.. وما زلت أعترف بعجزي.. فأنا لم أكشف ملابسات القضية بنفسي.. ولا أعتقد أن هذه الطريقة العبقرية في الانتحار كانت ستمر في ذهني أصلا.. أقولها بكل صدق!!!.

وأصدقكم القول أيضا أنني تأثرت كثيرا لتضحية الزوج بحياته من أجل زوجته وولديه.. ووجدت نفسي تائها لا أعرف الإجراء الذي يجب اتخاذه.. هل أبلغ السلطات بما حدث وأقوم بواجبي لتذهب تضحية الزوج هباء؟؟!!.. أم أخون شرف مهنتي وأتغاضى عن الأمر وكأنه لم يكن؟!!.

لقد.. لقد.. لقد اخترت الحل الثاني.. نعم.. لقد قمت بخيانة شرف مهنتي كي لا تذهب تضحية الزوج هباء!!!.. لكني لم أحتمل هذه الخيانة التي أقوم بها لأول مرة منذ تخرجي من كلية الشرطة منذ 30 عاماً تقريبا.. لذا فقد أحلت نفسي إلى التقاعد.. ووافق عليه المسؤولون وسط استغرابهم الشديد بسبب معرفتهم السابقة بعشقي الشديد لمهنتي!!!.

لقد كان ما فعلته خطيرا بالطبع.. ولو كشف المسؤولون أمري فستكون كارثة.. لكن - لحسن الحظ - لم يعرف أحد بأمر تضحيتي تلك سوى الزوجة التي استفادت من قيمة التأمين بعد أن

قيدنا القضية ضد مجهول.. والخادمة التي طلبت منها الرحيل إلى بلدها في أسرع وقت.. بعد أن قامت بتسليم المبلغ إلى شقيقها كي يقوم بتحويله إلى بلدها بطريقته الخاصة ودون أن يثير الأمر شكوك السلطات بوجود مبلغ كهذا بحوزته.

لقد كادت تلك القضية أن تكون شبيهة تماما بقضية (إزيدور فينك) ([14]) الشهيرة التي لا تزال لغزا مبهما.. لولا اعتراف الخادمة وكشفها لكل شيء.. إنني أتساءل الآن.. هل ما حدث في قصتنا هذه شبيه بما حدث في قضية (إزيدور فينك)؟ !!.. ربما.

المهم الآن أنني كشفت كل شيء وأغلقت ملف القضية.. ليس بشكل رسمي طبعا.. فما جرى كان خلف الكواليس.. ولا أنسى أيضا أن أذكر أن الزوجة قد شكرتني كثيرا لما فعلته من أجلها هي وولديها.. بل إن ولديها قد قاما بزيارتي في منزلي بعد وصولهما إلى (الكويت).. فقط لتوجيه عبارات الشكر لي على وقوفي إلى جانبهم كي لا تذهب تضحية والدهما هباء.. كما شكرتني الخادمة كثيرا أيضا.. وكادت أن تقبل يدي قبل رحيلها إلى بلدها.. لكني لم أكن سعيدا.. إذ كنت أمام خيارين أحلاهما مر كما يقولون.. ولا أعلم حتى الآن إن كان ما فعلته هو الأنسب.. لكني أعلم جيدا أنني قد خنت شرف مهنتي بسبب تلك القضية التي تمت بذكاء غريب مبهر وبتضحية لا تصدق من الزوج الذي خطط لكل شيء.. ومات منتحرا في بيته.. وفي الغرفة المغلقة.

الزائر

عزيزي القارئ.. لا أعرف إن كان يجدر بي أن أروي لك قصتي هذه أم لا.. فهي قصة غريبة جدا.. وتفجر كل علامات الاستفهام من حولك.. كما أنني أعي جيدا أن الإنسان عدو ما يجهل.. وأن الرفض عنده يسبق التصديق دائما.. لذا لا أظن أنك ستصدقني.. خاصة وأنني طبيب نفسي وأخشى أن تظن أنني قد جننت أخيرا بعد أن تأثرت بالمرضى النفسيين الذين ألتقي بهم كل يوم في المستشفى.. لكني - بعد تفكير طويل - وجدت أن لا داعي أبدا للخوف من اتهامي بالكذب.. فما سأرويه هو الحقيقة.. حتى وإن أظهرتني كاذبا أو مجنونا.

لقد بدأ كل شيء منذ 3 سنوات تقريبا.. عندما دخلت الممرضة مكتبي لتخبرني أن هناك شرطيين في الخارج يطلبان الدخول.. وبرفقتهما رجل كبير في السن يبدو أنهما يريدان التأكد من حالته العقلية.. وهو أمر يحدث كثيرا إن كنتم لا تعلمون.. فهناك تواصل دائم لا ينتهي تقريبا بين مستشفى الطب النفسي ووزارة الداخلية حول أمور كهذه.. وغالبا ما يتضح في النهاية أن من نظنه مجنونا أو مختل عقليا هو في واقع الأمر مجرد متهم يتصنع الجنون كي يهرب من تهمة ما.. لذا فقد أشرت للممرضة بملل أن تسمح للشرطيين بالدخول ومعهم المتهم.. أو المريض!!.

لحظات قليلة قبل أن أفاجأ بدخول شيخ يتجاوز عمره ال70عاما كما بدا لي للوهلة الأولى.. وبرفقة شرطيين يرتديان زيهما العسكري وتبدو الجدية واضحة على ملامحهما.. صافحني الشرطيان باحترام شديد ورحبت بهما باحترام متبادل.. ثم ألقيت نظرة أخرى أكثر دقة على الشيخ الذي جاءا به.. فشعرت بشفقة حادة تجاهه.. إذ كان نحيلا للغاية وقد ملأت التجاعيد وجهه.. كما أن الشيب قد حرق شعر رأسه تماما.. الغريب في الأمر أن نظراته بدت لي منهكة مرهقة بحق.. ليس بسبب عامل السن فحسب.. بل لسبب آخر لا أفهمه.. لقد بدا ذلك واضحا من خلال عينيه اللتين تشاهدان العالم من خلال نظارة سميكة للغاية.

قام بعدها الشرطيان بتسليم الرجل وإخباري بضرورة الكشف عليه والتأكد من حالته العقلية.. وقدما لي كتابا رسميا من وزارة الداخلية يتضمن هذا الطلب.. مع ضرورة إبلاغهم عن نتيجة الفحوصات في أسرع وقت ممكن.

أومأت برأسي إيجابا.. وتركتهما يرحلان بعد أن حصلت منهما على أرقام هواتفهما تحسبا لأي طارئ.. ثم طلبت بعدها من الشيخ وبأدب شديد - احتراما لسنه - أن يجلس على الكرسي المقابل لمكتبي.. فشكرني كثيرا على ذلك وكأنني أسديت إليه معروفا لا ينسى.. حتى إنه أثار شفقتي أكثر وأكثر.

دقائق من الصمت سمحت له فيها بالاسترخاء.. ثم قلت بهدوء أمام نظرات الحزن والأسى التي سيطرت عليه:

- مرحبا بك يا سيدي.. تأكد أنني سأعطيك كل ما تحتاجه من اهتمام ورعاية واحترام.. لا شك أنك تعلم لماذا أنت هنا.. وأعرف جيدا أن أقوالك مكتوبة في الكتاب الرسمي الذي تسلمته من رجال الشرطة للتو.. والذي سأقرؤه لاحقا بكل تأكيد.. لكني أريد أن أسمع القصة منك شخصيا إن كنت لا تمانع.. لماذا قام رجال الشرطة باحتجازك؟!!.

قال بصوت مبحوح وبكلمات مبعثرة سببها تساقط معظم أسنانه:

- لم أفعل شيئا يا ولدي.. كنت في أحد الشوارع أنظر حولي بقلق وتوتر ولا أعرف من أين أبدأ طريقي.. فاستوقفني أحد رجال الشرطة ظنا منه أنني أعاني من مشكلة ما.. ربما خرف الشيخوخة.. أو الزهايمر كما سمعته يقول!!!.

راح بعدها يسعل بشدة.. قبل أن يكمل:

- لقد طلب مني الشرطي هويتي الشخصية.. لكني لا أملك أي إثبات رسمي لأسباب أخبرته بها.. إلا أنه لم يصدقني.. بل ابتسم بإشفاق أغاظني كثيرا.. واقتادني بعدها إلى المخفر.. حيث طالبني الضابط هناك بإبراز هويتي الشخصية.. فقلت له نفس الكلام الذي أخبرت به الشرطي.. ورجوته أن يصدقني وأن يستمع إلى قصتي كاملة.. لكنه لم يفعل.. بل اكتفى بسؤالي عن اسمي كاملا.. وراح يكتبه باهتمام على ورقة.. ثم طلب من زملائه استخراج المعلومات اللازمة عني.. لم يطل الأمر كثيرا.. إذ جاءه اتصال هاتفي بعدها بقليل يخبره أن اسمي ليس موجودا في السجلات الرسمية للدولة أصلا.. أي أنني لست موجودا في نظر القانون!!!.. لذا فقد ظن الضابط أنني أكذب أو أنني مختل عقليا.. وهذا ما جعلهم يأتون بي إلى مستشفى الطب النفسي.

هززت رأسي متفهما.. ثم سألته:

- وما هي أسباب عدم وجود أي إثباتات شخصية لك؟!!.

رد بحزن عميق:

- أرجوك أن تصدق ما سأخبرك به يا ولدي.. أنت طبيب.. ورجل علم.. فلا تأخذ الأمور بصورتها المجردة.. حاول أن تصدقني.. أرجوك.

قلت مبتسما بإشفاق:

- تذكّر أن رجال الشرطة طلبوا مني فحصك والتأكد من سلامة عقلك.. لذا فمن واجبي أن أقوم بعملي على أكمل وجه.. لست هنا لإصدار أي أحكام مسبقة إن كان هذا ما تخشاه.

عدل نظارته بارتباك وهو يقول:

- حسنا.. لقد.. لقد أتيت من المستقبل!!.

سألته مبتسما:

- ماذا تعني يا سيدي؟!.

رد بيأس:

- أتيت من المستقبل.. من عام 2085 ميلادية!!.

نظرت إليه محاولا منع نفسي من الابتسام.. ثم سرحت للحظة وأنا أغمغم بخفوت:

- ها هو نزيل جديد في المستشفى!!!.

لكن.. يجب أن أعترف أنها المرة الأولى التي أفحص فيها رجلا بهذا السن ويخبرني بأمر كهذا!!!.. فالشيوخ عادة لا يعرفون قصص الخيال العلمي كالسفر إلى المستقبل والعودة إلى الماضي وغيرها.. إنهم يأتون من جيل لم يتأثر بتلك النوعية من القصص.

مططت شفتي لا شعوريا.. ليقول وكأنه قرأ أفكاري:

- أفهمك تماما.. تقول في قرارة نفسك إنني مجنون كحال نزلاء المستشفى.. أليس كذلك؟ !!.. اسمعني أولا أرجوك.. إنني عالم فيزياء يا بني.. أحاول دائما كشف الألغاز المرتبطة بالزمن.. وقد قمت في عام 2065 ميلادية بعمل دراسة حول تعامل الدماغ البشري مع الزمن.. كنت دائما أتساءل.. لماذا تبدو الأوقات السيئة والمملة بالنسبة للإنسان وكأنها لن تنتهي أبدا.. في حين نجد أن أوقات الفرح تمر علينا بسرعة!!!.. فهل دماغنا يخدعنا؟؟!!.. هل إحساسنا بالزمن يخدعنا؟ !!.. حاول أن تقضي ساعة من الزمن برفقة فتاة جميلة.. فستجد أن الوقت يمر بسرعة البرق.. بينما لو تقضي تلك الساعة في الاستماع إلى محاضرة لا تهمك بشيء.. فستمر الساعة عليك وكأنها نصف يوم!!!!.. إن الزمن في الحالتين لم يتغير كما ترى.. ساعة واحدة فقط.. لكن دماغك ومشاعرك تقيسها بطريقة مختلفة في المرتين.. فالزمن الذي تقيسه الساعة لا يتشابه إطلاقا مع الزمن الذي نشعر به أثناء لحظات الفرح أو الحزن.. الأمر كله مرتبط بالدماغ وقياسه لتلك الأمور كما ترى.

نظرت إليه مبتسما لذكائه.. من جديد أكتشف أن العبقرية لا تدل على الاستقرار النفسي..

فعلى الأرجح تدل على العكس.. وها هو دليل مجسد أمامي!!!.. لذا سألته بشيء من الإعجاب:

- كيف واتتك تلك الفكرة الغريبة؟!.

قال بلا مبالاة:

- المهارة يا بني هي أن تصيب هدفا لا يمكن لأحد أن يصيبه.. أما العبقرية فهي أن تصيب هدفا لا يمكن لأحد أن يراه.. وهذا ما كنت أحاول فعله.

أعجبتني كثيرا سعة أفقه.. فأشرت له بهدوء أن يكمل بعد أن أثار اهتمامي كثيرا.. ليردف بنظرة امتنان:

- بالطبع لم تكن دراساتي هذه عبثا.. فقد قمت بها لأنني وجدت أن نسبة الانتحار في جميع دول العالم تقريبا تزداد عاما بعد عام ([15]).. إلى أن وصلت إلى نسبة مخيفة في زمني.. وكان سبب الانتحار الرئيسِ هو الاكتئاب.. فالاكتئاب دائما يزداد مع ضغوط الحياة وكثرة مسؤولياتها وتزايد عدد السكان.. لذا رحت أطرح أغرب سؤال قد يخطر على البال: إذا كانت أوقات الفرح تمر علينا سريعة بينما تمر الأوقات السيئة ببطء.. فكيف يمكننا أن نؤثر على دماغ الإنسان ونجعل الزمن يمر عليه بسرعة وكأنه برفقة فتاة جميلة طوال الوقت؟ !!.. بمعنى آخر.. كيف نؤثر على دماغ الإنسان لنجعله يشعر بالسعادة دوما؟!!.

سألته بفضول واضح وقد أمتعني حديثه بالفعل:

- لا يمكن لأحد أن يشعر بالسعادة دوما يا سيدي!!!.. لا بد أن تكون هناك لحظات حزن.. عند موت أحد الأقارب مثلا.. أو لأي ظرف آخر.

قال مدافعا عن فكرته:

- لا أتحدث عن مصائب محددة يمر بها الإنسان بين الحين والآخر يا ولدي.. بل أتحدث عن الشعور المعتاد بالاكتئاب والملل بسبب ضغوط الحياة والذي يؤدي في النهاية إلى قلة الانتاجية في العمل واليأس ومن ثم الانتحار!!!.. لقد أثبتت دراسات قديمة جدا أن الشعور بالسعادة يساهم إلى حد لا يصدق في تقليل الأمراض.. وهذا بالتبعية يقلل إلى حد لا يصدق أيضا من التكاليف الهائلة للعلاج!!!.. أنت طبيب نفسي وتعرف هذه الحقائق جيدا.. وتعلم ماذا

يمكن أن تصنع لك الابتسامة والابتعاد عن التجهم والاكتئاب.. الطب يقول إن الابتسامة الدائمة والضحك يساعدان على تحسن ضغط الدم.. والدورة الدموية ستعمل بشكل أفضل.. بل إن مناعة الجسم ضد الأمراض ستزداد.. وحتى المخ سيتمكن من الاحتفاظ بكمية كافية من الأكسجين مما سيكون له في النهاية آثارا إيجابية للغاية على وظائف القلب.. وبالطبع أيضا سيتسرب الهدوء والطمأنينة إلى النفس فنبتعد عن القلق والتوتر والصداع.. وتزداد قدراتنا الإبداعية ([16]).

سكت قليلا ولم أنتبه إلى سكوته إلا بعد لحظات.. فقد أبهرتني معلوماته العلمية بحق.. حدتى إنني سألته بحذر:

- ما هو عملك بالضبط؟!.. هل أنت طبيب نفسي؟!.

رد بأسى:

- أخبرتك يا بني أنني عالم فيزياء قادما من المستقبل مهما بدا ذلك غريبا!!!.

عالم فيزياء من بلدي؟ ؟!.. من (الكويت)؟ !!.. ومن المستقبل؟ !!.. هذا مستحيل طبعا.. لكنه قطع خواطري تلك وهو يكمل قائلا:

- كنت أقول إنني قمت بدراسة العلاقة بين الدماغ ومشاعر الفرح التي تجعلنا نشعر بمرور الزمن سريعا.. ورحت بعدها أطرح سؤالا بالغ الأهمية؟ !!.. فلو كانت لحظات الفرح تجعلنا نشعر أن الزمن يمر سريعا.. ماذا سيحدث لو عكسنا الأمر؟؟!!.. ماذا سيحدث لو قمنا بوسيلة ما بتقليل شعور الدماغ بالزمن.. هل هذا سيؤدي بالتبعية إلى شعور الإنسان بالفرح والابتعاد عن الاكتئاب؟ !!.. سؤال مهم للغاية تطلبت إجابته 5 سنوات من الدراسة المستمرة والبحث.. إلى أن توصلنا في النهاية إلى حل مبهر واختراع لا يصدق!!!.. حل قد تراه مضحكا ومستحيل الحدوث في زمنك الحالي 2011.. لكنه حقيقيا تماما في عام 2070.. الحل يكمن بتفجير قنابل كيميائية خاصة في غلافنا الجوي.. بحيث يؤدي انفجارها بكثافة إلى إحداث تفاعلات عنيفة وقوية تنتج غازا جديدا سيؤثر على عقل الإنسان بشكل إيجابي ويجعل دماغه يقيس الزمن كما يقيسه دائما في لحظات الفرح والسرور.. وهذا بالتبعية سيؤدي إلى إحساسه الدائم تقريبا بالسعادة.. وعندما تنتشر السعادة بين الناس سيتغير وجه العالم بأكمله.. إذ ستقل الكراهية بالتبعية وتقل الأطماع ويقل معدل الجريمة بشكل هائل.. ولا تنسَ ما تحدثنا عنه في البداية عن فوائد الفرح والابتسامة.. فصحة الإنسان ستكون أفضل أيضا وتقل أمراضه.. مما سيوفر مبالغ هائلة يدفعها الإنسان عادة للعناية الطبية!!!.

نظرت له طويلا وأنا أقول في سري:

- يا له من خيال جامح.. هذا العجوز لا يكف عن إبهاري.. إنه بحق أغرب مرضاي على الإطلاق.. وأكثرهم خيالا!!.

شعر الشيخ أنني سرحت في عالم آخر.. فقال بحدة:

- إن كنت تظن أن قصتي لا تصدق.. فاعلم أن أحد العلماء قد قام بعمل دراسة أشد تعقيدا في أواخر القرن العشرين.. وستجد معلومات كاملة عنها بسهولة لو بحثت في الانترنت.. إذ كان يتحدث في دراسته تلك عن خطة متكاملة لإعمار كوكب المريخ ومن ثم انتقال البشر إليه والإقامة فيه ([17]).

هذا الرجل لا يصدق.. إنه يملك من العلم ما لا يملكه أحد!!!.. لقد قرأت عن تلك الدراسة بالفعل.. كيف سمع بها؟ !!.. ثم.. طرأ في ذهني أمرا ما.. لأسأله بشك واضح:

- مهلا.. تقول إنك من المستقبل.. كيف عدت إلى الماضي ووصلت إلى زمننا الحالي؟!.. ولماذا لم تأتِ بشيء من المستقبل كي نصدقك؟ !!.. جهاز حديث مثلا.. هاتف.. أي شيء!!!.

رد بثبات:

- لقد جئت من خلال آلة زمن صنعها مجموعة من زملائي العلماء.. وهي أول آلة زمن في التاريخ.. حيث بلغت علوم الفيزياء تقدما مذهلا في زمني.. وقد صنع زملائي تلك الآلة من أجل مهمة محددة سأخبرك عنها بعد قليل.. أما بخصوص الشق الثاني من سؤالك.. فقد حاولت أن آتي بشيء يثبت أنني من المستقبل بالفعل.. لكن.. عند وضع أي جهاز إلكتروني في آلة الزمن.. سيقوم بالتأثير عليها بصورة سلبية ويوقف بعض أجهزتها عن العمل.. الأمر شبيه بما يحدث في الطائرات عندما يتم تحذيركم لإغلاق هواتفكم النقالة أثناء الإقلاع حتى لا تتأثر أجهزة الملاحة.. لقد حاولنا جاهدين أن نوجد حلا لتلك المشكلة.. لكن دون جدوى!!!.. كما أنني لم آتِ معي بأي أوراق أو إثباتات شخصية لأننا لا نستخدم تلك الأشياء في المستقبل أصلاً.. فكل شيء يعمل إلكترونيا في زمني.. إننا نستخدم نظام البصمة في جميع المعاملات.. المهم الآن.. الوقت يمضي ولا مجال للانتظار أكثر.. إن زيارتي هذه هي الأمل الأخير لكوكب الأرض.

قلت بقلق وكأنني صدقت بالفعل أنه جاء من المستقبل:

- عم تتحدث؟!.. أي أمل أخير هذا؟!.. ولماذا جئت إلى زمننا أصلا؟!.. وأين هي آلة الزمن تلك إن كنت قد جئت من خلالها فعلا؟!!.

رد بانفعال شديد:

- لقد أرسلتني الآلة إلى هنا ولم تأتِ معي.. تماما كما نرسل الفاكس.. أما عن سبب عودتي إلى زمنك.. فلأنني لم أكن أدرك حجم الكارثة التي صنعتها.. فرغم تجاربي الكثيرة التي أثبتت أن اختراعي ناجح إلى أبعد الحدود وليس له أي تأثيرات سلبية على الكائنات الحية.. إلا أننا اكتشفنا بعد تفجير القنابل الكيميائية في غلاف الأرض.. أن لها تأثيرات لم نتوقعها أبدا على البشر.. تأثيرات جينية غريبة!!!.. فقد أثر ما فعلناه بشكل غريب على النساء!!!.. فأصبحن لا يلدن إلا الإناث فقط!!.

اتسعت عيناي ذهولا أمام ما قاله وكأنني مقتنع تماما بقصته.. فأردف مكملا:

- نعم.. لم يتم إنجاب ذكر واحد طوال 15 عام منذ تفجير تلك القنابل الكيميائية في الغلاف الجوي!!!.. ورغم الدراسات الهائلة التي قمنا بها لإرجاع الأمور إلى ما كانت عليه.. إلا أننا عجزنا تماما عن ذلك.. قبل أن يظهر بصيص من الأمل عندما توصل زملائي العلماء إلى صنع آلة الزمن التي أخبرتك عنها!!!.. فتم الاتفاق على أن يعود أحد منا إلى الماضي لتحذير المسؤولين.. حتى إذا ما جاء عام 2070.. يكون العالم بأكمله على دراية تامة بقيام تلك التجربة ومن ثم منعها من الحدوث.. المشكلة أن أحدا منا لم يكن يستطيع العودة إلى الماضي القريب.. فلو كنت من مواليد عام 2000 مثلا.. وأردت أن تستخدم آلة الزمن وتعود إلى الماضي.. فيجب أن تعود إلى ما قبل عام 2000.. يجب أن تعود إلى زمن يسبق مولدك.. هل فهمتني؟ !!.. لا يمكن أن تكون في ال 30 من العمر مثلا وتعود إلى زمن يكون فيه عمرك 10 سنوات.. هذا مستحيل علميا.. لا

يمكن أن يوجد جسدان لنفس الشخص في زمن واحد.. هذا يؤدي إلى موت القادم من المستقبل حال وصوله إلى زمن يتواجد فيه كطفل!!!.. وهذا - بالمناسبة - أمر لا يعرفه العلماء في زمنك بعد.. المهم أنني تطوعت للتخلي عن حياتي بأكملها في عام 2085 واستخدام الآلة للعودة إلى زمنك.. إلى عام 2011.. خاصة وأنني السبب الرئيسِ في تلك الكارثة.. فقد كنت أشعر بالذنب وأريد التكفير عن خطئي.. أريدك أن تساعدني يا بني.. أريد أن يعرف العالم بأكمله أن الاختراع الذي سيتم إنتاجه في زمني ستكون نتيجته كارثية على البشر!!!.. يجب أن تمنعوني من القيام بذلك المشروع في عام 2070.. تذكر أنني الآن متواجد في زمن لم تلدني والدتي فيه بعد.. سأولد بعد سنوات قليلة من الآن.. وأعيش بعدها حياة طبيعية دون أن أعلم أنني سأكبر وسأرتكب خطأ فادحا بتجاربي تلك في عام 2070 وأنني في عام 2085 سأستخدم آلة زمن لأعود إلى الماضي وأحذر المسؤولين.

كنت أنظر إليه مشدوها مصدوما لا أعرف ما أقول.. قبل أن أتنحنح قليلا وكأنني أبحث عن خيط نجاة أمام هذه القصة المكتملة المحكمة.. ثم:

- ولكن.. هل يعقل أن يخطئ مجموعة من العلماء في أمر كهذا؟ ؟!.. تقول إنكم قمتم بتجارب كثيرة للتأكد من اختراعكم.. فكيف خدعتكم التجارب إلى هذا الحد.. كيف لم تنتبهوا إلى التأثير السلبي لهذا الاختراع على الجنس البشري؟!!.

رد باستنكار وكأن هذا أغبى أسئلتي على الإطلاق:

- إنه أمر قابل للحدوث في أي اختراع جديد.. بل وحدث هذا في أواخر القرن العشرين أيضا.. عندما قامت إحدى شركات الأدوية باختراع عقار (الثالوميد) الذي قالوا عنه إنه أفضل مسكن للحوامل.. لينتج لنا في النهاية عددا هائلا من الأطفال المشوهين ([18]).. أنت تعرف هذه المعلومة دون شك!!!.

لم أتمكن من الرد عليه.. ولكن.. أستطيع أن أجزم دون تردد للمرة الثانية والثالثة أن هذا أغرب مريض نفسي عرفته في حياتي.. إنه ذكي.. مثقف.. مطلع إلى درجة مخيفة لم أعرفها في أي شيخ!!!.. لكن.. إنني رجل علم وأتعامل مع العلم فقط.. السفر عبر الزمن لا يوجد سوى في قصص الخيال العلمي.. قد يكون خيال الرجل واسعا بالفعل.. قد يكون مخرفا أو ربما يكذب ويتلاعب بي رغم سنه.. هناك ألف احتمال آخر.. أما أن يكون زائرا من المستقبل - رغم دقة قصته وإحكامها - فهذا ما لا أصدقه على الإطلاق!!!.

كتبت كل ملاحظاتي حول الجلسة الأولى على ورقة وملأتها بقائمة طويلة من الأمراض النفسية التي ربما يعاني منها ذلك الشيخ.. ثم أمرت الممرض أن يأخذه إلى غرفته حيث سيصبح نزيلا عندنا بعض الوقت لأجري له المزيد من الفحوصات والجلسات العلاجية.. حتى أقف في النهاية على حالته النفسية وأكتب تشخيصي بعد ذلك لوزارة الداخلية.. لكن.. يبدو أن هذا لم يعجبه.. فقد ثار فجأة.. وراح يصرخ بانفعال:

- أنت تظنني مجنونا؟ ؟!.. بعد كل ما أخبرتك به؟!!!.. ستكون مسؤوليتك حين تحدث الكارثة.. تذكر كلامي.. العالم مقبل على كارثة بعد أقل من قرن من الآن.. ألا تفهم؟!.. ساعدني أرجوك.. أنا لا أريد البقاء في مستشفى الطب النفسي.. أرجوك.... كح كح كح كح كح كح.

راح يسعل بشدة.. فأمرت الممرض أن يأخذه برفق شديد ويتأكد من صحته ويعطيه بعض المهدئات.. على أن أبلغ الشرطة بالتقرير المبدئي عن حالة هذا الرجل.. إنني أتعامل مع الأمر

بشكل احترافي علمي تماما.. وليس بشكل (خيالي علمي)!!!.. هذا هو عملي مهما بدا المريض غريب الأطوار ومهما بدا مثقفا.

أمسك الممرض بالشيخ.. وأراد أن يساعده على الجلوس على الكرسي المتحرك.. إلا أنه انتفض فجأة.. ودفع الممرض بعنف مفاجئ قياسا إلى عمره.. وكأنه يقاتل إلى آخر رمق.. ثم خرج من الغرفة مسرعا بعد أن فقد ثقته بي كما يبدو!!!.. ليمسك به رجال الأمن في الخارج بقوة.. لكنه ظل يقاوم ويتوعد ويحذر من مغبة عدم الاستماع إليه.. فحدث ما نشاهده في التلفاز دائما وهو حقيقي بالطبع.. إذ رحت أصرخ بإحدى الممرضات أن تأتي بسرعة ومعها إبرة مهدئة حتى نستطيع السيطرة على المريض دون أن يصاب بضرر.

لكن.. مع الأسف كان الانفعال شديدا جدا قياسا لعمره.. إذ صرخ فجأة بألم واضعا يده على قلبه وهو يحاول أن يعب الهواء في جوفه.. حاولنا إنقاذه بشتى الوسائل.. و.. هبوط حاد في القلب أدى إلى الوفاة!!!.. كم أكره هذه العبارة.. فهي ما تكتب في الأغلبية الساحقة من تقارير حالات الوفاة المفاجئة ([19]).

المشكلة أن الرجل توفي دون أن نعرف شيئا عن هويته الحقيقية ودون أن نقف بشكل واضح ومؤكد على حالته النفسية.. لكني واثق من جلستي الأولى أن المسكين كان يعاني من حالة بارانويا متقدمة جدا كما يبدو.. مع احتمال إصابته بأمراض نفسية أخرى لم أجد الوقت الكافي للتأكد منها.

ولا أستطيع أن أنكر مشاعر الحزن التي انتابتني لموت ذلك الشيخ.. رجل في مثل سنه يفترض أن يكون هادئا مطمئنا يعيش أيامه الأخيرة بين أولاده وأحفاده.. لا أن يتنقل بين مخفر الشرطة ومستشفى الطب النفسي.. لكن.. رغم حزني الشديد إلى ما آلت إليه الأمور.. إلا أنني قمت بدوري على أكمل وجه بعد ذلك.. إذ أرسلت تقريري إلى وزارة الداخلية وكتبت لهم كل ما قاله الرجل عن نفسه.. وعن قصته.. وأخبرتهم أنني لم أجد الوقت الكامل للكشف عليه.. فقد توفي سريعا بعد جلسة واحدة فحسب.!!.

ليتم استلام جثمانه من المستشفى ومن ثم دفنه دون أن يعرف أحد هويته الحقيقية.. فلا توجد له أي بيانات مسجلة كما علمنا.. بل إن بصماته نفسها لا وجود لها في السجلات الرسمية.. وهذا بالطبع أثار الكثير من التساؤلات دون أن نجد إجابة عليها.. خاصة مع قصته الغريبة المحكمة وثقافته المذهلة.. كلها أمور لا يمكن أن أنساها بسهولة.

لقد ظننت أن القصة انتهت عند هذا الحد.. خاصة بعد وفاة الشيخ وإغلاق ملف القضية.. وإن بقيت هويته لغزا غامضا لم نجد له حلا.. فمرت بعدها الأيام ونسيت فيها هذه القصة تماما بعد أن انغمست في حياتي الخاصة ومسؤولياتي الأسرية والحالات المرضية العديدة التي تمر علي يوميا.. قبل أن يطفو كل شيء على السطح فجأة بعد 3 سنوات.. حيث كنت على موعد مع صدمة حقيقية.. صدمة مروعة.

حدث كل شيء بصورة مفاجئة وسريعة دون أي مقدمات.. كان هذا عند قيام الفرّاشين بتنظيف غرفة الأرشيف والملفات في المستشفى.. ومن ثم التخلص من بعض الملفات القديمة التي مات أصحابها منذ زمن طويل أو عولجوا بشكل نهائي.. حيث كنت أتصفح بعض تلك الملفات لأتأكد من عدم أهميتها.. حين وقع في يدي ملف ذلك الشيخ مرة أخرى!!!.. عندها فقط تذكرته وتذكرت قصته العجيبة.. رحت بعدها أقرأ الملف بشيء من الحزن متذكرا كلامه الغريب

والطريقة التراجيدية التي لقي فيها حتفه.. وما تلا ذلك من تقرير كتبته لوزارة الداخلية.. قبل أن.. قبل أن تتجمد نظراتي فجأة.. وأتذكر أمرا ما.. هناك فكرة مذهلة برزت إلى سطح أفكاري فجأة.. فكرة بالغة الغرابة لم تخطر ببالي سوى الآن أثناء قراءتي لأقوال الشيخ في لقائنا الأول والوحيد.

توقفت طويلا وأنا أفكر.. وأفكر.. وأتصفح الملف مرة أخرى.. حتى إن إحدى الممرضات سألتني إن كنت على ما يرام.. فالتفت لها بحدة وكأنها أعادتني إلى عالم الواقع.. لكني لم أرد عليها.. أفكر بعمق مرة أخرى وأتذكر تفاصيل تلك القصة وأتصفح الملف للمرة الثالثة.. قبل أن أجد نفسي - لا شعوريا - أمشي ببطء شديد إلى خارج المستشفى متجها حيث سيارتي.

ركبت سيارتي وأنا أرتجف خوفا من أن تكون نظريتي حقيقية.. ورحت أقود بذهن غائب تماما عن العالم من حولي.. ترى هل من الممكن أن تكون نظريتي صحيحة؟ !!.. لا أعلم.. لكن لن يضيرني شيء لو تأكدت.. دقائق قليلة قبل أن أصل إلى وجهتي.. مخفر منطقة (....) حيث يعمل أحد أقاربي العسكريين برتبة ملازم أول.. إنه الوحيد القادر على مساعدتي.

تحية طويلة وعناق.. ثم طلبت منه شيئا محددا.. فراح يعبث بأزرار الكمبيوتر لتنفيذ طلبي.. بينما كنت أردد في سري بقلق حقيقي:

أتمنى أن أكون مخطئا.. أتمنى أن أكون مخطئا.. أتمنى أن أكون مخطئا.. هذه الأمور لا تحدث سوى في قصص الخيال العلمي.

لكن.. توقف عقلي فجأة.. وكاد أن يغمى علي عندما أخبرني صديقي بنتيجة البحث.. ذلك الاسم!!!.. (سعود عبدالله ابراهيم ال..).. إنه.. إنه طفل رضيع ولد منذ أقل من عام.. تسألون من يحمل هذا الاسم؟ ؟!.. هذا هو الاسم الذي أخبرني به الشيخ عندما سألته عن هويته!!!!.. أعرف.. الأمر لا يصدق.. أنا نفسي لم أصدقه في البداية.

لقد خطرت في ذهني تلك الفكرة عندما قرأت ملف الشيخ قبل قليل في المستشفى.. لو كانت قصته حقيقية.. فإن هذا سيعني أنه قد ولد منذ شهور قليلة في زمننا الحالي.. وهو الآن مجرد طفل رضيع.. وها قد بحثت عن المواليد الجدد في الشهور الماضية.. حتى عثرت على شخص يحمل اسمه تماما.. لقد بحث رجال الداخلية عن هوية العجوز عندما عثروا عليه كما علمتم.. لكنهم لم يعثروا له على شيء في سجلاتهم الرسمية في ذلك الحين.. لأنه لم يكن مولودا بعد!!!!.

هل هذا يعني أن قصته حقيقية؟ ؟!.. أم هي صدفة وتشابه بالأسماء فقط؟!.. لا يمكن.. لا يمكن أن يكون الشيخ قد كذب بشأن الاسم مثلا ثم أجد الصدف تتشابك وتتشابه إلى هذا الحد الغريب؟ ؟!.. فلو كان قد اخترع اسم الأب والجد والعائلة وهو أمر ممكن جدا.. فكيف كان يعرف أن هذا الأب سينجب طفلا وسيطلق عليه اسم (سعود)؟ ؟!.. هذا عسير التصديق.. عسير التصديق إلى أبعد الحدود!!!.. لا يمكن أن تحدث صدفة كهذه!!!.

لم أنتظر طويلا.. إذ أخذت من صديقي الضابط عنوان بيت الأب.. أب ذلك الطفل الرضيع.. وذهبت إليه مباشرة وفي وقت غير لائق على الإطلاق.. فالساعة كانت تقترب من الثانية ظهرا.. لكني لم أكترث.. أريد مزيدا من التأكيد وإلا سأجن.

و.. حال لقائي به.. عرفت أن الشيخ المسكين لم يكن مجنونا أو مخرفا.. بل كان صادقا في كل ما قاله!!!.. نعم.. فالأب يشبهه كثيرا.. مستحيل.. مستحيل.. إنني أشهد أمرا خارقا للمألوف.

بالطبع بررت زيارتي للأب وأخبرته أن هناك نزيلا في المستشفى كبيرا في السن يدّعي أنه يحمل هذا الاسم.. لكن ذاكرته لا تسعفه ليتذكر العنوان كونه يعاني من مرض الزهايمر.. فعثرت على العنوان بالتعاون مع وزارة الداخلية ووجدتها فرصة لزيارة البيت بدلا من الاتصال هاتفيا.. خاصة وأن البيت قريب للغاية من بيت شقيقتي.. وهي كذبة صغيرة لن تضر بشيء.

رحب بي الأب كثيرا.. وأخبرني أن من يحمل هذا الاسم هو ابنه.. وهو طفل رضيع لم يكمل عامه الأول بعد.. فطلبت منه بود شديد أن أرى إثباته الشخصي وأن أرى الطفل لمزيد من التأكيد واعتذرت له بشدة عن ذلك.. ولحسن الحظ وافق رغم أنه من الممكن أن يكتفي بهوية الطفل أو شهادة الميلاد فقط.. أو أن يرفض مساعدتي ويطلب مني الخروج.. لكن الرجل كان ودودا للغاية.. إذ خرج من غرفة الضيوف قليلا.. وعاد بعد لحظات حاملا طفله بنفسه مع إثباته الشخصي.

عزيزي القارئ.. لا يمكن أن أصف لك الرعشة القوية التي شعرت بها حين رأيت الطفل!!!.. يا إلهي.. لقد قابلتك يا صغيري وأنت شيخ تتجاوز ال 70 من العمر.. هذا لا يصدق لكنه يحدث أمامي.. الأمر مربك للغاية ويكاد أن يصيبني بالجنون.. من الغريب بحق أن ترى طفلا رضيعا وتصدق أنه سيشب يوما ليصبح شيخا في أرذل العمر.. بل وتقابله أيضا في هاتين المرحلتين من حياته.. تماما كما حدث معي!!!.

ازدرت لعابي بصعوبة بالغة وأنا أحمل ذلك الطفل بحنان بالغ وهو ينظر إلى أبعاد أخرى دون أن يعي شيئا مما يدور حوله.. ودون أن يعرف ما سيحدث له عندما يكبر.. فوجدت نفسي أغالب دموعي وسط نظرات الاستغراب من الأب الذي لم يفهم سبب تأثري.. لأهمس بعدها بتأثر في إذن الطفل بخفوت شديد لم يسمعه الأب:

- إنه أنت يا صغيري.. أنت من جئت إلي من المستقبل بعد أن أصبحت شيخا مرهقا تلاعبت بك الدنيا.. أرجوك تقبل اعتذاري لأنني لم أصدقك.. أرجوك!!!.

كلماتي متضاربة مربكة يختلط فيها الماضي بالمستقبل.. هذا هو حال فكرة السفر عبر الزمن.. لكني لم أكترث لتلك الأمور العلمية.. بل رحت أنظر مرة أخرى بذات التأثر إلى ذلك الرضيع وأمسح على رأسه لا شعوريا.. يا لي من أحمق.. لقد واتتني للحظة فكرة قتله عندما كنت في السيارة قادما لزيارة هذا البيت!!!.. نعم.. لقد راودتني تلك الفكرة الغبية.. أن أقتل الطفل بوسيلة ما كي لا يكبر ويفعل ما سيفعله في المستقبل.. من يستطيع أن يقتل ملاكا كهذا؟؟!!.. بل وكيف أحاسبه على ما لم يفعله بعد؟ !!.. كيف أحاسبه على شيء (سيفعله) بعد سنوات طويلة من الآن؟!!.

قلت للأب بنظرات حزينة:

- هذا الصغير.. سيكبر ويجعلك فخورا.

رد الأب بود:

- أريده أن يكون أفضل إنسان في العالم.. وأنا واثق أنه سيكون كذلك!!.

أومأت برأسي مرددا بخفوت:

- نعم.. سيكون يا سيدي.. سيكون!!.

ودعت الأب.. وشكرته كثيرا على لطفه.. ثم خرجت أخيرا عائدا إلى البيت بعد يوم طويل مرهق للغاية.. لكن قلبي وعقلي كانا يعملان بقمة نشاطهما دون أن أعرف ما يجب فعله..

أمامي سنوات طويلة لإنقاذ البشرية مما قد يحدث.. سأكون ميتا بعد 70 عاما دون شك.. لكن.. لن أجعل تضحية ذلك الشيخ البائس تذهب هباء.. خاصة بعد أن تأكدت الآن أنه - رحمه الله - كان صادقا في كل ما قاله لي.. وأنه بالفعل قادما من المستقبل.

غريب أن أترحّم على الشيخ رغم أنني رأيته طفلا صغيرا ينبض بالحياة قبل دقائق من الآن!!!.. لن أستوعب أبدا فكرة السفر عبر الزمن.. إنها معقدة للغاية وتسبب لي الصداع رغم المثال المجسد الواضح الذي رأيته أمامي.. ورغم ذلك المسكين الذي توفي دون أن أصدقه.. إلا أنني الآن أصدق قصته تماما.

سأحاول كل ما بوسعي.. سأجد طريقة أحذر فيها العالم من الكارثة القادمة بعد سنوات طويلة من الآن.. الكارثة التي صنعها ذلك الشيخ في المستقبل دون قصد.. وجاء إلى زمننا ليحذرنا منها ومات من أجل ذلك.. تضحية وشعور بالمسؤولية قلما نجدها عند أحد.. لكن ذلك الشيخ يختلف دون شك عن الآخرين.. عرفت هذا بعد أن تأكدت من حقيقة قصته.. وأنه بالفعل زائر.. من المستقبل.

جريمة كاملة

لم تدم فرحتي طويلا عندما رزقت بمولودة جميلة هي ثمرة زواجي من قريبتي التي أحببتها منذ فترة المراهقة.. بعد أن فوجئنا بإصابتها بذلك التشوه الخلقي اللعين في قلبها!!.. وعرفنا حينها أن طفلتي ستحتاج إلى عناية خاصة طوال حياتها.. أدوية تتناولها بشكل يومي.. أنواع محددة من الأطعمة يجب تجنبها.. وقائمة طويلة من الشروط التي تجعلك تتساءل بقلق هائل: كيف يمكن لإنسان أن يعيش حياته بأكملها بهذه الصورة؟ !!.. كان الحل الوحيد هو استبدال قلبها بقلب جديد.. وهي عملية بالغة الصعوبة.. فقائمة الذين يحتاجون إلى قلب جديد أكبر بكثير من عدد المتبرعين.. وقد ينتظر الإنسان قلبا جديدا لسنوات طويلة.. بل وعلى الأرجح سيموت دون أن يحل دوره؟!.

كانت أوقاتاً عصيبة بحق.. أرى فيها طفلتي الصغيرة في أيامها الأولى.. وأرى بجانب سريرها عدد لا حصر له من الأدوية.. وكأنها لرجل عجوز على وشك الموت!!!.. فأتحسر وأشعر بلوعة تكاد أن تقتلع قلبي من مكانه.. وأرى زوجتي الحبيبة تبكي بحزن وقد تحولت حياتنا الزوجية منذ بدايتها تقريبا إلى عزاء طويل.

كنت أبحث عن حل لتلك المصيبة.. شاعرا بمسؤولية هائلة كأب وأنا أرى الأيام تمضي وابنتي تكبر حتى بلغت عامها الأول وهي تمر بمشاكل صحية كثيرة جعلت زيارتنا للمستشفى أمرا معتادا!!!.. بينما كنت أردد بغضب أن الأطفال كالملائكة.. يجب أن يقضوا طفولتهم في اللعب والمرح.. لا أن يتنقلوا بين البيت والمستشفى.. فتسمع زوجتي كلامي.. وتدمع عيناها.. ونشعر معا بالعجز.. والقهر!!!.. وهو أسوأ ما قد يشعر به الأب.. خاصة وأنني إنسان محدود الدخل.. فلا أملك سوى راتبي من وظيفتي كمسؤول عن خزينة في إحدى شركات القطاع الخاص.. بينما تكلف عملية زراعة قلب جديد في الخارج حوالي ربع مليون دولار كما علمت.. وهو مبلغ لا أملكه بكل تأكيد.. ولن أملكه يوما من الأيام.

ماذا؟!.. تسألون لماذا لم ألجأ إلى وزارة الصحة لعلاج ابنتي في الخارج على نفقة الدولة كما يفعل الكثيرون؟ !!.. لقد فعلت بالتأكيد.. لكن طلبي قوبل بالرفض لأن العلاج متوفر في (الكويت) على حد قولهم!!!.. وهذا حقيقي بالطبع.. فالحصول على قلب جديد أمر ممكن في (الكويت) لكن المشكلة هي في الانتظار.. انتظار قلب من متبرع.. ستنتظر ابنتي قلبا جديدا إلى يوم وفاتها لا قدر الله.. فقائمة الانتظار طويلة.. طويلة جدا.. وعدد المتبرعين قليل إلى حد مخيف!!.

لقد أخبرت المسؤولين بذلك وتوسلت إليهم أن يرحموا ابنتي لكن دون فائدة.. الوساطة والمحسوبية تلعبان دورا مخيفا في هذه الأمور وعدد المترددين على وزارة الصحة قد بلغ حدا مهولا.. حتى أصبح المسؤولون لا يفرقون بين من يحتاج إلى علاج حقيقي وهؤلاء الذين يريدون السفر للسياحة على نفقة الدولة.. خاصة وأنني من عائلة صغيرة.. فلا نعرف أي مسؤول في البلد.. ولا نملك أي وساطة من أي نوع!!!.

كنت أجلس ذلك اليوم في مكتبي أثناء العمل وأنا أفكر بكل هذا.. أبحث عن حل لمشكلة ابنتي.. شاعرا أن الأمور قد بلغت أسوأ حد لها.. بعد أن تغيرت حياتي وأصبحت تنحصر بين العمل والمستشفى!!!.. أجلس شارد الذهن وعقلي مشغولا تماما بتلك الفكرة التي تلح على ذهني منذ بضعة شهور.. نعم.. قد يكون بعضكم توقعها منذ البداية.. لكن.. أقولها لكم بكل صدق وأمانة..

أن أمرا كهذا لم يطرأ بذهني من قبل.

ما هي الفكرة؟ !!.. السرقة بالطبع؟ !!.. نعم.. اختلاس مبلغ ضخم من أموال الشركة.. إن الخزينة تمتلئ بالمال بين الحين والآخر قبل أن يتم نقله إلى البنك.. فأنا أعمل في شركة تمتلك محلات عديدة لبيع الذهب.. ونحن نأتي بإيرادات البيع إلى خزينة الشركة يوميا قبل أن يتم نقلها إلى البنك في نهاية كل أسبوع.

كنت أفكر بتغيير جذري في حياتي.. أفكر بسرقة خزينة الشركة.. فهي تحوي من المال ما يكفي لهجرتي مع أسرتي الصغيرة إلى أحد بلدان العالم التي لا تتعامل مع الشرطة الدولية (الانتربول).. فهناك سأتمكن من إجراء عملية زراعة قلب جديد لابنتي لتعيش كباقي الناس.. أعلم جيدا أننا سنضطر بعدها للإقامة طوال العمر في بلد بعيد تماما عن (الكويت) هربا من ملاحقة السلطات!!.. ولكن.. لا مانع.. لا مانع إطلاقا.. سيهون كل شيء في سبيل ابنتي!!.

ذهبت إلى البيت بعد انتهاء العمل مهموما حزينا وأنا أفكر إن كان يجب علي الإقدام على تلك الخطوة.. عالما أن هذا قد يدمر حياتي إلى الأبد في حالة الفشل.. لأنني سأكون المتهم الأول دون شك كوني الوحيد - باستثناء مدير الشركة - الذي أعرف الأرقام السرية للخزينة وأمتلك مفتاحها.. فخزينة الشركة كبيرة الحجم حيث يستحيل حملها لثقل وزنها.. أما كسرها أو فتحها بأي وسيلة أخرى فسيشغل صفارات الإنذار ويجلب رجال الشرطة في غضون دقائق!!!.

كنت أعيش صراعا نفسيا رهيبا.. حتى إنني لم أنم ليلتها.. بل رحت أنهض بين الحين والآخر لأرى وجه ابنتي النائمة.. فكانت تبدو كالملاك.. لتدمع عيناي تأثرا بتلك البراءة التي لا تفقه ما يدور حولها في هذا العالم المخيف.

قبل أن أمسح دمعتي.. وأقف باعتداد مفاجئ أخافني شخصيا!!!.. وأقول بهمس خافت لم يسمعه أحد سواي:

- سأفعلها من أجلك يا صغيرتي.. حتى وإن فشلت وقبضوا علي.. لكني لن أقف مكتوف اليدين دون أن أحاول على الأقل.

كما ترون.. لقد اتخذت قراري النهائي.. نعم.. سأختلس أموال الشركة.. لن أخبر زوجتي بالأمر لأنها لن تقبل أبدا بذلك.. لكن عندما أضع الأموال أمامها في البيت.. ستكون أمام الأمر الواقع.. ولن تكون هناك صعوبة بعدها في إقناعها بتنفيذ خطتي والهرب خارج البلد.

ذهبت إلى الصالة في ساعة متأخرة تاركا زوجتي نائمة في غرفة النوم.. وهناك جلست أضع التفاصيل المبدئية لعملية السرقة.. ستبدو الأمور أوضح بكل تأكيد لو كتبناها على الورق.. سيتم نقل الأموال من الخزينة إلى البنك بعد ثلاثة أيام.. وأنا لن أسرق الأموال خلال هذه الأيام بكل تأكيد.. فلست مهيأ لذلك بعد.. بل سأفعلها بعد حوالي شهر من الآن.

سأدرس خطتي جيدا طوال تلك المدة وأغلق كل ثغراتها.. وهي في الواقع خطة بسيطة للغاية.. إذ سأقوم بعمل حجوزات السفر وسأحصل على كل التصاريح اللازمة لزيارة البلد الذي وقع اختياري عليه للهرب.. وسأحصل أيضا على موافقة المستشفى هناك وبشكل رسمي على إجراء تلك العملية لابنتي بعد أن أدفع لهم عربونا لن يتجاوز بضعة آلاف من الدنانير وهو مبلغ يسهل تدبيره.

وسأشتري أكبر حقيبة ممكنة لجهاز الكمبيوتر المحمول.. حيث سأذهب بها إلى الشركة يوميا

طوال الأسابيع القادمة.. إلى أن يعتاد الجميع وجودها معي.. وفي الليلة الموعودة.. سأذهب إلى الشركة في وقت متأخر من الليل دون أن أثير شكوك رجال الأمن الموجودين هناك 24 ساعة.. فأنا أفعل ذلك أحيانا لإنهاء بعض الأعمال حسب ما تتطلب ظروف العمل وحسب أوامر مدير الشركة.

سأملأ بعد ذلك حقيبة الكمبيوتر بكل ما تحتمله من أموال وأخرج عائدا إلى البيت.. ولن يتطلب الأمر وقتا طويلا لإقناع زوجتي بالهرب.. ساعة أو ساعتين ربما.. قبل أن نذهب إلى المطار.. وسأجد وسيلة لتهريب الأموال.. ربما في ثياب زوجتي وثيابي.. أو في سرير طفلي النقال.

و.. اكتملت الخطة تماما في ذهني.. وبدأت بعدها مباشرة بالاستعداد لتنفيذ كل فقراتها.. إلى أن انتهيت من كل شيء خلال أسبوعين فحسب.. ولم يكن هناك ما أفعله بعدها سوى الانتظار.. إذ مرت بعدها الأيام ببطء شديد وأنا أترقب.. وأترقب.. محاولا التصرف على طبيعتي كي لا أثير شكوك أحد.. حتى جاءت الليلة الموعودة أخيرا.. أهم ليلة في حياتي!!!.. ولا أنسى أن أذكر أنني طوال الشهر الماضي عانيت مع زوجتي الأمرين في علاج ابنتنا وزيارتنا للمستشفى مرتين أو أكثر أسبوعيا.. مما رسخ الخطة في ذهني يوما بعد يوم وجعلني مصرا على تنفيذها.

في الليلة الموعودة.. كانت الساعة تقترب من الحادية عشر مساء.. عندما كنت أشاهد التلفاز مع زوجتي.. قبل أن أنهض فجأة وبشكل تمثيلي - كنت قد خططت له مسبقا - وأنا أقول:

- يا إلهي.. لقد نسيت تماما!!!.

سألتني باهتمام:

- ماذا حدث؟ ؟!.. نسيت ماذا؟؟!!.

لم أكن بحاجة للتمثيل.. فقد كنت متوترا بالفعل بسبب عملية السرقة التي سأقوم بها بعد قليل.. فقلت بقلق واضح:

- هناك بعض الأوراق التي يجب مراجعتها في العمل.. المدير سيطَّلع عليها غدا صباحا وقد نسيت كل شيء بشأنها.. لا بد من الذهاب إلى الشركة الآن.. وإلا سأكون في موقف بالغ السوء.

أومأت زوجتي برأسها متفهمة.. وقالت بحنان:

- أعرف مدى حرصك على عملك.. اذهب ولا تخشَ شيئا.. سأرعى ابنتنا.. وسأكون بانتظارك!!!.

نظرت إليها بتوتر.. ثم ابتسمت دون أن أرد.. وقبّلت رأسها لأذهب بعدها سريعا إلى غرفة النوم لتبديل ثيابي.. وخرجت حاملا معي حقيبة جهاز الكمبيوتر المحمول التي بات الجميع يراها معي يوميا في الشركة.. تماما كما خططت.

ذهبت إلى مقر الشركة أخيرا.. وتوقفت أمام البوابة الرئيسية للتفتيش المعتاد.. وما إن رآني أحد رجال الأمن.. حتى اتسعت ابتسامته ورحب بي.. ليفتح البوابة الرئيسية مباشرة.. فهو قد اعتاد على زياراتي في هذه الساعة بين الحين والآخر كما علمتم.

ما إن دخلت من بوابة الشركة.. حتى أصبح جسدي يرتجف بالكامل.. ما زلت أملك فرصة للتراجع.. لكن.. لا.. لن أتراجع.. صورة طفلتي في ذهني هي الدافع الأكبر الذي يقودني إلى الخزينة.. سأفعل ما خططت له بكل تأكيد.. ولو سارت الأمور بالصورة التي أتمناها فسأكون

بعد ساعات قليلة خارج (الكويت) بتلك الأموال!!!.

وصلت إلى مكتبي.. ويدي الممسكة بحقيبة الكمبيوتر المحمول ترتجف بقوة.. شاعرا أن حياتي كلها على المحك!!!.. أدير الأرقام السرية بيد مرتجفة.. وأضع المفتاح في ثقب الخزينة.. قبل أن أديره بيد امتلأت بالعرق.. لتقع عيناي أخيرا على الأموال المتكدسة داخل الخزينة.. يا إلهي.. هذه الأموال.. إن منظرها يسيل له لعاب أعتى الرجال بحق.. لقد كنت أراها كل يوم وأغوص في أحلام اليقظة.. لكن الأحلام ستتحول إلى واقع الآن!!!.

أخرجت جهاز الكمبيوتر المحمول.. وخبأته في أحد أدراج المكتب.. لن ينتبه أحد لوجوده هناك إلا بعد فترة أكون فيها قد خرجت من البلد.. ثم رحت أمسك رزم الأموال وأضعها بيد متوترة في الحقيبة.. ستتسع لقرابة المليون دينار.. نعم.. لقد أجريت حساباتي جيدا.. لكني سأضع بعض الرزم في جيوبي أيضا!!!.. نحن نتحدث عن هجرة كاملة تحتاج إلى مصاريف هائلة.. و:

- ماذا تفعل؟!!!.

سقط قلبي في مكانه.. والتفت كالملسوع.. وإذا به مدير الشركة ينظر إلي بغضب والشرر يتطاير من عينيه.. بالطبع أخرستني المفاجأة تماما.. لن ينفع الدفاع عن نفسي.. ماذا سأقول له؟ !!.. الأمر واضح.. الحقيبة امتلأت تقريبا بالنقود.. الخزينة مفتوحة.. يدي اليمنى لا تزال ممسكة برزمة من المال وقد أصيبت بشلل لحظي لهذه المفاجأة!!!.

يا إلهي.. لم أضع في الحسبان أبدا أن يتواجد المدير في مثل هذه الساعة في الشركة.. بل وفي غرفة الخزينة التي لم يدخلها إلا نادرا طوال سنوات عملي.. ما هذا الحظ اللعين!!!.

ترى.. هل ساورت الشكوك رجال الأمن عند البوابة فاتصلوا به؟ ؟!.. لماذا لم يتصلوا بالشرطة إذا؟؟!!.. لا أعلم.. ولا يهم أن أعلم الآن.. إذ رحت أنظر إلى المدير ببلاهة.. والدموع تكاد أن تسيل من عيني.. قبل أن يقترب مني وعيناه تلتهبان غضبا!!!.. ثم أمسكني من ثيابي وهو يهزني بقوة ويقول:

- أيها الحقير.. أنت تسرق أموال الشركة؟ !!.. لقد وثقنا بك ووضعناك في هذا المكان لتأتي بعد كل السنوات التي قضيتها هنا وتخون الأمانة؟؟!!.. أعدك أن تقضي بقية حياتك في السجن.. و... و ...

يبدو أنه لم يجد ما يقوله ليكمل به عبارته.. فصفعني بقوة حتى شعرت أن صف أسناني الأيسر سيقع بأكمله!!.. ثم دفعني إلى الحائط وهو يركلني بكل قوته دون أن أجرؤ على الرد.. ليتركني في زاوية الغرفة شاعرا أن كرامتي قد تبعثرت في كل ركن منها وأن خطتي بأكملها قد فشلت قبل أن تبدأ.

تركني وأخرج هاتفه النقال من جيبه.. وراح يضغط أزراره.. إنه يتصل بالشرطة.. لا شك في ذلك.. لكن.. عندما تذكرت ابنتي.. انتفضت فجأة.. ونهضت مندفعا بقوة ناحيته شاعرا بضرورة الدفاع عن آخر أمل لدي.. ماذا سأفعل؟ ؟!.. لا أعلم.. سأمنعه من الاتصال بالشرطة فحسب.. وسأقرر بعدها ما يجب فعله!!!.. المهم أنني اندفعت نحوه.. فأمسكت بهاتفه النقال وقذفته بعيدا.. واشتبكت معه في قتال عنيف.. خاصة وأننا متكافئين تقريبا في الطول والحجم.. ولكن.. هذا ما يؤدي إليه الشجار عادة.. لا بد أن يصاب أحد الطرفين أو كلاهما بجروح ما.. خاصة إذا لم يتواجد أحد لإنهاء هذا الشجار.

كنا نتصارع بقوة وشراسة.. ألكمه بيدي اليمنى.. فيركلني بقدمه اليمنى.. ركلات.. لكمات تأتي من كل صوب.. ثم.. أمسكت بهاتف مكتبي الذي وقع على الأرض بسبب الشجار.. وفجرت به رأس المدير!!!.. ضربة.. ضربتين.. ثلاث.. لتخور قواه.. ويتهاوى على الأرض ورأسه يفور بالدماء في مشهد صامت بليغ راح يلفظ فيه أنفاسه الأخيرة.

التصقت بالحائط أنظر إلى المكان برعب حقيقي شاعرا أنني أغوص في مستنقع الجريمة حتى الغرق.. لقد أصبحت جريمتي الآن مزدوجة.. سرقة وقتل.. لكني رغم ذلك استوعبت الصدمة سريعا ولا أعرف كيف!!!.. إذ رحت أجمع النقود كالمجنون بثيابي الممزقة وشعري المبعثر وأنفي الذي ينزف إثر الشجار.. المهم هو إتمام ما جئت من أجله.. سرقة الأموال والهرب.. إن موعد طائرتي بعد 4 ساعات من الآن.. سأتمكن من الهرب قبل أن يعثروا على جثة المدير في الصباح.. ليتني أستطيع وضع جثته في صندوق سيارتي حتى تتأخر عملية اكتشاف الجريمة.. لكن.. مكان وقوف السيارة في الخارج قريب من المدخل.. سيراني رجال الأمن!!!.. لا يوجد حل آخر سوى ترك جثة المدير هنا!!.

أغلقت بعدها الحقيبة.. وذهبت إلى الحمام لأعدل من ثيابي قليلا وأمسح الدماء من على أنفي.. ثم نزلت إلى مواقف السيارات بتوتر شديد.. وذهبت بسيارتي إلى البوابة الرئيسية للشركة.. فرآني أحد رجال الأمن.. وفتح لي البوابة مبتسما.. لأرسم على شفتي ابتسامة مماثلة وأشكره بتحية عسكرية على سبيل المزاح.. هذا رائع.. لم يلحظ شيئا كما يبدو.. خرجت بهدوء شديد محاولا أن أبدو طبيعيا.. فما إن ابتعدت قليلا عن مبنى الشركة.. حتى رحت أقود السيارة بجنون.. لأصل أخيرا إلى البيت.

كانت الساعة تقترب من الواحدة فجرا.. تبقت حوالي 3 ساعات على موعد الطائرة.. زوجتي؟!!.. إنها نائمة.. سأوقظها ولكن بعد أن استبدل ثيابي بثياب السفر وأكون مستعدا تماما لإخبارها بكل شيء!!!.. ذهبت إلى الحمام.. وغسلت جروحي بيد مرتجفة.. هناك خدوش عديدة على كتفي وذراعي.. أنفي أيضا ما زال ينزف قليلا.. أحاول إيقاف النزيف.. حتى إنني قضيت نصف ساعة في الحمام محاولا تضميد جروحي على عجالة.. لأخرج أخيرا وأرتدي ثيابي على عجالة.. وأتوجه بعدها إلى زوجتي وأهزها بتوتر شديد حتى استيقظت بذعر واضح.

ما إن لاحظت توتري وجروحي.. حتى انفجرت أمامها باكيا كطفل صغير.. لم أحتمل أكثر.. كان الضغط النفسي رهيبا لا يوصف.. لقد فعلت أشياء لم أكن أظن أنني أملك الشجاعة يوما لفعلها.. فراحت المسكينة تحتضنني بحنان وهي تسألني بذعر عما جرى.. كنت أبكي وأنظر إلى طفلتي النائمة كالملاك في فراشها.. فتنهمر الدموع أكثر وأكثر.. و.. قبل أن أخبرها بتفاصيل خطتي وما فعلته حتى الآن.. سمعت أحدهم يقرع الجرس!!!.. كاد قلبي أن يتوقف ذعرا!!!.. فسألتني زوجتي بجزع وقد طار كل أثر للنوم من عينيها:

- من يزورنا في مثل هذه الساعة؟!.. لماذا تبكي يا عزيزي؟ !!.. إنك تخيفني.. أخبرني أرجوك ما الذي يحدث!!.

عجزت تماما عن الرد.. لكني كنت أعلم في قرارة نفسي أنهم الشرطة.. نعم.. مهما خططت وكنت حريصا.. فأنا لست سارقا محترفا.. لقد ارتكبت خطأ ما دون شك فكشف رجال الشرطة أمري.. أنا واثق من ذلك.

مسحت دموعي دون أن أنظر إلى زوجتي التي ظلت تنظر إلي وعيناها تطرحان عشرات الأسئلة..

وتوجهت ناحية الباب شاعرا أن الدنيا تضيق من حولي شيئا فشيئا.. نظرت من العين السحرية.. إنهم الشرطة بالفعل!!!.. 3 من رجال الشرطة ينتظرون بنفاذ صبر أن أفتح الباب!!!.

لقد انتهى كل شيء.. لا يوجد هناك ما أستطيع فعله.. يبدو أن حراس الأمن قد كشفوا أمري أثناء خروجي من الشركة.. ولكن كيف؟ !!.. كيف؟ !!.. لقد ظننت أنني خدعتهم.. أخذت نفسا عميقا.. ثم فتحت الباب سريعا كي لا تحدث فضيحة ويقتحم رجال الشرطة شقتي ويوقظوا الجيران.

نظرت إليهم بتوتر شديد.. قبل أن يقول أحدهم:

- أنت السيد (.....)؟؟!.

أومأت براسي إيجابا.. ليقول بصرامة:

- نريدك معنا في المخفر.

ازدردت لعابي وأنا أسأل بصوت مبحوح:

- ل.. ل.. لماذا؟؟!!.

قال تلك العبارة الخالدة التي يرددها رجال الشرطة في كل مكان وزمان:

- ستعرف كل شيء هناك.

أومأت برأسي مستسلما.. إذ لم أكن في حالة تسمح بالجدال على الإطلاق.. فخرجت معهم بصمت إلى المخفر وأنا أنظر إلى ساعتي.. كان من المفترض أن أكون متوجها مع زوجتي إلى المطار.. لكن يبدو أن كل شيء قد انتهى الآن!!!.. لقد فشلت خطتي دون أن أعرف كيف.. وها أنا أخرج وسط دموع وتساؤلات زوجتي التي ترى رجال الشرطة يقتادونني إلى المخفر دون أن تفهم شيئا بعد.

ها أنا أخيرا أقف أمام الضابط الذي راح ينظر إلي ببرود.. قبل أن يتصل هاتفيا بشخص ما.. ويقول باحترام بالغ:

- إنه هنا.. تفضل يا سيد (.....)!!!.

لحظات قليلة.. قبل أن يدخل ذلك الرجل الذي جعلني أنتفض في مكاني رعبا.. إنه صاحب الشركة.. أحد كبار رجالات البلد.. وأثرى أثريائها!!!.. مهلا.. أرجو ألا يكون هناك سوء فهم.. فأنا أتحدث هنا عن صاحب الشركة.. وليس عن مديرها الذي قتلته.

دخل صاحب الشركة بكبرياء وتعال.. ثم جلس على أحد المقاعد وهو يمسك بسيجار فاخر.. و أنا في الواقع لا أفهم حكاية الأثرياء مع السيجار.. يبدو أنه أيقونة مميزة في عالم الثراء!!!.. وبالطبع لم يفتني أن أرى نظرة الاحترام البالغة من الضابط تجاه صاحب الشركة.. يبدو أنني ضائع تماما ولا أمل لي.

سألني صاحب الشركة دون أي مقدمات:

- أخبرني.. لماذا قتلت المدير؟!!.

فتحت فمي لأتحدث.. لكنه أخرسني بإشارة من يده وهو يقول:

- لا تحاول الكذب.. لقد اتصل أحد حراس الشركة بالشرطة وأبلغهم أنك خرجت خائفا متوترا وشكلك يوحي أن هناك أمرا ليس على ما يرام رغم أنك حاولت إخفاء ذلك.. وعندما ذهب الحارس إلى مكتبك.. وجد المدير ميتا.. لا يوجد أي متهم آخر سواك.. أنت الوحيد الذي كنت موجودا في الشركة حينها.. وكل الدلائل تشير إليك.. والآن أخبرني.. لماذا قتلته؟!!.

لقد ظننت أنني بدوت طبيعيا عند خروجي وقد خدعت حراس الشركة.. لكن يبدو أنني أحمق بالفعل.. قلت له بأسى وبدموع حقيقية تملأ عيني شاعرا أن الدنيا ظلمتني إلى أبعد الحدود:

- لا يوجد لدي ما أقوله.. لقد قتلته يا سيدي.. تشاجرت معه وقتلته.. صدقني لم أقصد ذلك!!!.. إذ فوجئت بوجوده في غرفة الخزينة يتهمني بالسرقة ويصرخ ويتوعد.. ثم تهجم علي واشتبكت معه.. وحدث ما حدث!!!.

كنت أتحدث برعب حقيقي وقد تحولت إلى حطام إنسان.. وكان لا بد من الكذب.. يستحيل أن أعترف لهذا الرجل بالقصة كاملة وعن سرقتي للخزينة.. لكن.. لكن.. فوجئت به ينهض من مقعده.. ويضع يده على كتفي مطمئنا وهو يقول:

- هل كنت تعلم أن مدير الشركة لص؟؟!!.

تجمدت دموعي فجأة وأنا أنظر إليه.. ثم هززت رأسي نفيا وبفم مفتوح من قوة المفاجأة.. قبل أن يقول:

- نعم.. إنه يسرق مبالغ كبيرة من الشركة.. وبالطبع أنت لا تعرف شيئا عن ذلك لأنك تعتمد على الفواتير التي تصل إليك قبل إيداع المال في الخزينة.. وهذا الوغد كان يقوم بتزوير تلك الفواتير ويدون فيها مبالغ أقل من المبيعات الحقيقية.. فتجده في كل فاتورة يحقق نسبة ربح لا نعلم عنها شيئا.. إنني لم أنتبه لذلك في البداية.. فهذه الشركة هي واحدة من شركاتي العديدة.. ولا أملك وقتا لمتابعة كل شيء بنفسي.. لذا فقد اكتشفت بالصدفة أن أرباح شركتي هذه تتناقص شيئا فشيئا.. وبطريقة محسوبة وعبقرية فعلها ذلك اللعين حتى لا أكشف أمره.. ولم أكن لأكشف أمره أصلاً لولا خبرتي الطويلة وبشيء من الحظ.

ثم زفر بقوة وهو يطلق شتائم لا حدود لها للمدير.. وراح يقول وأنا أنظر إليه دون أن أفهم ما يدور حولي:

- لقد علمت بوسائلي الخاصة أنه حجز تذكرة ذهاب دون عودة إلى إحدى دول أمريكا اللاتينية وافتتح هناك شركة خاصة به تمهيدا لبدء حياة جديدة.. بل ووضع معظم الأموال التي سرقها في حساب شقيقه الذي يقيم هناك منذ سنوات.. يبدو أنهما قد خططا لهذا منذ فترة طويلة!!!.. ربما لن أتمكن من استرجاع كل أموالي التي سرقت.. لكني على الأقل كشفت أمره

قبل أن يسرق المزيد.. وقمت أنت بقتله وحرمانه من التمتع بما سرقه.. إنها عدالة لا بأس بها بوجهة نظري.. بل هي عزائي الوحيد.

راح بعدها يربت على كتفي مشجعا.. وهو يكمل:

- أخبرني حراس الشركة أنك تأتي أحيانا في أوقات متأخرة لتنهي بعض الأعمال.. ولحسن الحظ أنك كنت موجودا في هذه الليلة تحديدا.. كما أن هذا يدل على إخلاصك الشديد في العمل!!!.

نظرت إليه بغباء وقد توقفت أنفاسي تماما.. فأكمل محاولا توضيح الأمر أكثر:

- لقد كان المدير يريد توريطك أنت وإلباسك التهمة دون أن يعلم أنه بدأ ينكشف شيئا فشيئا.. وأننا سنقبض عليه بعد أيام قليلة من الآن قبل أن يحدث ما حدث.. وعلى كل حال.. سأقف معك بكل قوتي لتخرج من هذه القضية.. فأنت أنقذت أموالي دون أن تقصد.. ولم تقتل المدير متعمدا.. بل دفاعا عن نفسك.. كما أنني سألت عنك بعضا ممن أثق بهم.. وعرفت أنك موظف مخلص جدا في عملك.. لا تخشَ شيئا.. كل الظروف لصالحك.

هل تعرفون ماذا كانت ردة فعلي؟ !!.. لقد بكيت وأجهشت في البكاء مفرغا كل الضغط النفسي الذي أعاني منه.. لم أتخيل للحظة أن الظروف ستقف لصالحي بهذه الصورة كما يقول صاحب الشركة!!!.. فقلت بحماس بالغ وبوجه مليء بالدموع:

- المعذرة.. ولكن.. ولكن.. لم يكن الأمر سهلا يا سيدي.. لقد قتلت إنساناً.. حتى لو كان هو المخطئ.. وحتى لو كان ما فعلته دفاعا عن النفس.. لا يمكنني أن أتخيل أنني قتلت أحداً.

كان الضابط ينظر إلي دون أن ينطق بحرف.. في حين أردف صاحب الشركة وهو يربت على كتفي مجدداً:

- لا بأس.. لا بأس.. ستخرج من هنا في أقرب وقت.. لقد أنقذت أموالي.. تذكر هذا.

يقول هذا الكلام دون أن يعرف أن حقيبتي الموجودة في غرفة نومي تحوي قرابة المليون دينار اختلستها من أمواله!!!.. سيظنون أن المدير هو من اختلسها من خزينة الشركة.. فهو يعرف الأرقام السرية للخزينة ويملك مفتاحها كما أخبرتكم من قبل.. يا إلهي.. كان قلبي يخفق بقوة غير مصدق أنني الرابح الأكبر وأنني أخرج من القضية ببساطة شديدة لم أكن أحلم بها.. لقد ارتكبت جريمة سرقة.. ولكن سيتم إلصاقها بشخص قتلته بنفسي.. وسأخرج من جريمة القتل كونها دفاعا عن النفس.. إنه يوم سعدي بالتأكيد!!!.

وبالطبع لم يعرف أحد أنني كنت قد حجزت تذكرة للهرب مع زوجتي.. لأن رجال الشرطة ركزوا كل جهودهم في فتح ملفات المدير الذي قتلته على أساس أنه سارق ومختلس.

و.. تماما كما قال صاحب الشركة.. فبعد أسابيع قليلة من تلك الحادثة.. تأكد لرجال الشرطة أنني قد ارتكبت جريمتي في حالة دفاع شرعي عن النفس.. ومع سمعة المدير الملوثة.. ومع سمعتي النظيفة.. ومع شهادة زملائي الموظفين في إخلاصي بالعمل.. وبعد الاستماع إلى أقوال صاحب الشركة وقوة كلمته أمام القضاء كونه رجلا مهما في البلد كما علمتم.. تم أخيرا الإعلان عن براءتي والإفراج عني.

جلست بعدها مع زوجتي أشرح لها القصة كاملة.. وبينت لها أننا قد صرنا أثرياء.. وأننا سنحل كل مشاكلنا.. لكن يجب علينا الانتظار بضعة شهور حتى تهدأ العاصفة التي أحدثتها بنفسي وخرجت منها سليما معافى.. ثم نهرب بهذا المبلغ إلى البلد الذي اخترته.. علما بأنها لم تقبل بخطتي في بادئ الأمر.. وعارضتني بشدة.. لكنها رضخت أخيرا بعد أن رأت الأموال بنفسها وبعد أن عرفت أننا سنجد قلبا جديدا لابنتنا بعد معاناة طال أمدها.

وهكذا عدت إلى عملي.. وإلى حياتي الطبيعية.. دون أن أتصور للحظة أن الأمور ستتطور أيضا إلى الأفضل وأنني سأكون محظوظا إلى درجة غير معقولة.. نعم.. كان هذا بعد مرور حوالي شهر على إغلاق ملف القضية.. عندما تم استدعائي من قبل صاحب الشركة في مكتبه الفاخر الكائن في أحد أرقى مجمعات البلد.. حتى إنني عرفت فيما بعد أن هذا الرجل يمتلك المجمع

بالكامل!!!.

لا أنكر أنني توجست شرا جراء هذا الاستدعاء.. كنت خائفا من أن يكون الرجل قد كشف أمري أخيرا وعرف بأمر المبلغ الذي سرقته وظل مخبئا في غرفة نومي منذ ذلك اليوم.. وراحت التساؤلات تتلاعب في ذهني.. ألم يتهموا المدير بكل شيء؟ !!.. ألم يقفل ملف القضية.. لماذا يستدعيني الآن إذاً؟!!.

في النهاية تركت مخاوفي خلفي.. وذهبت لزيارة صاحب الشركة في مكتبه الفاخر.. حيث سمحت لي السكرتيرة بالدخول مباشرة مما يوحي أنه كان بانتظاري.. فدخلت والتوتر يكاد يقتلني.. بعد أن شعرت طوال الأيام الماضية بشيء من الاطمئنان.

نظرة سريعة إلى غرفة المكتب الفخمة.. إن حجمها يفوق حجم غرفة نومي ثلاث مرات على الأقل!!!.. ظللت واقفا على مسافة بعيدة نسبيا من مكتبه.. بعد أن رأيته يقرأ في أحد الملفات وكأنه لا يكترث لوجودي.. وساد المكان صمتا ثقيلا سوى من صوت أنفاسي المضطربة.. ثم قال بلهجة آمرة دون أن ينظر إلي:

- اجلس.

فجلست والفأر يلعب في عبّي كما يقولون!!!.. قبل أن يسألني آخر سؤال أتوقعه:

- لماذا لم تخبرني من قبل أن ابنتك الصغيرة مريضة؟؟!!.

سكت مبهوتا.. ثم قلت بصوت مبحوح:

- المعذرة يا سيدي.. إنها مشكلة خاصة.. ولم أكن أريد إضاعة وقتك الثمين في هذه الأمور و ....

قاطعني باهتمام شديد:

- لقد سألت عنك.. وعرفت أن عندك ابنة مصابة بتشوه خلقي في قلبها وأنها تحتاج إلى قلب جديد.. وعرفت أيضا أنك لجأت كثيرا إلى إدارة العلاج في الخارج بوزارة الصحة دون فائدة.

ثم سكت وراح ينظر إلي باهتمام أكبر:

- إنك إنسان شريف بحق.. بل نادر الوجود.. سأتحدث مع المسؤولين كي يسمحوا لك بعلاج ابنتك في الخارج على نفقة الدولة.. أعدك بهذا.. كما أنني أريد ترقيتك في شركتي.. إنك تستحق ذلك بكل تأكيد.. فأنا أحترم هؤلاء الذين يفصلون بين عملهم وبين حياتهم ومشاكلهم الشخصية.. وأنت تفعل هذا بكل اقتدار!!!.

عندما قال هذا الكلام.. وقفت من شدة الذهول.. ووجدت قدمي عاجزتين عن حملي.. فجلست مرة أخرى.. ودمعت عيناي تأثرا وأنا أشكره من كل قلبي.. أشكره على كل ما فعله.. قبل أن يردف:

- تستطيع الذهاب الآن.. ومدير الشركة الجديد سيبلغك غدا بكل التفاصيل الخاصة بترقيتك.. وسيصلك رد من وزارة الصحة خلال الأيام القادمة بالموافقة على علاج ابنتك في الخارج!!!.

لم يكن بإمكاني تخيل حدوث كل هذا.. إن ما يحدث لهو أقوى مني.. أقوى مما تتحمله أعصابي.. لا يمكن أن يكون الحظ إلى جانبي بهذه الصورة!!.. لذا فقد راحت دموعي تنهمر بقوة.. إنه أمر غريب.. فكلما ألتقي بهذا الرجل.. أبكي أمامه كالنساء.. المهم أنني شكرته بحرارة

ودعوت له بالصحة والعافية.. وخرجت من مكتبه أخيرا شاعرا بنشوة هائلة.. وبأن الحياة قد ابتسمت لي حقيقة لا مجازا.

وبالفعل.. فبعد لقائي بصاحب الشركة بأيام قليلة.. وصلتني الموافقة على سفر ابنتي إلى الخارج على نفقة الدولة لزراعة قلب جديد لها.. ولم يكن الأمر مجرد قلب جديد.. بل اتسع إلى أكبر من هذا بكثير.. فنحن نتحدث عن حياة جديدة بأكملها.. مليون دينار حصلت عليها بضربة

حظ.. منصب وظيفي جديد.. وعلاج لابنتي دون الحاجة إلى الهرب والهجرة إلى بلد آخر كما كنت قد خططت في السابق.. هناك أوقات نصبح فيها محظوظين بشكل غريب.. أكثر من أي أوقات أخرى.

لقد كنت أقول عندما أردت التخطيط لسرقة خزينة الشركة.. إن الطريقة الوحيدة لتحصل فيها على ما تريد.. هي أخذه بنفسك.. لكن يبدو أنني كنت مخطئا.. وأن الدنيا قد تعطيك الكثير أحيانا.. تماما كما حدث معي.. عندما ارتكبت دون قصد ما يظنه رجال الشرطة مستحيلا.. عندما ارتكبت الجريمة الكاملة!!.

يوم الكارثة

لم أكن أظن للحظة أن الأمور ستنتهي إلى ما آلت إليه!!!.. من الغريب حقا أن تتغير حياة المرء بأكملها في يوم واحد.. بل وفي ساعات قليلة تسارعت فيها الأحداث حتى أصبح يوم أمس بعيد المنال وكأنه ذكرى قديمة للغاية.

لقد حدث كل شيء فجأة.. في صباح اليوم فحسب!!!.. عندما استيقظت من النوم في وقت مبكر جدا كعادتي للذهاب إلى العمل.. وبعد أخذ الحمام الساخن وحلاقة ذقني.. وأثناء ارتداء ثيابي استعدادا للخروج.. تلقيت رسالة نصية في هاتفي النقال دون أن يظهر رقم المرسل.. فتحت الرسالة بملل ظنا مني أنها تتعلق بإعلان تجاري.. لكن.. تجمدت نظراتي فجأة.. وشعرت أن عروقي قد تحولت إلى أسلاك كهرباء جعلتني أرتعش بقوة وأنظر حولي بضياع حقيقي!!.

كانت الرسالة تقول:

((عزيزتي (ن).. الأمر خطير للغاية.. الكارثة ستحدث لا محالة.. الحرب ستقوم بعد ساعات قليلة من الآن!!!.. ستكون حربا نووية لا أمل لنا فيها بالنجاة.. لن يبقى أحد على قيد الحياة.. إنني أرسل إليك هذه الرسالة من جهاز الحاسوب الخاص بكمبيوتر الجيش.. فقد أخذوا منا هواتفنا النقالة.. ومنعونا من الاتصال بالناس كي لا ينتشر الخبر ويثير الذعر والفوضى.. لكني تمكنت من التسلل إلى أحد المكاتب دون علم المسؤولين لأرسل لك هذه الرسالة.. أرجوك خذي والدتي وتعالوا سريعا إلى (........) سأنتظركم هناك لآخذكم إلى المشروع السري الذي كنت أعمل عليه.. إنه أملنا الأخير في النجاة من الكارثة التي ستحدث.. لا تتأخري)).

كان هذا مضمون الرسالة!!!.. يبدو أن المرسل قد أخطأ بالرقم.. لكن.. هل ما قاله حقيقي؟؟!.. هل يعبث معي؟!.. هل آخذ الرسالة مأخذ الجد؟ !!.. لا أعلم!!.

فتحت التلفاز بسرعة ورحت أعبث بالقنوات علني أجد خبرا يؤكد ما هو مذكور في الرسالة الهاتفية.. لكن.. الحياة تسير بصورة اعتيادية للغاية كما يبدو.. لا يوجد أي شيء غير عادي.. مهلا.. الرسالة تقول إن وسائل الإعلام لن تبث الخبر حتى لا ينتشر الهلع بين الناس.. هذا لن يجدي إذاً.

نظرت إلى شاشة هاتفي النقال مرة أخرى.. إن المتصل يطلب من (ن) - وهي شقيقته أو زوجته كما يبدو - أن تأتي إلى مكان محدد للهرب والنجاة بأنفسهم!!!.. هل هي مزحة؟!.. لا أعلم.. ولكن من الذي سيمزح معي بهذه الصورة.. ولماذا؟!.

فأنا إنسان وحيد إلى حد مروع.. توفي والداي منذ زمن.. ولا يوجد لدي إخوة.. كما إنني لم أتزوج حتى الآن.. وجميع علاقاتي الأخرى سطحية.. لا أعرف أحداً ممكن أن يمزح معي ويخيفني بهذه الصورة السخيفة.. ثم.. اتخذت قراري.. يجب أن أذهب لأتأكد بنفسي.. لقد أخبرني ذلك الشخص المجهول في رسالته بمكان اللقاء.. إنها منطقة صحراوية بعيدة عن العمران!!!.

خرجت من منزلي سريعا بعد أن أخذت حقيبة صغيرة ووضعت فيها كل ما قد أحتاجه على سبيل الاحتياط.. ورحت أقود سيارتي بتوتر شديد وأنا أرى الناس في الشارع يمارسون حياتهم الطبيعية.. مما أعطاني إيحاء أن تكون الرسالة خاطئة.. رغم أن كل ما فيها يوحي بالصدق.. فالجميع يعلم ما يحدث حولنا من توتر سياسي بين القوى العظمى والتهديد المستمر بإشعال

الحرب.. فالعالم بأكمله على صفيح ساخن منذ بضع سنوات.. الكل يهدد.. الكل يتوعد باستخدام أسلحته الفتاكة.. حتى باتت تلك التهديدات مملة بسبب تكرارها دون أن يقدم أحد على إشعال الحرب فعليا.. سوى الآن ربما!!!.

قطع حبل أفكاري وصولي أخيرا إلى الوجهة التي ذكرها صاحب تلك الرسالة.. منطقة نائية لم يزحف إليها المد العمراني بعد.. التساؤلات والشكوك والمخاوف ما زالت تملأ عقلي وقلبي.

كانت المنطقة خالية تماما.. أنظر حولي يمينا ويسارا.. مهلا!!!.. إنني ألمح من بعيد سيارتين.. هناك رجل يمسك بيد امرأة عجوز.. ويحاول مساعدتها للخروج من سيارة والركوب في السيارة أخرى!!.. يا إلهي.. يبدو أن الرسالة حقيقية تماما!!.

رحت أقود سيارتي مسرعا ناحيتهم.. وأنا أضرب بوق سيارتي بإصرار وأخرج رأسي من النافذة المفتوحة لأصرخ بكل قوتي:

- انتظروووني أرجوووكم.. انتظروووني!!.

تجمدوا تماما في أماكنهم وأصابهم ذعر حقيقي حين انتبهوا لوجودي.. يبدو أن ظهوري المفاجئ قد سبب لهم صدمة حقيقية.. فوصلت إليهم دون أن يُبدوا أي رد فعل.. ونزلت من سيارتي سريعا لأتبين الجميع.. هذا الرجل يبدو في ال 40 من العمر.. والفتاة ربما تصغرني سنا بسنوات قليلة.. وهناك أيضا المرأة العجوز كما أخبرتكم.

ساد الصمت للحظات ونحن نحدق ببعضنا في ترقب واضح.. قبل أن يتخذ الرجل موقفا دفاعيا.. ليتقدم ناحيتي وكأنه يريد حماية أسرته مني.. فسألني بصرامة وعصبية بالغتين:

- من أنت؟!.. ماذا تريد؟!.

رددت عليه بذعر:

- هل أنت من أرسل الرسالة النصية إلى هاتفي النقال لتخبرني باقتراب موعد الحرب؟ !!.. أرجوك.. أرجوك ساعدني.. أريد أن أنجو معكم.

نظر إلي بتوتر شديد.. ونظر إلى أفراد عائلته.. ثم قال بصوت مرتجف حاول أن يجعله مطمئنا:

- أنت.. أنت.. أنت مخطئ دون شك يا سيد.. أنا.. أنا لم...

قاطعته بلهفة حقيقية وقلت متوسلا:

- اسمعني أرجوك.. لا يوجد أحد غيرك هنا.. وأنا لم آت إلى هذا المكان إلا بسبب رسالتك الهاتفية.. لقد شاء القدر أن تبعث الرسالة على الرقم الخطأ.. قبل أن ترسلها مرة أخرى إلى عائلتك.. أرجوكم خذوني معكم.. أتوسل إليكم.. لا أريد أن أموت.. إنني وحيد في هذا العالم ولا عائلة لدي.. لن تضطر أن تأخذ أحدا آخر.. سأساعدك بأي شكل تريده!!!.

غريب بحق عندما يشعر الإنسان أن أجله قد حان.. إذ يشعر حينها وكأنه طفل.. سيفقد كل كبريائه وتعقله.. و.. رأيت الفتاة تتجه نحوه.. وتضع يدها على كتفه وتهمس في أذنه بأمر ما.. وكأنها تحاول إقناعه أن يأخذوني معهم؟؟!!.. نعم.. ها هو يومئ برأسه إيجابا ويشير إلي أن أركب معهم.. فهرعت إلى باب السيارة الأمامي وجلست بجانبه سريعا قبل أن يغير الرجل رأيه.. لتجلس الفتاة ووالدته في المقاعد الخلفية.

وتحركت السيارة أخيرا متجهة إلى جهة لا أعلمها.. حيث ساد الصمت تماما بعد ذلك.. سوى من صوت محرك السيارة التي راحت تشق طريقها وسط اللامكان في الصحراء والوقت لا يزال مبكرا.. قبل أن أسمع صوت بكاء مفاجئ ونحيب!!!.. التفت إلى الوراء.. وإذا بالفتاة تبكي بطريقة تنيط القلوب.. في حين راحت المرأة العجوز تحاول تهدئتها بكلمات هامسة لم أسمع منها شيئا!!!.

لم أعرف ما أفعله أمام هذا الموقف المهيب.. فتنحنحت وقلت بشيء من التوتر محاولا كسر سكون المكان:

- اسمي هو (س).. أشكركم كثيرا على سماحكم لي بالذهاب معكم.. أشكركم من كل قلبي.

لم أنتظر أن أسمع من الرجل شيئا.. بل التفت سريعا إلى الوراء لأقول للفتاة بتعاطف شديد:

- لا تخشي شيئا.. ستكون الأمور على ما يرام.

فنظرت إلي المرأة العجوز بشيء من التعاطف والامتنان.. قبل أن يكسر الرجل حاجز الصمت وهو يقول بأسى:

- هذه المرأة هي والدتي.. والفتاة شقيقتي.. ثم إن الأمور لن تكون على ما يرام كما تقول.. إنني إنسان واقعي وأعرف ما سيحدث.. ستقوم الحرب بعد قليل لتحرق كل شيء.. وسنهرب من هنا إلى جهة لا نعرفها!!!.

سألته بقلق:

- ماذا تعني؟!.

رد بتوتر:

- دعني أخبرك أولا من أنا.. إنني أحد العلماء الذين يعملون لصالح الحكومة.. لقد قمت مع مجموعة من زملائي العلماء بصنع مركبة فضاء للهرب مع عائلاتنا قبل اندلاع الحرب.. وقد خبأنا المركبة في مكان سري لا يعلمه أحد سوانا.. لكن جهاز المخابرات اللعين كشف خطتنا وقبض علينا جميعا.. إلا أننا لم نكشف لهم أبدا مكان مركبتنا.. وقد تمكنت لحسن الحظ من الهرب.. وأرسلت رسالة نصية إلى شقيقتي من أقرب جهاز كمبيوتر عثرت عليه.. فأخطأت في الرقم من شدة التوتر.. وأرسلت لك أنت الرسالة بدلا منها.. المهم أنني قمت بإرسال الرسالة مرة أخرى إلى رقم شقيقتي الصحيح.. وتوجهت بعدها إلى هنا لألتقي بها مع والدتي وآخذهما إلى تلك المركبة الفضائية ومن ثم الخروج من عالمنا بأكمله.. كان هذا قبل أن تعثر علينا بالطبع ونسمح لك بالذهاب معنا.. المشكلة أنني لا أعلم إلى أين سنذهب.. سنهرب إلى الفضاء تجنبا الموت في الحرب فحسب.. قد تبدو لك محاولتنا للنجاة يائسة.. وربما يكون هذا صحيحا.. إذ لن نتمكن من الصمود في الفضاء أكثر من شهرين على الأكثر بسبب نقص المؤن والمواد الغذائية.. لكنها تبقى فرصة.. فرصة أخيرة للنجاة.. أفضل من البقاء هنا وسط الحرب والموت المؤكد.

نظرت إليه بعينين مغرورقتين بالدموع.. وقد شعرت أن نهايتنا قريبة لا محالة.. قبل أن أسأله وأنا أمسح دموعي:

- ماذا عن الرئيس؟ ؟!.. هل سيهرب أيضا؟!.

قال بحقد شديد:

- لقد استعد جيدا لما سيحدث.. فقد قام بتجهيز سرداب هائل له ولأفراد عائلته والموالين له.. بل ووضع فيه من المؤونة ما يكفيهم لسنوات طويلة.. إنه وغد حقيقي لا يبالي بأحد كما تعلم.. ثم....

لم يكمل كلامه.. بل سكت فجأة عندما لمحنا من بعيد وفي وسط الصحراء بناء مهجوراً كبير الحجم نسبيا كما بدا لي.. هل هو المكان السري الذي أخفى فيه المركبة؟!.. أظن ذلك.

ظللنا صامتين بترقب شديد إلى أن وصلنا أخيرا.. لنخرج من السيارة سريعا.. وقام الرجل بدوره بإخراج والدته العجوز التي كانت تمشي بصعوبة.. لا أعلم كيف ستصمد امرأة في مثل سنها وتحتمل مشقة السفر عبر الفضاء.

شعرت وكأنه قرأ أفكاري.. إذ قال بحزم:

- هذه المركبة مصممة بأحدث تكنولوجيا.. ستشعر وكأنك في بيتك عندما ترتادها ولست مسافرا في الفضاء!!!.

لم يعلق أحد على كلامه.. بل دخلنا مسرعين إلى ذلك المبنى المهجور.. ووجدت في وسط الساحة الداخلية مركبة فضائية لم أرَ مثلها في حياتي.. كانت مصممة بطريقة غريبة للغاية.. لكني لم أجد الوقت لأبدي دهشتي.. إذ طلب منا الرجل - الذي عرفت أن اسمه (ي) - أن ندخل بسرعة عبر البوابة الصغيرة للمركبة.. ورحت أساعد والدته وشقيقته للدخول.. ثم دخل خلفنا أخيرا.. وأغلق الباب آليا بضغطة زر.

رحت بعدها أمعن النظر داخل المركبة.. كانت واسعة من الداخل ومصممة بشكل هندسي رائع.. وبالطبع هناك أجهزة كثيرة في كل مكان حولي دون أن أعرف أي شيء عنها.. لكن هذا الرجل يعرف.. لا شك في ذلك.. إنه أملنا الوحيد في الهرب من هنا!!!.

لحظات قليلة.. قبل أن أسمع صوت هدير قوي في الخارج.. لقد بدأت المحركات بالعمل كما يبدو.. الإضاءات الداخلية تعمل.. وجميع الشاشات تضيء أيضا وتعطي عشرات البيانات التي لم نفهم منها شيئا.. وحده (ي) الذي راح يعبث بالأجهزة والأزرار حتى شعرنا أخيرا باهتزاز بسيط!!!!.. ورأينا من النوافذ أن المركبة ترتفع قليلا.. ليطلب منا الجلوس في المقاعد المخصصة.

لقد كانت المركبة مصممة لـ 15 شخصا على الأقل.. لكن القبض على زملائه العلماء كما يقول قد أفسد العملية بأكملها.. يا إلهي.. إنه القدر.. القدر وحده دون شك الذي جعل (ي) يبعث الرسالة على رقم خاطئ.. فلولا هذه الرسالة النصية لما كنت هنا الآن.

تجمدت في مكاني للحظة وأنا أنظر حولي بدهشة.. أتذكر حياتي الروتينية وذهابي اليومي إلى العمل وكأنها أمور بعيدة جدا حدثت منذ زمن طويل أو حدثت لشخص آخر.. ففي غضون ساعات قليلة.. أجد مصيري مرتبطا بغرباء لم ألتقِ بهم في حياتي وقد أعيش معهم ما تبقى من العمر في الفضاء الخارجي حيث المجهول!!.

بدأت المركبة ترتفع ببطء شديد وتبتعد عن الأرض شيئا فشيئا.. ورأينا عبر النوافذ الزجاجية عالمنا بأكمله.. ثم:

- يا إلهي.. لقد بدأ الهجوم فعليا!!.

قالها (ي) بأسى وهو يشير بيده إلى نقاط متفرقة.. ثم أكمل بصوت مرتجف:

- انظروا.. إنها صواريخنا النووية.. رئيسنا الوغد يطلقها الآن إلى الدول المجاورة.. سيتم الرد علينا بأسلحة مماثلة دون شك.. سيموت الملايين جراء الهجوم الأول.. وسيلحقهم الباقون بسبب التلوث والإشعاعات النووية.

كنا جميعا نراقب ما يحدث حولنا من خلال نوافذ المركبة بمشهد صامت بليغ وننظر بأسى إلى الصواريخ النووية وهي تطير باتجاهات مختلفة في السماء.. كارثة حقيقية ستحدث حين تتوالى الانفجارات.. سيباد عالمنا بأكمله في زمن قياسي.. فقلت برهبة:

- هل.. هل هناك أمل في الناجين؟ ؟!.. هل سيبقى شيء من الحضارة؟ !!.. هل من الممكن أن يعاد بناء كل شيء في المستقبل؟!!.

قال بأسف:

- لن أكذب عليك.. لن تكون هناك حضارة.. والناجون لن يبقوا أحياء طويلا.. سيقتلون بعضهم في غضون أيام بسبب نقص الغذاء والماء.. هذا إذا نجوا من التلوث الإشعاعي.. إن طبيعتنا ليست حضارية كما نظن دائما.. فنحن متحضرون طالما القانون موجود والآلات وأجهزة الاتصال تعمل.. لكن.. لو توقف كل هذا فسنصبح وحوشا.. لن تكون هناك قواعد أو قوانين حينها.. صدقني!!!.

وأمام هذه الكلمات القاسية.. انهار الجميع فجأة.. وتعالت شهقاتنا وأصوات بكائنا جميعا.. كنا نبكي بأسى على تلك النهاية المأساوية.. لقد انتهى كل شيء.. حياتنا.. عالمنا.. انتهى كل هذا فجأة!!!.. حتى نجاتنا ليست لها معنى.. فلا نعلم إلى أين سنتجه في هذا الفضاء اللامتناهي.. على الأرجح سنموت بعد مدة قصيرة بسبب نقص المؤونة.. نحن ندرك ذلك جيدا.

كنت دائما في طفولتي أحسد رواد الفضاء لأنهم ذهبوا إلى نقاط بعيدة لم يصل إليها

إنسان.. وها أنا الآن أصبحت منهم وسأرى ما رأوه.. لكني سأموت بعدها على الأرجح.. يا لقسوة الحياة و يا لسخرية القدر.

خرجنا أخيرا من المجال الجوي بعد ساعة أو أكثر قليلا.. ورأينا العالم يحترق.. والأدخنة تغطيه سريعا.. ربما سيموت الناس قبل أن يستوعبوا ما يحدث حولهم.. إننا نشهد نهاية كل شيء في هذه اللحظة.. شقتي.. عملي.. زملائي في العمل.. وربما نهايتي نفسها.

ظللنا بعدها في المركبة الفضائية تائهين في الكون لفترة تتجاوز الشهر دون أدنى أمل للنجاة.. ولولا الظرف البائس الذي كنا نعيشه.. لسطرت لكم صفحات طويلة عن روعة الكون والفضاء والنجوم التي لم أرها قريبة مني كما أراها الآن عبر نوافذ المركبة.. لكن.. لم يكن المزاج رائقا لكتابة كلمات شعرية عن انبهارنا بما نراه.

كان أفضل ما حدث خلال ذلك الشهر هو التقارب الشديد بيني وبين (ي) وشقيقته ووالدته.. حتى أصبحت فردا من عائلتهم.. ولا أنكر أنني شعرت بميل شديد ناحية شقيقته.. لكني أخفيت عنها مشاعري تلك.. إذ لم يكن الوقت مناسبا لذلك.. إلا أنني قررت الإفصاح عن مشاعري متى ما دنت ساعتنا.

مرت بعدها الأيام عصيبة بسبب تناقص المؤن دون العثور على أي أمل للنجاة.. قبل أن يصرخ (ي) فجأة في ذلك اليوم بانفعال شديد:

- مهلا.. مهلا.. هناك بادرة أمل.. يا إلهي.. لقد.. لقد عثرت على ثقب دودي!!.. إنني أول من يرصد ثقبا دوديا في التاريخ.. هذا أمر مذهل.. قد يكون هذا طريق نجاتنا!!!.

نظرنا إليه بأمل أمام حماسه المتواصل.. قبل أن تسأله شقيقته بحذر:

- ماذا تعني يا أخي؟ ؟!.. ما هو الثقب الدودي؟ !!..

ظل ينظر باهتمام إلى شاشة الكمبيوتر.. ثم قال وهو يشير بيده إلى نقطة محددة:

- إنه بمثابة ممر أو نفق يصل بين مكانين متباعدين في الفضاء.. أي أنه بمثابة طريق نختصر به السفر من مكان إلى آخر في الكون!!!.

يبدو أن أحدا منا لم يفهم حرفا من كلامه.. لذا سألته بتوتر:

- لا يهمني كثيرا أن أفهم يا صديقي العزيز.. المهم أن ننجو فحسب.. عفوا.. هناك سؤال بديهي.. إلى أين سيأخذنا هذا الثقب أو النفق الدودي كما تطلق عليه؟؟!.

التفت إلينا بقلق وهو يقول:

- لا أعلم.. ولا أحد يعلم.. هذه هي المشكلة.. إذ لم يعبر أحد أي ثقب دودي من قبل.. بل ووجود الثقوب الدودية أصلا كان مجرد نظريات نتحدث عنها ونحاول إثباتها رياضيا.. قبل أن نكشف الآن فعليا وجودها على أرض الواقع!!!.. الأمر المقلق هو أن الطاقة الموجودة داخل الثقب الدودي هائلة وستدمر أي جسم يعبرها بلمح البصر.

سكت قليلا ثم أردف باهتمام:

- لقد ابتكر أحد زملائي العلماء نوعا من الأصباغ ذات الكثافة العالية جدا والتي استخدمها لطلاء هذه المركبة من الداخل والخارج بحيث توقف كل تأثيرات الثقوب الدودية العنيفة ([20]).. لكن هذه هي المرة الأولى التي سنجرب بها كفاءة ذلك الطلاء الفيزيائي!!.. وعلى كل حال.. لا يوجد لدينا حل آخر.. ستنتهي المؤن في غضون أسبوعين.. والوقود لن يكفي لأكثر من 20 يوما من الآن.

وضعت يدي على كتفه مؤيدا.. إذ لا يوجد ما يقال.. يجب أن نقوم بهذه التجربة المخيفة.. قد تكون أملنا الأخير.. ثم.. قام بتوجيه المركبة إلى ذلك الثقب الدودي.. ورحنا ننتظر مصيرنا بصمت.. والتوتر سيطر تماما على الأجواء داخل المركبة.. حتى مرت ساعة كاملة من الصمت التام قبل أن يقول (ي) بهدوء شديد من رهبة الموقف:

- لقد وصلنا إلى الثقب.. سندخل الآن.. وليحدث بعدها ما يحدث.

سكتنا جميعا بترقب مخيف.. ورحنا ننظر إلى بعضنا مرة أخرى.. لا أعلم.. لا أعلم لماذا أحدق بشقيقة (ي).. هل هو الوقت المناسب لأخبرها بمشاعري؟ !!.. ربما يتوجب علي الانتظار قليلا.. ما زلت أشعر بالخوف من مصارحتها بكل شيء أمام شقيقها.. لكني لم أمنع نفسي من التحديق بها بحب جارف.. حتى إنها لاحظت نظراتي.. وبادلتني بدورها النظرات لكن بعينين دامعتين شعرت من خلالهما أننا لن نعبر ذلك الثقب أحياء.

لحظات قليلة قبل أن تهتز المركبة فجأة بعنف شديد دون توقف أشعرنا بغثيان حقيقي.. أنظر حولي إلى الفضاء الخارجي!!!.. يا إلهي.. إن ما أراه عبر النوافذ مذهل للغاية.. وكأن هناك من يطفئ الأنوار في الخارج ويضيئها بسرعة بالغة.. نصف ساعة مضت على هذا الوضع حتى شعرت شخصيا أنني سأبتلع لساني نفسه من قوة اهتزاز المركبة.

ثم.. سكن كل شيء فجأة.. وعادت الأمور إلى طبيعتها.. لينهض (ي) من كرسيه ويتأكد أننا على ما يرام.. لكن:

- أمي!!.. استيقظي يا أمي.. أمي!!!.. أميييييييي.

سقطت شقيقته على الأرض باكية منهارة وهي تصرخ.. وراح شقيقها يحاول إسعاف والدته بيأس.. لكن.. لم يكن هذا ليجدي.. لقد توفيت الأم.. لم تحتمل المسكينة هذا الارتجاج العنيف.. لقد توقف قلبها وماتت في كرسيها!!!.

رحت أبكي بدوري لا شعوريا.. الدموع تنهمر من عيني دون توقف أمام ما نشهده من مصائب.. ربما لو كنا بقينا ومتنا في الحرب لكان الأمر أفضل بكثير.. على الأقل كنت سأموت سريعا في لحظة واحدة دون ألم.. أما هذا الموت البطيء فلا يحتمله أحد.

لا أدري كم مر من الوقت ونحن نبكي وننتحب في حين وضعت شقيقة (ي) رأسها على صدر والدتها وراحت تحتضن جثمانها في حرارة.. حتى إننا نسينا تماما عبورنا ذلك الثقب الدودي بنجاح ونجاتنا نحن الثلاثة على الأقل.. إلا أن صوتا ما قد أعادنا إلى الواقع لنتذكر ما يحدث حولنا.. فقد سمعنا صوتا غريبا ينبعث من أحد أجهزة المركبة.. لكنه بدا لي وكأنه صوت النجاة!!!.. وكان توقعي صحيحا.. إذ صرخ (ي) فجأة:

- يا إلهي.. لقد عثرنا على كوكب يصلح للحياة.. هذا الصوت الذي نسمعه جميعا.. إنه صوت برنامج في جهاز الكمبيوتر قمت بتصميمه بنفسي.. وهو يقيس إمكانية الحياة بالنسبة لنا على أي كوكب نعثر عليه.. الغلاف الجوي.. هواء الكوكب.. الكائنات الحية.. لقد عثرنا على كوكب يصلح تماما للحياة.. بل ويشبه كوكبنا كثيرا!!!.

وأمام كلامه الحماسي.. وقفنا جميعا ننظر حولنا.. ورأينا بالفعل نقطة بعيدة نسبيا لكنا نقترب نحوها بثبات.. في حين راح (ي) يكمل بحماس وهو يعبث بأزرار الحاسوب:

- لقد تمكنت من الدخول إلى شبكة معلومات هذا الكوكب.. إنهم يستخدمون حواسيب قديمة جدا لا تقارن أبدا بحواسيبنا المتطورة.. إنهم.. إنهم يطلقون على هذا الكوكب اسم: الأرض!!!.. هذا غريب.. من المفترض أن يطلقوا عليه اسم: كوكب الماء.. بسبب المساحات الشاسعة من المياه التي تغطيه.

انفرجت أساريرنا أمام هذا الاكتشاف.. لتقول شقيقته بدهشة وبمزيج من الفرح والحزن كونها فقدت والدتها للتو:

- الأرض!!!.. أي اسم هذا!!!.

راح شقيقها يعبث مرة أخرى بأزرار الحاسوب.. لتظهر على الشاشة أحد مدن كوكب الأرض التي التقطها جهاز الرصد في المركبة.. فقال بانتصار:

- أنظرا إلى سكان كوكب الأرض.. إنهم يشبهوننا تماما ولن نجد مشكلة في الاندماج بهم.. يبدو

أن كوكب الأرض قد نشأ في ظروف مماثلة لتلك التي نشأ عليها كوكبنا.. ولحسن

الحظ أيضاً أنني جلبت الخوذة الخاصة بتعلم اللغات.. سنضعها على أدمغتنا.. وسنتعلم أهم لغاتهم في لحظات قليلة ([21]).. يبدو لي كوكبا لا بأس به على الإطلاق.. لكن ...

لم يتم عبارته.. بل التفت ناحيتنا وأشار بإصبعه محذرا:

- يجب أن نبقي أمرنا سرا.. وألا يعلم سكان كوكب الأرض أبدا أننا زوار من الفضاء.. سنندمج تماما معهم ولن يعرفوا عنا شيئا.. تذكرا هذا جيدا أرجوكما.. وسأحرص الآن على اختيار بقعة غير مأهولة للهبوط كي لا يلحظ وجودنا أحد.. ثم سندفن جثمان والدتي هناك.. وسأحرص بعدها على برمجة مركبتنا لتعود هائمة إلى الفضاء البعيد حتى لا يعثر عليها أحد من سكان الأرض.

نظرنا إليه في فهم.. ونظرت إلى شقيقته التي وقعت في حبها وأصبح قلبي أسيرا لها بسرعة غير معقولة.. قبل أن أقول بهمس:

- صديقي العزيز.. أعلم أن والدتك توفيت منذ قليل.. لكن صدقني.. لا يوجد وقت أفضل من هذا.. هل.. هل تسمح لي بالزواج من شقيقتك؟!!!.

نظر إلي بدهشة.. ثم نظر إليها ورآها تبتسم بحزن.. فابتسم بدوره دون أن يبدي موافقته أو رفضه.. لكني واثق أنه سيوافق.. أستطيع أن أقرأ هذا في ملامحه.. بل إنني العريس الوحيد المتاح في هذا العالم الجديد كما نعلم جميعا.

وأمام هذا الهدوء المهيب.. قلت لشقيقة (ي) بهمس دون أن يسمعنا:

- لقد أحببتك طوال حياتي.

ردت بهدوء حزين:

- إنك لم تعرفني سوى منذ فترة قصيرة!!!.

قلت بحب حقيقي:

- لقد بدأت حياتي منذ تلك الفترة القصيرة فحسب يا حبيبتي!!!.

نظرت إلي بحنان واغرورقت عيناها بالدموع.. ثم رحنا ننظر إلى الشاشة معا ونحن نقترب من كوكب الأرض.. نقترب من حياتنا الجديدة.. حياة مليئة بالأمل.. نعم.. لهذا لم أخبركم باسمي أو باسم أي من الشخصيات في القصة.. فأسماؤنا الحقيقية تختلف عن الأسماء التي تستخدمونها في كوكبكم.. ولكن هذا لا يهم.. فها نحن الآن - وبعد مرور 3 سنوات على وصولنا - نعيش بينكم دون أن تدركوا أننا في الواقع مخلوقات فضائية!!!.

لقد قمنا بتزوير كل الأوراق اللازمة للاندماج بينكم دون أن تعلموا حقيقتنا.. فنحن نريد أن نعيش بسلام.. هذا كل ما نريده وما ننشده.. قد نكون جيرانكم.. بل قد أكون صديق أحدكم.. لكن لا أحد يعرف أبدا أننا من كوكب آخر.. وعالم آخر.. حيث هربنا من مصير كوكبنا الذي احترق.. ومن يوم الكارثة!!.

سرقة مستحيلة

- بالله عليكم كيف يحدث أمر كهذا؟!!!.. إنه المستحيل بعينه!!!.. كيف تُسرق خزينة الشركة أمام عيني دون أن أشعر؟؟!!.. كيف تختفي الأموال هكذا فجأة؟!.. هذا لا يمكن أن يحدث.. هذا مستحيل تماما!!!.

كان وجهي يحتقن غيظا وأنا أصرخ بجنون في وجه مسؤول الخزينة والزبد يتطاير من فمي حتى لأكاد أن أصاب بذبحة صدرية جراء ما يحدث!!!.. فرد بحدة مماثلة دون الوضع بالاعتبار أنه يعمل عندي:

- سيدي.. أنت رأيت بنفسك ما حدث.. لقد أقفلت باب الخزينة أمامك قبل أقل من ساعة.. واتصلت بشركة نقل الأموال لتأتي وتأخذ الأموال من الخزينة إلى البنك.. ألم أفعل كل هذا أمامك؟ !!.. إنك حتى لم تخرج من مكتبي طوال تلك الساعة.. فحتى لو أريد أن أسرق الخزينة.. كيف سأفعلها؟!!.

قلت وأنا أصرخ كالمجنون:

- أعرف أن كل هذا قد حدث أمامي.. وأعرف أنك لا تستطيع أن تسرق الخزينة حتى لو أردت ذلك.. لكن أخبرني بالله عليك.. كيف تختفي الأموال بهذه الصورة الغريبة؟؟!!.. الأموال لم تسرق.. بل اختفت.. هذا أدق وصف لما حدث.. فكيف تختفي فجأة.. أين ذهبت؟!!.

ظل الموظف ينظر إلي في حيرة شديدة ثم ضرب كفيه ببعضهما كناية عن عجزه التام عن الإجابة على تساؤلاتي.. ولا ألومه على ذلك في الواقع.. فالأمر غريب بالفعل.. بل هو مستحيل دون أي مبالغة!!!.

المعذرة.. لم أخبركم بالتفاصيل كاملة بسبب الغضب والانفعال الشديد الذي سيطر علي بعد اختفاء الأموال من خزينة الشركة بصورة غريبة كما فهمتم من سياق الحديث.. لكن.. دعوني أخبركم بالتفاصيل.. القصة هكذا بكل بساطة.. لقد ذهبت إلى غرفة مسؤول الخزينة.. وطلبت منه الاتصال بشركة نقل الأموال لأننا مقبلون على إجازة العيد.. ولا نريد أن نترك 50 ألف دينار في الخزينة في وقت الإجازة.. ثم طلبت منه أن يفتح الخزينة للمرة الأخيرة لنتأكد من وجود الأموال وأن كل شيء على ما يرام.. وظللت بعدها أتحدث معه حول أمور أخرى.. إلى أن جاء حراس شركة نقل الأموال.. ففتحنا لهم باب الخزينة لنفاجأ بها خالية تماما.. علما بأنني لم أترك الغرفة لحظة واحدة!!!.. وكذلك لم يفعل مسؤول الخزينة.. فكيف اختفى المال؟!.. أخبروني بالله عليكم.. كيف؟ !!.. هل فقدنا عقولنا جميعا؟ !!.. هل هي سرقة؟!.. لا أظن ذلك.. فالأمر يبدو أشبه بأعمال السحر والشعوذة؟!.

ظللنا نطرح التساؤلات تلو الأخرى إلى أن وصل رجال الشرطة برفقة ضابط من المباحث الجنائية.. فرحت أشرح له كل ما ذكرته منذ بداية قصتي.. وأخبرته أنني لا أستطيع أن أتهم أحداً بالسرقة لأن طريقة اختفاء المال لا يمكن أن تكون من أفعال البشر!!!.

استمع إلي ضابط المباحث جيدا وبعينين متسعتين على آخرهما.. قبل أن يطلب التحقيق مع جميع الموظفين على انفراد وأن يفحص الخزينة جيدا.. وأن أتأكد إن كان هناك أحد قد تغيب عن العمل اليوم!!!.. لا أعرف جدوى كل هذا.. لكني نفذت كل ما يقوله بالحرف.. فأنا أريد

استعادة أموالي فحسب.

تركته يحقق مع الجميع.. ورحت أبحث بنفسي في سجلات الموظفين.. لكني لم أجد أي حالة تغيب في شركتي اليوم.. لا تنسوا أننا نتحدث عن القطاع الخاص حيث مبدأ الثواب والعقاب يعملان بكل حزم.. لذا فالتغيب أمر غير معتاد هنا.

مضت أكثر من ساعتين قبل أن ألتقي بالضابط مرة أخرى في مكتبي وعلامات التفكير واضحة على ملامحه.. ليخبرني أنه تحدث مع جميع الموظفين.. وأن القضية الرئيسية ليست (من) سرق أموالي.. بل (كيف) تمت سرقة المال من الخزينة؟؟!!.. يا سلام.. وكأنه قال شيئا لا أعرفه!!!.

المهم أنه راح يسألني إن كان لدي أعداء وإن كان هناك من يعلم بوجود هذا المبلغ في الخزينة.. بالطبع كل رجل لديه منافسين في عالم التجارة.. لكن لا يوجد لدي أعداء إلى درجة القتل أو سرقة أموالي كما يحدث في الأفلام الأجنبية!!!.

استمع الضابط إلى كلامي جيدا.. ثم ذهب لتفتيش الخزينة بدقة شديدة على حد قوله.. لكن.. لم يكن هناك ما يستحق التفتيش أصلا.. فالخزينة خالية تماما.. ولا تحوي أي مخابئ سرية مثلا.. لذا لم تطل فترة التفتيش.. قبل أن يترك كل شيء ويجلس صامتا في قاعة الاستقبال وهو ينظر إلي وإلى الموظفين الذين احتشدوا حوله في حيرة شديدة أوضحت مدى عجزه.. والواقع أنني لا ألومه كثيرا.. فنحن أمام قضية مستحيلة كما يبدو.. قضية لا يمكن حتى أن تكتبها في قصة وإلا سيتهمك الناس بالإغراق في الخيال!!!.

سكتنا طويلا.. وساد المكان صمتا مهيبا.. ثم سألني الضابط عن كل ما فعلته اليوم في الشركة.. فأجبته بملل شديد شاعرا أنه يطرح أسئلة لا داعي لها أصلا.. لكنه طرح فجأة سؤالا غريبا:

- ماذا عن الأمس؟!.. هل كانت الأموال موجودة في الخزينة أيضا؟؟!

قلت له وأنا أمط شفتي أمام هذه السؤال الذي بدا غبيا للغاية:

- بكل تأكيد.. وإلا لماذا كانت موجودة اليوم؟!.. من الذي سيسرق الأموال في الأمس ويعيدها اليوم ثم يسرقها مرة أخرى أمام عيني دون أن أشعر؟!.. ولم هذا العبث؟؟!.

سألني مرة أخرى:

- هل هناك كاميرات مراقبة؟!!.

هززت رأسي نفيا وأنا أقول:

- توجد كاميرات مراقبة عند بوابة الدخول والخروج.. لم أكن أظن أننا نحتاج إلى كاميرات داخل مبنى الشركة!!!.. لكن.. يبدو أنني كنت مخطئا.. سيحدث هذا قريبا بكل تأكيد

رد باهتمام:

- سأطلب من زملائي مشاهدة أشرطة الفيديو الخاصة بكاميرات المراقبة في الأيام الثلاثة الماضية وإن كنت أشك أننا سنجد أي شيء غير عادي.. عموما.. أنا هنا لا أجد أمامنا سوى تفسيرين.. أن تكون أنت قد قمت بتمثيلية سرقة الأموال بالاتفاق مع بعض موظفيك لغرض أجهله.. أو أن يكون أحدهم قد خدعك بطريقة عبقرية وسرق المال من الخزينة.

قلت بغضب شديد:

- هل سأسرق أموالي بنفسي؟ !!.. اسمع.. لا يوجد أي اتفاق مع الموظفين كما تقول.. كما أن وضعي المالي ممتاز ولن أضحي بكل نجاح حققته في حياتي من أجل مغامرة غبية كهذه.. لا يوجد أمامنا سوى أن يكون أحدهم قد خدعني بالفعل كما تقول.. ولكن كيف؟ ؟!.. كيف سيخدعني أي إنسان ويسرق المال أمام عيني؟!.. ما هي طبيعة الخدعة؟!!.

زفر بقوة بعد أن شعر أن كلامه مجرد هراء ولا يعني شيئا.. ثم استجمع أفكاره كما يبدو وأخبرني أنه سيبعث بفريق لرفع البصمات مع عمل الإجراءات الروتينية العادية التي تصاحب أي عملية سرقة.. قال هذا وأمرنا بعدها بالعودة إلى أماكننا إلى أن يصل فريق البحث الجنائي.. وإن كنت لا أتوقع أن يقدم ذلك الفريق أي مساعدة تذكر.

كانت الأفكار تتضارب في ذهني شاعرا أن فهم عملية السرقة قد بات لدي أهم من العثور على المال نفسه.. فالفضول بات يقتلني قتلا.. كيف فعلها السارق؟!.. كيف فعلها السارق؟ !!.. ظللت أكرر السؤال وأفكر ساعات طويلة.. حتى مع وصول فريق البحث الجنائي الذي لم يفعل شيئا ذات أهمية كما توقعنا.. فالبصمات معروفة.. إنها بصماتي وبصمات باقي

الموظفين.. ثم.. قطع حبل أفكاري دخول الضابط غرفتي.. ليسألني سؤالا آخر بالغ الغرابة:

- تقول إنك لم تخرج من الغرفة.. وأن مسؤول الخزينة قد أقفل بابها أمامك.. وإنكما ظللتما في الغرفة لحين قدوم موظفي شركة نقل الأموال الذين ما إن فتحت لهم باب الخزينة.. لتكتشف أنها خالية.. أليس كذلك؟!.

أومأت برأسي إيجابا في ملل بعد أن تحدثنا عن هذا مائة مرة على الأقل.. لكنه سألني فجأة:

- هل كنت تشاهد مسؤول الخزينة لحظة إغلاقه باب الخزينة؟؟!!.

مططت شفتي مستغربا لعدم جدوى هذه النقطة عموما.. لكني رغم ذلك أغلقت عيني محاولا أن أتذكر.. ثم.. قلت بعدم اهتمام:

- لقد أمرته أن يغلق باب الخزينة.. ثم توجه نظري إلى مكان آخر.. ولكن.. ما الذي سيعنيه هذا؟!.. كيف سيسرق مسؤول الخزينة 50 ألف دينار في لحظة كهذه قد لا تتجاوز الثانيتين بأفضل الحالات.. أو ربما أقل؟!.. هذا مستحيل يا حضرة الضابط.

قال مبتسما:

- إنني أريد أن أتأكد فقط أنك لم ترَ مسؤول الخزينة يغلق بابها والمال بداخلها.

كدت أن أقول له:

- يا خيبتك.. وما الفائدة من هذا؟!.

لكني لم أقل ذلك بالطبع.. بل قلت بالمقابل وبنفاذ صبر:

- هذا لن يجيب على شيء يا سيدي.

نظر إلي بغموض.. ثم اتجه إلى ممر الشركة الرئيسِ ليقول بصرامة وبصوت مرتفع معلنا للجميع أن التحقيق سيستمر دون توقف حتى يتم الكشف عن السارق.. مع التشديد أنه لن يسمح لأي موظف بالسفر خلال فترة التحقيق التي قد تطول لبضعة أيام.. واستدار بعدها ليعود إلى مكتبي

أمام نظرات استنكار الموظفين.. لكنه توقف فجأة بشكل غريب وكأنه يتذكر أمرا هاما.. ثم اقترب مني ليقول هامسا:

- نحن فتشنا كل شيء.. لكنا أغفلنا نقطة مهمة!!.

نظرت إليه شاعرا بعودة شيئا من الأمل.. ليردف قائلا:

- لقد فتشنا الشركة بالكامل.. لكنا لم نفتش الموظفين.. بل اكتفينا بالتحقيق معهم.. أخبرني.. هل جوازات سفر الموظفين بحوزتك؟!.

اومأت برأسي إيجابا.. ليقول باهتمام:

- أعتقد أن من سرق المال هو موظف في الشركة.. وإلا لن يضطر لارتكاب جريمة معقدة مستحيلة الحدوث كما تبدو للوهلة الأولى.. لقد فعل هذا ليحول انتباهنا من (من) سرق الأموال إلى (كيف) سرقها؟ !!.. فطالما نجهل طريقة السرقة ولا نجد المال في أي مكان.. لا يمكن أن نوجه الاتهام لأحد.. إن السارق يراهن على هذا!!!.. باعتقادي أن طريقة السرقة مرتبطة بشكل كبير بمعرفة الفاعل.. سنقوم بتفتيش جميع الموظفين والتحقيق معهم مرة أخرى.. المهم ألا يخرج أحد من الشركة قبل أن تنتهي عملية التفتيش.

أومأت برأسي موافقا.. فأكمل قائلا:

- هل تعلم؟!.. إن هذه العملية عبقرية للغاية وتحتاج إلى شخص غير عادي ليفعلها.. هل تعرف شيئا عن موظفيك؟!.. أي شيء مريب؟؟!!.

قلت وأنا أتنهد:

- لدي حوالي 25 موظفاً.. كل منهم متخصص في مجال عمله.. ويسعى لكسب لقمة عيشه.. لا يوجد أي شيء غير عادي بشأنهم على حد علمي.

رد بهدوء:

- سأرسل قائمة بأسماء جميع الموظفين إلى المباحث الجنائية.. سنعرف كل شيء عن حياتهم الشخصية خلال ساعات.

نظرت إليه.. ثم طلبت من السكرتيرة قائمة كاملة بأسماء الموظفين مع أرقام هواتفهم وكل ما يتعلق بهم.. و.. لم يستغرق الأمر وقتا طويلا قبل أن يجد ضابط المباحث القائمة أمامه بالفعل.. حيث أرسلها بالفاكس الموجود في مكتبي إلى الإدارة المعنية.. وجلسنا جميعا ننتظر.. دون أن ينسى التشديد على رجاله مرة أخرى وأخرى ألا يسمحوا لأحد بالخروج من الشركة إطلاقا.. بل وحتى استخدام الحمام لن يتم إلا بعد أخذ الإذن منه شخصيا!!!.

ساعات قليلة من الانتظار والترقب.. ليصلنا أخيرا فاكس طويل يحوي بيانات كاملة عن كل موظف.. إذ راح الضابط يقرأها بعناية بالغة محاولا العثور على أي شيء غير عادي.. أي شيء غريب قد ينير لنا الطريق على حد قوله.

لم يكن الأمر سهلا.. فقد استغرق بضع ساعات حتى شارف وقت العمل الرسمي على الانتهاء.. فالسرقة بدأت في الثامنة والنصف صباحا والساعة الآن تقارب الرابعة عصرا.. لكن.. انفرجت أسارير الضابط فجأة وهو يقول بلهجة الانتصار:

- اسمعني جيدا.. لحسن حظك أنني إنسان متفتح الذهن إلى أقصى حد.. وإلا لم أكن لأفكر بهذه الطريقة أصلا.. إن لدي نظرية.. لكن يجب التأكد منها أولا.. أريد أن نفتش جميع الموظفين مرة أخرى.

اللعنة.. لقد أصبح هذا مملا.. ماذا سيفيدنا التفتيش؟ !!.. دار ذلك السؤال في ذهني وأنا أشاهد الضابط يخرج من غرفتي ليأمر أحد رجال الشرطة بالبدء بتفتيش شامل لجميع الموظفين مع مكاتبهم.. ليس من أجل العثور على المال هذه المرة.. بل للعثور على أي شيء غريب مهما بدا تافها.. وهو أمر بالغ الصعوبة.. فنحن لا نتحدث عن البحث عن أسلحة مثلا.. بل عن أي شيء غير عادي.. وهذا ما استغرق أكثر من 3 ساعات أخرى.. هذا متوقع.. فمصطلح (أي شيء غير عادي) نسبي ويعتمد على رؤية الباحث.

لذا فقد تجمعت أشياء عديدة أمام الضابط بعد انتهاء عملية التفتيش.. هوية قديمة لأحد الأندية الصحية في بلد أحد الموظفين.. خاتم زواج غريب الشكل.. مجسم صغير للغاية للاعب كرة قدم شهير.. إلخ.

وبدأ الضابط يفحص كل شيء بعين خبيرة.. قبل أن يتوقف أخيرا وينظر بارتياح إلى قطعة بلاستيكية مجهولة صغيرة للغاية!!!.. استفسر عن صاحبها.. وإذا به مسؤول الخزينة.. فأمر مباشرة بالتحقيق معه في غرفتي!!!.

جلسنا في غرفة المكتب.. في حين ظل مسؤول الخزينة واقفا ينظر إلينا بتوتر حاول أن يخفيه لكنه عجز.. ثم.. سأله الضابط بصرامة:

- ما هي تلك القطعة البلاستيكية الصغيرة التي عثرنا عليها في جيبك؟؟!!

قال وهو يزدرد لعابه:

- إنها سماعة.. سماعة صغيرة للأذن.. كنت قد اشتريتها لابن شقيقتي في بلدي.. وسأرسلها له قريبا.

نظر إليها الضابط مرة أخرى.. ثم قال بخبث:

- لا تبدو لي كذلك.. لكنا على كل حال سنأخذها إلى الخبير الجنائي للتأكد من طبيعتها.. وسيتم
- إلى ذلك الحين - حجز جميع جوازات سفر الموظفين مع تعميم أسمائهم في منافذ البلد لمنعهم من المغادرة.

لم أكن أظن أن هذا سيكشف الأمر برمته.. لقد تبينت الحقيقة فجأة وبشكل غريب غير متوقع على الإطلاق!!!.. فما إن انتهى الضابط من كلامه وعن نيته بفحص تلك القطعة الصغيرة في المختبر.. حتى انهار مسؤول الخزينة فجأة.. وراح يطلب مني العفو ويرجوني أن

أرحمه لأنه يعيل أسرته وأسرة شقيقته على حد قوله.. ليبتسم ضابط المباحث أخيرا بفخر وهو يقول:

- لقد كنت محقا في تصوري.. إنني لم أخبرك بنظريتي في البداية حتى لا تتهمني بسعة الخيال.. لكن يبدو أنني محقا كما ترى.

تجمدت في مكاني تماما وأنا أستمع إليه دون أن أنطق بحرف.. فقال الضابط وكأنه سيلقي محاضرة:

- دعني أخبرك بما كان يحدث دون علمك.. لقد كانت مشكلة هذه القضية من ناحيتين.. إذ لم يكن هناك أي مشتبه بهم.. كما أن طريقة اختفاء المال كانت غريبة للغاية كما تعلم.. وهذا ما جعلني أفكر أن من قام بهذا الفعل هو شخص يمتلك عقلية غير عادية.. وليس فقط متخصصا بما يفعله هنا من أعمال إدارية.. لذا كان لا بد أن أعرف شيئا عن الحياة الشخصية لموظفي الشركة.. وعندما استقبلت الفاكس من إدارة المباحث الجنائية وقمت بعدها بقراءة كل ما يتعلق بالموظفين.. لم أجد أي شيء يثير الريبة.. جميعهم يبحثون عن لقمة العيش ولا يمارسون أي هواية غير عادية.. بعضهم يمارس الرياضة بين الحين والآخر في فترات الإجازة.. والبعض الآخر متزوج ويقضي وقت فراغه مع أسرته.. لم يكن هناك ما يريب سوى في مسؤول الخزينة نفسه!!!.. فتقرير المباحث الجنائية عنه يشير إلى أن هذا الرجل يشتري بين الحين والآخر قطع الكترونية متفرقة من مواقع الانترنت.. وبدا هذا واضحا من سجلات بطاقة الائتمان الخاصة به.. كان يبدو أنه يشتري تلك القطع ليصنع شيئا ما.. ولو وضعنا بالاعتبار عشقه الشديد وولعه وموهبته بالأجهزة الإلكترونية الدقيقة.. فستنكشف الصورة أمامنا.

سألته في حيرة واضحة:

- ما الذي تتحدث عنه؟ !!.. هذا الرجل يحمل شهادة دبلوم محاسبة.. وهو يعمل مسؤولا للخزينة هنا.. أي مواهب وأي عشق للأجهزة الإلكترونية؟!.. ثم كيف سيساعده هذا في عملية السرقة؟؟!!.

رد بثقة:

- لا علاقة للأمر بالشهادات والدراسات.. العالم يمتلئ بأناس يحملون شهادات مغايرة تماما لمواهب يمتلكونها.. إذ تجد رجلا يعمل في سلك الشرطة مثلا.. لكنه يمتلك موهبة كبيرة في لعب الكرة.. أو إصلاح أجهزة الراديو والتلفاز التالفة.. المهم أنني عندما اكتشفت تلك القطعة الصغيرة في جيب مسؤول الخزينة.. أثارت شكوكي كثيرا.. خاصة مع توتره الشديد.. فهو لم يتوقع إطلاقا أن نقوم بتفتيش جيوب الموظفين.. لأننا نتحدث هنا عن مبلغ ضخم يستحيل أن يكون مخبأ في جيب أحد.. كما أن الرجل يمتلك مزية هامة لا يمتلكها أي موظف.. وهي أنك ستقوم بتبرئته بنفسك.. لأنه كان معك في غرفة الخزينة وقد أغلق بابها أمامك حين كان المال موجودا فيها قبل أن يتصل بشركة نقل الأموال.

سكت قليلا أمام نظراتي المتحفزة المذهولة وسقوط مسؤول الخزينة على الأرض باكيا.. ثم قال:

هذه القطعة الصغيرة هي في واقع الأمر جهاز لبث صور (الهولوجرام) ([22]).. جهاز دقيق للغاية يبث لك صورة لشيء لم يكن موجوداً أصلا في الخزينة!!!.

سألت مستغربا:

- هولو... ماذا؟؟!!.

قال ببطء شديد كي ألتقط الكلمة:

- جهاز (هولوجرام).. استخدمه ليخدعك ويبث صورة للخزينة وهي تحوي النقود.. بينما كانت الخزينة خالية تماما منذ أن سرق النقود.. نعم.. لقد سرق النقود منذ أيام على الأرجح وخبئها في حقيبة ما.. حقيبة الكمبيوتر المحمول مثلا.. وأخرجها من الشركة.. ثم وضع في باب الخزينة

الداخلي تلك القطعة الصغيرة التي لا يمكن أن تنتبه إليها إلا لو بحثت عنها ودققت النظر جيداً.. هذه القطعة كانت تبث صورة هولوجرامية مجسمة ثلاثية الأبعاد لشكل النقود.. وعندما فتح باب الخزينة أمامك لتلقي نظرة على النقود.. كنت في الواقع ترى الصورة الهولوجرامية المجسمة.. لكنه أزال ذلك الجهاز الصغير بسرعة وأخفاه في قبضة يده.. هل تذكر عندما سألتك إن كانت الخزينة لم تغب عن ناظريك منذ أن فتحها أمامك إلى أن أغلقها.. فأجبتني أنك غضضت بصرك عنها بعد أن تأكدت من وجود الأموال فيها؟!.

أومأت برأسي إيجابا بفم مفتوح على الآخر.. فابتسم الضابط وهو يقول:

- نعم.. في اللحظة التي أدرت بصرك فيها إلى مكان آخر.. أمسك مسؤول الخزينة بجهازه الصغير هذا سريعا وأخفاه في قبضة يده.. ثم في جيبه.. وقد بقي مطمئنا إلى حد كبير من أننا لن نقوم بتفتيش الموظفين ذاتيا.. لكنه فوجئ تماما عندما أمرت بهذا.. لنعثر على ذلك الجهاز الدقيق في جيبه.. وهذا ما كشف أمره.

سألته بذهول:

- ولكن كيف عرف أنني سأنقل بصري إلى مكان آخر لحظة إغلاقه باب الخزينة ولن أراه وهو يأخذ جهاز بث (الهولوجرام) هذا ويخفيه في جيبه؟!!

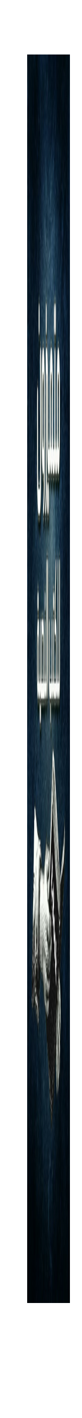
رد ببساطة:

- ربما اعتمد على الحالة النفسية.. فأنت ستشعر بأن كل شيء على ما يرام عندما ترى الأموال متكدسة في الخزينة ولن تدقق النظر بعدها.. أو ربما كان لديه حلاً آخر.. مثلا أن يقف أمام الخزينة ليحول بينها وبين بصرك.. ومن ثم يلتقط الجهاز الملتصق على باب الخزينة من الداخل دون أن تراه.. هناك عشرات الوسائل.. فلا تنسَ أن الجهاز الذي يبث الصورة المزيفة صغير للغاية ولا يمكن أن تنتبه له بسهولة.. كما أن طريقة ارتكاب الجريمة عبقرية بحق.. ولا تنسَ أيضا أن الغالبية العظمى من الناس لا يعرفون أي شيء عن (الهولوجرام).. وهذا ما راهن عليه مسؤول خزينتك.. لكنه خسر الرهان.

سكتنا طويلا ونحن نوجه أنظارنا إلى مسؤول الخزينة الذي لم يتوقف عن البكاء والتوسل.. وشكرت الضابط كثيرا على كل ما فعله.. ورأيته وهو يخرج من مكتبي ويطلب من رجال الشرطة اقتياد مسؤول الخزينة إلى المخفر.

و.. لم يعد هناك ما يقال.. كانت بالفعل جريمة عبقرية.. لكن كما يقولون.. الجرائم الكاملة هي عنقاء الطب الشرعي.. أي أنها مستحيلة وغير موجودة.. وها هي أغرب الجرائم قد تم كشف طلاسمها في ساعات قليلة فحسب.. رغم أنني ظننت أن نقودي قد سرقت إلى الأبد ولن تعود.. وأن هذه السرقة لا يمكن كشف ملابساتها أبدا.. لأنها سرقة غير عادية كما بدا لنا جميعا للوهلة الأولى.. سرقة مستحيلة.

(تم الكتاب بحمد الله)



Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس:

الملاحظات

[←1]

(1) لقد وقع بطل القصة في الخطأ الشائع الذي يقع فيه الكثيرون.. إذ يظن الكثير من الناس أن كلمة (شمطاء) تقال لوصف المرأة العجوز الشريرة مخيفة المنظر.. والواقع أن معنى الكلمة ليس كذلك.. بل هي تعني: (المرأة التي خالط البياض سواد شعرها).. أي أن كل امرأة عجوز تعتبر شمطاء قياسا إلى هذا التعريف.

[←2]

(2) في اللغة الهولندية ينطق حرف الـ(G): خ.

[←3]

(3) قرية حقيقية بالطبع.. وهي فعلا من أجمل بقاع العالم.

[←4]

(4) كل الكلام المذكور عن الموت السريري هو حقائق علمية.

[←5]

(5) كل الكلام حول الظهور المفاجئ لذلك الجندي الفلبيني هو حقائق تاريخية مذكورة في العديد من المراجع.

[←6]

(6) حقيقة وإن بدت لك غريبة.

[←7]

(7) هناك تجربة فريدة من نوعها ومذهلة -رغم بساطتها- قام بها مجموعة من العلماء.. وكان الهدف من التجربة الإجابة على تساؤلات هامة حول الذات البشرية.. فمتى يدرك الإنسان ذاته ويعرف أنه هو؟ !!.. وهل الإنسان هو الكائن الحي الوحيد الذي يدرك ذاته ويعرف أنه هو؟!.. هل هناك كائن آخر غيرنا يدرك ذاته؟!.. فهل يدرك الفيل أنه فيل مثلا؟!.. هل تدرك الأفعى أنها أفعى؟ !!.. وهل لدى الزرافة ذلك الشعور ب(الأنا)؟ !!.. وإذا كانت الحيوانات والحشرات تدرك ذاتها.. فكيف سنعرف أنها تعرف؟ !!.. لقد أجاب العلماء على تلك الأسئلة في السنوات القليلة الماضية.. عندما تم ابتكار تجربة فريدة وطريفة في نفس الوقت لمعرفة متى يدرك الإنسان ذاته ويتكون لديه الشعور ب(الأنا) = =تجربة يطلق عليها اسم (إدراك الذات في المرآة) !!.. إذ جاء العلماء بمرآة كبيرة.. ووضعوا أمامها طفلا لا يتجاوز عمره سنة و 4 شهور.. وتركوه يلهو أمام المرآة

لبضع ثوان ليتأكدوا أنه قد رأى نفسه تماما خلالها.. ثم جاؤوا بوالدته وطلبوا منها أن تأخذ منديلا وتمثل كما لو أنها تمسح أنفه!!.. وخلال ذلك.. تضع له خلسة لصقه سوداء على خده.. وفي مكان يستطيع الطفل أن يراه مباشرة لو رأى نفسه أمام المرآة مرة أخرى.. فإذا أدرك الطفل نفسه عندما يرى انعكاسه في المرآة.. فسيلاحظ تلك اللصقة على خده بكل تأكيد.. لكن.. ما إن وضعوا الطفل أمام المرآة مرة أخرى.. حتى راح يلهو دون أن يكترث لوجود اللصقة على خده!!!.. بل ولم يحاول حتى لمسها رغم أنه رآها جيدا أثناء لهوه.. فعرف العلماء أن الطفل لا يدرك نفسه في هذا السن.. ولا يعرف أنه (هو).. أي أنه لا يملك إحساسا ب. (الأنا).. ثم جاؤوا بطفلة أخرى عمرها سنة و 10 شهور.. وكرروا التجربة معها.. فما إن رأت نفسها في المرآة.. حتى انتبهت إلى اللصقة على الفور وأزالتها مباشرة من على خدها!!.. فقد أدركت مباشرة أنها هي ذاتها الشخص الذي ترى صورته في المرآة.. وأدرك العلماء بعد تكرار التجربة كثيرا على الأطفال أن الإنسان تتشكل عنده (الأنا) ويدرك ذاته بين عمر 12 – 24 شهرا.. وجدير بالذكر أن تجربة (إدراك الذات في المرآة) قد مورست في البداية على الحيوانات فقط.. قبل أن تتم ممارستها على البشر في جامعة (بورتسموث) في (بريطانيا) والوصول إلى تلك النتائج المذكورة.. كما لا ننسى أن نذكر أن التجربة قد فشلت مع جميع الحيوانات سوى الشمبانزي!!!.. فهو الكائن الوحيد - إلى جانب الإنسان - الذي يدرك ذاته.

[←8]

(8) النمل الأبيض (Termite) أو (الأرضه) كما نطلق عليه في (الكويت) هو ليس نملاً بالمعنى الحقيقي.. فشكله يختلف تماما عن النمل الذي نعرفه.. حيث يتصل فيه الصدر بالبطن مباشرة وبدون خصر كما هو الحال مع النمل المعروف.. ويعتبر النمل الأبيض من أخطر الحشرات التي تقضي سنوياً على العديد من الأبنية والأثاث والمكتبات وكذلك الأشجار المعمرة والمحاصيل.. بل وحتى المباني الأسمنتية.. إذ يخترق الحواجز الأسمنتية ليفرغها من محتواها تماما مما يسبب خطرا هائلا على المباني ويجعلها تنهار بشكل مفاجئ.. وقد حدث هذا - مع الأسف الشديد - كثيرا في الماضي وفي العديد من البلدان.. كما يهاجم النمل الأبيض أيضا الكتب والأوراق وأعمدة التلغراف والتليفون والكرتون والملابس وغيرها.. علما بأن تلك الحشرة تسبب خسائر مادية هائلة قد تصل إلى 2 بليون دولار سنويا لبعض الدول جراء ما تلتهمه وتفسده!!!

[←9]

(9) كل المعلومات المذكورة عن النمل الأبيض حقيقية.

[←10]

(10) حقيقة.. وقد تم اكتشاف هذا النبات عام 2010 في (إندونيسيا).. حيث يستخدم أوراقه الكبيرة لتكون فخا لاصطياد الجرذان.. إذ يطبق بأوراقه على الجرذ ومن ثم يلتهمه.. علما بأن اكتشاف كائنات جديدة بات أمرا يحدث باستمرار ولم يعد يدهش العلماء.. ولا ننسى ما حدث عام 2010 أيضا عندما اكتشف فريق من وكالة أبحاث الفضاء الأمريكية (ناسا) وفي عمق 600 قدم تحت الجليد في قارة (أنتاركتيكا) الجليدية مخلوقا برتقالي اللون يشبه الربيان يسبح في الماء وفي درجة حرارة منخفضة للغاية!!!.. إذ لم يكن أحد يعرف قبل هذا الاكتشاف أن هناك مخلوقات قادرة على الحياة في درجات متجمدة كهذه.. مما حدا بالبعض أن يتساءل.. لو كان بإمكان مخلوق كهذا أن يعيش في تلك الأجواء من البرودة.. فهل يعني ذلك إمكانية وجود مخلوقات أخرى تعيش تحت ظروف قاسية في كواكب أخرى تحت طبقات الجليد؟!.. علما بأن قصة ذلك المخلوق البرتقالي شهيرة جدا.. بل وستجد لقطات فيديو له في مواقع الانترنت.. ويبقى السؤال الأهم.. هل كان هذا الكائن موجودا ولم يكتشفه الإنسان سوى الآن؟!.. أم أنه نتاج الهندسة الوراثية وقد تخلص منه العلماء سرا في تلك البقعة الثلجية المنعزلة؟!.. لا أحد يعلم!!.

[←11]

(11) واقعة حقيقية رغم غرابتها وقد ذكرتها العديد من المجلات والمواقع العلمية المتخصصة.

[←12]

(12) كل ما قيل عن النمل الأبيض في هذه الفقرة حقيقي.

[←13]

(13) نستذكر هنا عالم الرياضيات العبقري (جريجوري بريلمان) (Grigory Perelman) الذي رفض استلام جائزة بقيمة مليون دولار مُنحت له عندما قام بحل واحدة من أعقد المسائل الرياضية والتي حيرت علماء الرياضيات أكثر من 100 سنة.. حتى إن إحدى الجمعيات الخيرية اقترحت عليه أن يتسلم المبلغ ثم يتصدق به.. ولكن هذا العالم المنعزل الذي يعيش مع أمه في شقة متواضعة رد عليهم بعبارة مقتضبة للغاية حين قال: ((لدي كل ما أحتاج إليه)).. وحتى هذه العبارة القصيرة قالها لصحفي من خلف باب شقته!!!.

[←14]

(14) في التاسع من مارس عام 1929 تم العثور على جثة المدعو (إزيدور فينك) في الحجرة الخلفية من المصبغة التي كان يمتلكها في أحد شوارع (نيويورك).. علما بأن (إزيدور فينك) هذا كان أحد المهاجرين من (ليتوانيا).. ولم تكن لديه أسرة.. بل وكان عدد أصدقائه محدودا جدا.. كما لم تكن لديه أية صلات مع العصابات التي كانت تهدد أمن (نيويورك) آنذاك.. ومع ذلك.. فقد كان يخشى شيئاً مجهولا حتى أنه جعل من مصبغته حصنا منيعا!!!.. حيث جهزها بأجود وأغلى الأقفال.. وزود نوافذها بقضبان من الحديد.. ولكن رغم ذلك.. عثر عليه رجال الشرطة مقتولا بطلق ناري في المصبغة.. ولم تكن هناك أية أسلحة نارية فيها.. الغريب في الأمر أن المصبغة كانت مغلقة بإحكام من الداخل.. وكذلك النوافذ.. وظل الأمر لغزا لفترة طويلة.. قبل أن يتم تقييد القضية ضد مجهول.. ربما.. أقول ربما إن طريقة انتحار الزوج شبيهة بما حدث في قضية (إزيدور فينك) هذه.. إنه مجرد تخمين لا أكثر.

[←15]

(15) حقيقة.. ويشمل هذا مع الأسف عالمنا العربي كما تقول الإحصائيات الأخيرة.. ولو تواصلت الأرقام بالارتفاع فإن هذا سينذر بكارثة في المستقبل.

[←16]

(16) كل ما هو مذكور عن فوائد الابتسامة حقيقي تماما.. ولا ننسى أن نذكر أن عضلات الوجه التي تتحرك عند الابتسام هي 17.. بينما التي تتحرك عند العبوس 42 عضلة.

[←17]

(17) دراسة حقيقية رغم غرابتها.. وتتمثل بتفجير قنابل كيميائية بكثافة في أجواء المريخ.. ومن ثم ستحدث تفاعلات كيميائية ضخمة ستنتهي بتولد غلاف جوي لكوكب المريخ.. ومع تكون الغلاف الجوي ستتكون الغيوم وتسقط الأمطار.. ومع سقوطها ستنبت البذور وتظهر النباتات وترعى الحيوانات ويعيش الإنسان وكأنه على نسخة ثانية من الأرض.. حتى إن الكثير من العلماء قد اقتنعوا بتلك الفكرة ووجدوا أن الانتقال إلى المريخ قد يكون حلا مستقبليا مناسبا إذا ما تعرض كوكبنا لكارثة طبيعية قد تجعل الحياة على سطحه مستحيلة.

[←18]

(18) حقيقة

[←19]

(19) حقيقة.. خاصة إذا علمنا أن أمراض القلب هي المسبب الأول لحالات الوفاة في العالم.

[←20]

(20) هذا ما يظنه العلماء بالفعل.. فهم حاليا في طور التفكير بابتكار مادة من الممكن استخدامها لطلاء جدران المركبات الفضائية من الداخل والخارج.. وذلك لحمايتها من التأثيرات العنيفة للثقوب الدودية إذا تمكن العلم من الوصول إلى تلك الثقوب يوما.

[←21]

(21) هناك أبحاث ودراسات جادة بالفعل حول تلقين الإنسان كل ما يحتاجه من علوم من خلال وسائل تكنولوجية مختلفة.. منها فكرة الخوذة الذي تم ذكرها في القصة.

[←22]

(22) الهولوجرام هو عبارة عن تقنية تسمح للضوء بتصوير الجسم بكامله ثم تحاكيه تماماً وتظهره بصورة متقنة جدا ثلاثية الأبعاد.. تماما كما لو كان موجوداً بالفعل وليس مجرد صورة.. ويتم استخدام أشعة الليزر التي تعتبر العامل الأساسي والرئيسي لصنع الصورة الهولوجرامية.. وقد وصلت تقنيات الهولوجرام في زمننا الحالي إلى درجة مذهلة.. ولا ننسى هنا قناة (CNN) الإخبارية الشهيرة التي فاجأت العالم ذات مرة باستضافة أحد مراسليها داخل ستوديو القناة ثم اتضح أن المراسل ليس سوى صورة هولوجرامية.. وجدير بالذكر أن الهولوجرام قد تم استخدامه كثيرا في قصص الخيال العلمي.. لكنه الآن أصبح واقعا يُستخدم في مجالات كثيرة.